

مَعَّ صَالِح سَلَام

أثباتك

رواية



على أسوار بابل

أتاتورك

مي صالح سلام

رواية

أأتاتورك

رواية

تأليف :

مي صالح سلام

تصميم الغلاف:

أأمد مراد

مراجعة لغوية:

سيد عثمان

رقم الإيداع: 2017/22459

الترقيم الدولي: 4-045-820-977-978

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم

هاتف أرضي: -0235611772 0235688678

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: kayanpub*gmail.com - info*kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادة طبع أو نشر في أي صورةٍ كانت ورقيةً أو إلكترونيةً أو بأية وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

في نفس كل عربي، شيء عربي...

... بل إن الحقيقة هي أنك ذلك المغامر الهائم، الذي فرَّ من قارته هربًا إلى ذلك المحيط
الواسع بحثًا عن جزيرة من المجهول... فلا هو على يقين من وجودها ولا يهتم إن لم
يجدها، وإن أفنى حياته ساعيًا خلفها، فإن الحياة ثمن بخس أمام شعوره بأنه قد سافر عبر
الأزمان محاولًا إرضاء شيء في نفسه، فلا يقدر أن يحيا بسؤال: ماذا لو خضت المحاولة؟
... فإن وطئت أقدامه جزيرة المجهول فاز، وإن لم تصل حصل على إجابة سؤاله.

أتاتورك... أجمل حدائق ومنتزهات إسطنبول والتي تصنف من الغابات... مهرب العامة إلى الطبيعة للانسجام بمناظر الحياة الخضراء، بعيداً عن زحام المدينة الخراسانية، يتجه إليها الجميع بحثاً عن لحظة يجتمع فيها النقاء والهدوء والانفراد بالطبيعة...

في مدخل أتاتورك توجد نافورة المياه الجميلة ترحب بزوارها، وتسلمهم لعدة طرق مختلفة يختار كل منهم طريقه ليصل إلى مظهر من مظاهر الطبيعة المختلفة التي تحتويها الحديقة، وتضم الحديقة أكثر من ألفي نوع من النباتات المختلفة، من البلدان المختلفة... وبنهاية أحد الطرق الذي يؤدي إلى إحدى البحيرات الصغيرة بالحديقة، تلهو سلحفاة صغيرة ما بين الشاطئ الصغير واليابس، وينظر إليها السيد "عدنان" بسعادة ممزوجة بالغبطة، فهو سعيد برؤيتها تلهو على الشاطئ، ويغبطها على نقاء عالمها البسيط، البعيد عن التخطيط الاستراتيجي والسياسي وأدخنة السيجار، واختناق رابطات العنق، وضيق الأفق، والقلق بشأن الغد...

العراقي "عدنان الأحمد" المقيم بتركيا بحكم طبيعة عمله، أستاذ للغة العربية بجامعة السلطان محمد الفاتح بإسطنبول... يجلس على أحد مقاعد أتاتورك يقرأ الترجمة العربية لرواية الكاتبة "أغاثة كريستي" (جريمة في قطار الشرق السريع)، (Murder on the Orient Express) الصادرة في يناير عام 1934، والتي تدور معظم أحداثها عن تحقيق العدالة الغائبة، من خلال جريمة قتل على متن القطار ما بين إسطنبول ولندن ...

وبينما يجلس السيد "عدنان" في الحديقة ينظر إلى السلحفاة بإعجاب شديد بعدما فرغ من قراءة جزء كبير من الرواية، وإذا بصديقه الوحيد في تركيا المصري الكابتن "محمود" الذي يعمل طياراً بالخطوط الجوية التركية، والعائد من رحلته إلى لندن محملاً بالأخبار عن "زهرة" ابنة السيد "عدنان" التي تعيش في لندن برفقة جدتها لأمها السيدة "كاثرين"...

ويبدأ الكابتن حديثه قائلاً:

- ما زلتُ لا أفهم سر عشقك لحديقة أتاتورك!

يتحدث "عدنان" بصوت أربعيني أصابت أحباله الصوتية شيخوخة السبعين...

- لا أدري ربما أتمنى أن أكون مثل هذه السلحفاة الصغيرة، ليس لدي ما أخشاه في الحياة.

- آه، يا صديقي إنها الروايات التي تحيا بين طيات صفحاتها...

- دعك من هذا، كيف هي الصغيرة؟

- لم يعد هذا الوصف يصلح لها أبدًا، إن المشاكسة الصغيرة تكبر بسرعة، وهي بخير تمامًا،

لا ينقصها سوى سماع صوتك في كل يوم...

ثم أخرج "محمود" هاتفه ليرى الأب المشتاق ابنته في أحدث صورها...

- انظر كم هي جميلة...

- نعم تشبه أمها كثيرًا.

- عدنان، لماذا تدعي الانشغال عن ابنتك؟ إنها ترغب في رؤيتك كثيرًا، كيف لك أن تكون

قاسيًا إلى هذا الحد؟ كيف لك أن تجلس هنا، تنتظر أخبارها مني في كل مرة أسافر فيها

إلى لندن... لماذا تتركها تكبر في أحضان جدتها بعيدًا عنك؟

- ماذا تريدني أن أفعل، لا أستطيع أن أحتويها، مشرد أنا بلا وطن، إلى أي وطن أدعوها،

قُتلت أمها أمام عيني، ولم أملك لها شيئًا من رصاص الغادرين، فكيف أنظر في عينيها إن

سألتنني أين أمي؟

- يا رجل بالله عليك، أنت تقتل نفسك هكذا!

- ومن قال لك إنني من الأحياء، هل حياة بعيدة عن وطني، بعيدة عن ابنتي ومن تبقى لي في هذه الدنيا، حياة؟!

- ولماذا لا تعود إذن إلى وطنك، لما لا تحضر "زهرة" وتعودا إلى بابل، لماذا تضيّع عمرك هنا، إلى أي مدى تظن أن حديقة أتاتورك ستحتوي هروبك من ذاتك!

- هل تدرك معنى حديثك، تريدني أن أفقدها هي الأخرى على أيدي أولئك المجرمين تجار الدين والأعراف؟!

سكت الصديق لبرهة من الوقت فهو يعلم جيداً ما مر به صديقه من صعوبات، ولكن رغبته في التخفيف عن صديقه دفعته للكلام... فعاود الحديث بنبرة صوت هادئة:

- ولكنه من غير المعقول أن تمضي عمرك هارباً من الحياة في حديقة أتاتورك...

- لم تعد لدي رغبة في الحياة، فقط أريد لابنتي أن تحقق رغباتها فيها، ولا أظن أنني قادر على توفير المناخ المناسب لها لتفعل ذلك، أضف إلى ذلك أنني لا أستطيع أن أبعدها عن جدتها... العجوز ترى فيها عزاءً لابنتها التي فقدتها في بلادي...

- عدنان، أنت لا تنفك تذكّر نفسك بها.

- كيف لي أن أنسى... !

- كيف لك أن تعيش على هذه الذكرى الأليمة؟

- اعذرني يا صاحبي، كنت أعشق همس صوتها، ولمساتها التي تشبه لمسات نسمة الريح الطيب العطر، ما زلت أشعر بصوت أنفاسها الأخيرة بين ذراعي، ما زلت أشعر بدمائها تلتخ ثيابي.

كالعادة كان على محمود أن يستسلم، فهو يدرك أن ما من كلمة قد تخفف عبء صديقه، فأمسك بيده، وكأنه يواسيه وقال:

- هيا دعنا نمضي من هنا...

ثم مضى هو وصديقه مغادرين أرض أتاتورك... ومن شدة الألم في صدر عدنان نسي أن يحضر رواية "أغانا كريستي" وتركها على المقعد خلفه...

السيد "عدنان الأحمد" مواليد مدينة بابل العراقية، درس اللغة العربية بجامعة الموصل، وتابع الدراسة إلى أن حصل على درجة الدكتوراه في اللغة العربية، وانتقل إلى تركيا، بعد مقتل زوجته أمام عينيه في مدينة بابل مسقط رأسه برصاص الغدر في إحدى الاشتباكات بين الطوائف الدينية، كانت زوجته هي الراحلة البريطانية "سارة جورج"، مستشرقة بريطانية كانت تدرس التاريخ اليوناني والإغريقي في إنجلترا، واعتنقت الإسلام أثناء دراستها ومن ثم انتقلت إلى جامعة الموصل لدراسة التاريخ الإسلامي، قبل الحرب الأمريكية على العراق. التقت بالسيد عدنان في جامعة الموصل، وبعد قصة حب من الصعب أن ينهي الزمن ملامحها من ذاكرته، تبعها صراع مع والديها البريطانييّن "جورج" و"كاثرين" اللذين لم يعترضوا على اعتناقها الإسلام بقدر اعتراضهما على الزواج من عراقي، وبقائها في العراق خاصة بعد اندلاع الحرب فيه أثناء حرب العراق على الكويت، ومن ثم الحرب الأمريكية عليه، ولكنها أصرت على الزواج من "عدنان" وانتقلا إلى إنجلترا وأقاما الزفاف بلندن، لكن سرعان ما ضاق عدنان ذرعًا بالبقاء بعيدًا عن وطنه، واشتد الخلاف بينه وبين "جورج" لرغبته في اصطحاب "سارة" والعودة للعراق، وكان جورج يسمي العراق حينها land of hell، فغادر عدنان لندن إلى العراق، بعدما اشتد الخلاف بينه وبين جورج، تاركًا زوجته خلفه وهي تحمل طفلته الأولى، ولم تمض عدة أسابيع حتى لحقت به الزوجة بدافع حبها وإخلاصها له، ومكثًا برفقة أهله في مدينة بابل... وهناك ولدت الطفلة الصامتة "زهرة".

حيث اكتشفا في عامها الثالث أن الله رزقهما بطفلة بكماء لا تتكلم، وكانت الأمور في البداية لا بأس بها، رغم الحرب وحوادث القتل والانفلات الأمني الذي أصاب البلاد، والاعتقالات والقتل العشوائي على الأسس العرقية، رغم أنين الجراح على الوطن الذي ينزف دمائه قطرة بعد الأخرى وهو يذبح بسكين الحرب الباردة...

كان يكفي عدنان دفع اللجوء إلى أحضان زوجته وابنته، رغم قلقه الزائد عليهما، ومع اشتداد الأوضاع سوءًا، وبعدهما خيمت سحب الحرب السوداء على سماء العراق، قرر عدنان أن يعيد زوجته وابنته إلى لندن، خاصة أنها كانت حاملاً في طفلهما الثاني، ولكن القدر سرعان ما داهمه، فبعدهما حصل على تأشيرة السفر، شعرت زوجته في اليوم السابق ليوم السفر بوعكة مرضية، فذهبا إلى الطبيب وفي طريق العودة أوقف سيارته ليدخل إلى إحدى الصيدليات ليشتري العلاج لزوجته، تاركًا إياها في السيارة وفي أقل من عشر دقائق سمع أصوات الرصاص تنهال من كل صوب وهدب...

ملثمون على درجات نارية انهالوا على المكان بطلقات الرصاص، وخرج الزوج أثناء إطلاق النار، مسرعًا بناحية السيارة، وفتح الباب ليجد زوجته غارقة في دماؤها، فحملها خارج السيارة ولكن لم يستطع التحرك إلى أي مكان؛ حيث ازدادت طلقات النيران من كل اتجاه، فبقي الزوج يحمل زوجته على ذراعه وهي تفقد آخر أنفاسها، وتضع يدها على وجهه، وتتنظر إليه بشدة وكأنها لا تصدق أنها سترحل ولن تراه مجددًا، بينما بقي هو ينادي "يا رب... يا رب" بصوت مرتفع... ويتوسل إليها "سارة... لا ترحلي... لا تتركيني... ابقيني معي..."

إلى أن ينتهي المشهد بتسليم الزوجة روحها إلى خالقها ويكتب الله قضاءه فيها، بعد أن نطقت شهادة الإسلام... وينخفض صوت النيران شيئًا فشيئًا... إلى أن يختفي الصوت تمامًا، ويعم الصمت على الجثث في المكان، وتنطلق صرخات النساء من كل مكان، في مشهد مروع تقشعر له الأبدان... وخيم الوجود على الزوج، يتيم الوطنيين فبين يديه وطنه الصغير ضريح الموت، ومن حوله وطنه الكبير ضريح الخراب...

وبين يديه، ماتت الناطقة بشهادة الإسلام على يد دعاة التطهير الديني، والعراقي...

... عندما قتلت والدة "زهرة" كان عمر الفتاة أربع سنوات، وبرحيل زوجته وحبيبته انهار "عدنان"، وكره حياته بعد أن شعر أنها ضمن العديد من الحيوانات التي لا يضع لها صناع الحروب ثمنًا، خاصة بعد الأحداث السياسية في بلاده بعد الحرب الأمريكية عليها.

فترك عمله بالجامعة، وقرر الانتقال إلى لندن برفقة ابنته، ومكثًا في منزل السيدة "كاثرين"، والدة "سارة"، بينما "جورج" العسكري المتقاعد والأب السبعيني لم يستطع أن يتكيف مع الحياة بعد رحيل ابنته التي لم يستطع أن يحميها من أفكارها كما كان يحدث نفسه، وأصابه الجنون؛ إذ لم يصدق أن ابنته ماتت، فكان يذهب إلى الكنيسة كل يوم، يتضرع بين يد الرب ليعيد ابنته للحياة، ولا ينفك يقف في غرفة الاعتراف يعترف بذنوبه، ولا ينفك يضيء شموع الأمانى تحت أقدام العذراء... إلى أن فارق الحياة واقفًا على قدميه بجوار آلة الموسيقى، يستمع إلى الموسيقى المفضلة لدى ابنته الراحلة سارة، وتحت قدميه كأس الويسكي الساقط من يده...

لم يبق في المنزل بعدها سوى "زهرة" والسيدة "كاثرين"، وابنتها الأخرى "كيت" التي كانت تدرس القانون... كانت كاثرين كثيرًا ما تحتضن "عدنان" لتشعر بقرب ابنتها منها، وكانت تشم رائحتها فيه؛ لأنها تعلم كم كانت ابنتها تحبه، ولكن لم يستطع "عدنان" المكوث معهم طويلاً؛ إذ كان يرى في الطفلة صورة زوجته الجميلة، وهي تلفظ آخر أنفاسها بين ذراعيه وهو يرجوها ألا تذهب وتتركه... ولكنها فعلت...

لم يستطع قضاء وقت طويل في إنجلترا، فبعد شهور قليلة قرر العودة للعراق، ولكنه لم ينو البقاء في أراضي وطنه، بل قام بنقل عمله من جامعة الموصل إلى جامعة السلطان محمد الفاتح في إسطنبول، على الرغم من أنه لا يتقن اللغة التركية، وفي الأراضي التركية، أسرته أشجار ونباتات حديقة أتاتورك، فأصبحت ملاذه من كل شيء، يهرب إليها كثيرًا من ذكرياته الأليمة، برفقة روايته التي ما ينفك يغرق نفسه بين طيات صفحاتها، هروبًا من أفكار زوجته الراحلة... وفي إسطنبول التقى بصديقه المصري "محمود"، ولم يصادق أحدًا غيره.

كان الكابتن المصري متعاطفًا كثيرًا مع قصة صديقه العراقي، فهو لا ينفك يتابع الأحداث السياسية، وتسوؤه كثيرًا أوضاع البلاد العربية ويتابع أحداثها، وهو الأمر الذي كان يزعج "عدنان" كثيرًا. فقد اعتاد الهروب من كل شيء وبخاصة من الأحوال السياسية. وكان يكره أن يتحدث مع صديقه "محمود" حول السياسة.

حيث كان "عدنان" يرى أن السياسة الدولية تشبه لعبة شطرنج غير متكافئة الأطراف، ويرى أنها قائمة على النفاق والكذب، فالقادة يخدعون الشعوب، والشعوب تقبل بالخضوع، ودعاة حماية الحق منتشرون في كل مكان، وحقوق الإنسان كيان هش أمام المصالح العليا... ويرى أن لعبة السياسة ما هي إلا حرب باردة للفوز بالغنائم، وكل شيء فيها مباح وقاعدتها الوحيدة هي: لا قواعد...

لذلك كان يحب كثيرًا اللجوء إلى أتاتورك، وكان كثيرًا ما يسير في غابتها بين الأشجار المختلفة لساعات دون أن يمل...

كإنسان لا يملك هدفًا في الحياة وترافقه باستمرار ذكرى زوجته وحبيبته الراحلة، يمضي "عدنان" الأيام على هامش الحياة... يتجنب معرفة الناس ويبتعد عن الحياة الاجتماعية... مضى عام على بقاءه في إسطنبول التي لم يغادرها إلى مدن أخرى بتركيا يكفيه منها اللجوء إلى حديقته الشهيرة أتاتورك.

إلى أن شاء القدر أن ينسى روايته في ذلك اليوم على أحد مقاعد أتاتورك، لتقع في يد الأميرة "شامية"...

"شامية" الأميرة الشقراء زرقاء العين لامعة الجبين، أميرة قصر السيد "عمر الأغا" وأميرة قلبه أيضًا، فهي ابنته ووريثة عرشه الوحيدة، فتاة جامعية على أبواب العشرينيات... بينما والدها السيد "عمر" ينتهي نسبه إلى أسرة السلاطين في الدولة العثمانية، رجل أنيق سلطان في ذاته يمتلك مجموعة من شركات المقاولات الكبيرة في تركيا، ومساهم في عدة

شركات في مجالات أخرى، متزوج من العراقية السيدة "رقية عرفات" من مدينة الأنبار العراقية.

وتعمل "رقية" كطبيبة أطفال بإحدى المستشفيات في تركيا، وهي عضوة في جمعية أطباء بلا حدود، تقضي معظم أوقاتها في العمل الخيري... كثيرة السفر إلى المناطق المنكوبة، وكانت آخر زيارتها، برفقة أعضاء الجمعية... إلى الأراضي الفلسطينية... على الرغم من اعتراض زوجها بشدة على انضمامها للجمعية خوفاً على حياتها لكنها كانت متمسكة بتأدية رسالتها بقوة...

بين الأب الديمقراطي ورجل الاقتصاد، والأم الأخلاقية وسيدة الخير... نشأت "شامية" الفتاة المتحررة تمامًا من فكر الاثنين، بل كانت كيانًا خاصًا بها، تذهب للجامعة في الحافلة كبقية رفاقها، تتجول في الطرقات بملابس بسيطة مترفعة عن الفخامة، تقضي معظم أوقاتها برفقة أصدقائها، وتعشق البقاء معهم... أكثر شيء تجيده في الحياة هو الاستمتاع بوقتها... تستطيع أن تقضي العطلات في مختلف بقاع العالم، لكنها تفضل قضاءها في شوارع إسطنبول برفقة أصدقائها... ليس لدى "شامية" أي نظرة فلسفة خاصة سوى أنها تعيش لتستمتع بأيامها... لكنها لم تكن تدري أن كل هذا على وشك أن ينقلب رأسًا على عقب...

صديقتها المقربة "عائشة" صديقة طفولتها وزميلة دراستها... والباقون "معتز" و"رهف"... من أماكنهم المفضلة في إسطنبول حديقة أتاتورك... ولكن ليس للاستجمام بالمنظر الطبيعي، بل للهو والمرح على شواطئ بحيراتها...

في اليوم ذاته الذي نسي فيه عدنان رواية "أغاثا كريستي" على أحد مقاعد أتاتورك، دخلت شامية ورفاقها الثلاثة إلى المتنزه ومروا بالمقعد نفسه لتعثر شامية على الرواية...
قالت:

- انظروا ماذا وجدت...

ردت عائشة:

- ماذا؟

- لقد نسي أحدهم كتابه... جريمة في قطار الشرق السريع... "أغاثة كريستي" من هي أغاثة كريستي؟

ردت عائشة:

- وما أدراكي... مكتوب بالعربية... أنا لا أقرأ العربية...

ضحكت رهف وقالت:

- وهل تقرئين بأي لغة أخرى حتى تستثنين العربية...

ردت عائشة بغضب:

- حقًا ولما لا تفيدنا أنتِ، ألا تدرسين العربية... هيا اقرأي لنا من هي "أغاثة كريستي" ..

- وهل أدرسها وحدي، أسألي شامية، إنها تعرفها جيدًا، فأمها عراقية، وهي أيضًا تدرس العربية...

تدخلت شامية لفض النزاع:

- هلا توقفتما الآن، على كل حال ليس مكتوبًا عليه تعريفٌ لها...

نطق معاذ المثقف الذي يعتبر نفسه أفلاطون عصره، ساخرًا من الجميع:

- يا لكم من جهلاء، ألا تعرفون "أغاثة كريستي"! عار على كونكم طلبة جامعة... إنها كاتبة كبيرة ومشهورة أيها الحمقى...

ردت عليه شامية ساخرة:

- حقًا ظننتهم كتبوا اسمها على الغلاف كإهداء لها، أيها الأحمق بالطبع نعرف أنها كاتبة، وإلا ما كتبوا اسمها على الكتاب... أفتدنا يا فليسوف عسرك...

تدخلت عائشة وقالت:

- حسنا دعونا من هذا الجدل... لنضع الكتاب هنا ونمضي في طريقنا...

قال معاذ:

- أي طريق هذا، سنمكث بجوار هذه البحيرة، لن أقدر على أن أخطو إنشًا واحدًا دون أن آكل... هل أحضرتكم شطائر البرجر خاصتي...

همست رهف، في أذن عائشة:

- أحمق لا يفكر في شيء سوى الطعام...

فقال "معتز":

- فيما تتهامسون؟

ردت عائشة:

- ليس أمرًا مهمًا، دعونا نجلس بالقرب من البحيرة، هيا...

ذهب الجميع وجلسوا بالقرب من البحيرة التي كانت أمام المقعد، وبقيت شامية ممسكة بالكتاب تفكر في صاحبه، من الذي قد يقرأ في أتاتورك رواية بهذا الاسم؟ وباللغة العربية! وبينما جلس الجميع يأكلون ويتسامرون، كانت شامية تقلب صفحات الرواية... فوجدت

فيها صورة، لامرأة شابة، الصورة التي اعتاد عدنان أن يضعها في صفحات الكتب حيث توقف عن القراءة، صورة زوجته الراحلة.

"سارة"... أمسكت شامية الصورة بيدها فحدست أن الرواية من الممكن أن تكون لهذه المرأة الجميلة... لكن بينما تعيد وضعها في الكتاب لاحظت أنها مكتوب عليها في الخلف بالعربية "اشتقت إليك يا سارة"، فعرفت حينها أن الكتاب ليس لصاحبة الصورة بل لمن هو مفتون بصاحبة الصورة... لم تشرك أصدقائها فيما عثرت عليه، لأنها تعلم أنهم سيبدأون بالسخرية، ولن يقدر أي منهم قيمة ما كُتب على ظهر الورقة... وبينما هم جالسون قالت رهنف:

- انظروا إلى هذا الهائم هناك...

ثم أشارت بيدها إلى رجل يقف ويبدو عليه الحيرة، بجوار نفس المقعد الذي وجدت عليه شامية الرواية، كان هذا الرجل هو عدنان الذي أدرك حين وصل منزله أنه قد نسي الرواية، فعاد ليستعيدها، بدا عليه الحزن الشديد؛ لأنه لم يجدها، ثم جلس على المقعد في حزن إلى حد أنه لم يلحظ وجود الأصدقاء الأربعة على البعد البسيط منه، ولم يخطر بباله أن يقترب منه ليسألهم عن كتابه...

ولم تدرك شامية أنه قد يكون يبحث عن الرواية في يدها؛ لأنه بدا مهرولاً أكثر من أن يكون عاشقاً، وهي لا تدرك أن العشق لا يتوقف على مظهر معين، وكانت تظن في العاشق أنيقة المظهر كأناقة الحب... نظرت إليه، ولكنها لم تعره كثيراً من الاهتمام... فقد كانت أكثر انشغالاً بكتابه الذي في يدها... ولكن أصدقاءها لم يتوقفوا عن إلقاء الدعابات على مظهره... إلى أن قام من مقامه وغادر من أمامهم...

انصرف عدنان من المتنزه، عائداً إلى بيته... وبعد أن أمضى الرفاق الأربعة القليل من الوقت على شاطئ البحيرة قرروا الانصراف أيضاً... وأخذت شامية معها الرواية إلى المنزل، أو بالأحرى القصر الذي تعيش فيه... قصر عمر الأغا، كل ركن فيه هو قطعة معمارية

أنيقة... النظر إلى حديقة المنزل، وجدرانه، والأثاث الموضوع فيه، وفخامته، يشبه الاستماع إلى سيمفونية موسيقيه أنيقة... ولكن الدخول إلى غرفة شامية يغير الموسيقى تمامًا لتصبح مقطوعة ساخرة... أكثر ما يميز غرفة شامية، الفوضى... بداية من الحذاء الموضوع على الوسادة نهايةً بألبوم الصور المندثر على سجادة وبرية على الأرض... لقد تخلصت من الكثير من أعراض المرأة، لكنها ما تزال تعتقد أن الغرفة غير المرتبة سهل إيجاد الأشياء فيها... إلى حد أنه إذا قام الخدم في غيابها بترتيب الغرفة، صرخت بوجوههم وتزمرت وأمرتهم بإعادة كل شيء كما كان عليه... لذلك عندما يدخلون لتنظيف الغرفة يحرصون على وضع كل شيء في مكانه كما هو، حتى لو كان حذاءً على وسادة...

عندما وصلت منزلها في ذلك اليوم، كعادة إهمالها للأشياء ألقت الرواية على الأريكة بجوار الفراش، وبدأت في إفراغ محتويات الحقيبة الأخرى على نفس الأريكة باحثة عن الهاتف، التي اعتادت أن تحدث رفاقها عليه قبل النوم في كل ليلة... وكأنهم لم يكتفوا من المزاح طوال اليوم فيكملون عبر الهاتف، إلى أن تغرق الأميرة في النوم، وتترك الهاتف مفتوحًا مع رفاقها في كل يوم، لا يفارقونها حتى وقت النوم...

وفي الناحية الأخرى، يقف صاحب الكتاب، في مطبخ شقته الصغيرة يعد طعام العشاء... ويتناوله على مضض فهو يكره أن يضطر للطهو الذي لا يجيده... ولا يمكنه أن يمضي أيامه كلها في مطاعم إسطنبول... وبعدها يفرغ من الطعام سيكون عليه أن ينظف غرفة الجلوس، كما كانت سارة ترغمه أن يفعل في كل مرة يتسبب فيها بالفوضى في المنزل... وينتهي به الأمر في فراشه وحيدًا، يلقي نفسه في أحضان ذكريات زوجته الراحلة...

ويسلم رأسه للنوم الذي لا يزوره إلا مع مطالع الفجر، فأرق الذكريات لا يترك العاشق إلا مع بزوغ شمس اليوم الجديد...

ومن داخل غرفة شامية لم يختلف الأمر كثيرًا أيضًا... فقد كانت هي الأخرى ما تزال غارقة في النوم، ولكنها كانت نائمة منذ ليلة أمس...

وفي داخل القصر من غرفة المكتب المواجهة لبهو القصر من الأسفل، كان يقف السيد "عمر"، وأخوه "خالد"، وهو رجل في الخمسين يصغر عمر سنًا بعامين، ومن غرفة المكتب كان يعلوا صوتهما في شجار حاد بينهما... إلى أن وصل إلى مسامع الأميرة النائمة، ففزعت من نومها وخرجت من غرفتها بسرعة، لكن أوقفها ملكة القصر... واحتضنت فزعها بين ذراعيها وأخذتها إلى داخل غرفتها من جديد، كأم قلقة على ابنتها قالت:

- لا عليك... إنها مشكلات العمل... لا تقلقي سيعودون لهدوئهم الآن...

ولكن ظلت شامية ترتجف إلى أن هدأ صوت الشجار، ولم تفهم لما كان هذا الشجار بين والدها وعمها...

وبعد قليل أتت صديقتها عائشة إلى المنزل في موعد كل يوم للخروج برفقتها... عندما أتت عائشة نسيت شامية الشجار، واطمأنت لكلمات أمها أن المشاحنات تحدث أحياناً لكنها لا تؤثر على العلاقات، فهدأ روعها... ثم خرجت الأم من الغرفة متجهة نحو زوجها لتتبين حقيقة الأمر... وبقيت الفتيات في الغرفة.

ثم بدأت شامية وصديقتها تخطتان، ماذا سيفعلان اليوم، استلقت عائشة على الفراش ثم قالت: إن "معاذ" لن يرافقهما؛ لأنه سيكون مشغولاً مع رفاق الصالون الثقافي الذي تعرف عليهم مؤخراً... فردت عليها شامية وهي منشغلة في تحضير نفسها للخروج وتذهب وتجيء بين خزانة الثياب والحمام الذي في داخل الغرفة، تتحرك هنا وهناك باحثة عن الأغراض كعادتها... قائلة:

- أي صالون ثقافي، هل يملك الأحمق فكراً من الأساس! كيف يفضل الخروج برفقة مجموعة من الحمقى على الخروج معنا؟

- لا أدري، يقول إنهم مفكرون بارعون... الأحمق ما ينفك يمجّد في عقولهم، ولكنني لا أخال عقولهم تحتوي على شيء، فلو كانت تحتوي على شيء لما قبلوا بشخص مثل "معاذ"

أبدًا...

- حسنًا، وماذا عن رهف... ألم تتصل؟

- لا، لا بد أنها ما تزال نائمة، تعرفين أنها لا تستيقظ إلا عندما نذهب إليها...

- أين هي، أين؟!

- رهف؟!

- لا بل قبعتي...

- حسنًا تفقدي الغرفة جيدًا ربما تجدينها، فوق هذه الثريا الكبيرة مثلًا!

- وجدتها...

- حقًا فعلت، كيف هذا؟

- كانت في خزانة الملابس...

ردت عائشة ساخرة:

- إنه أمر عجيب حقًا، كيف وصلت إلى هناك؟

- حسنًا، أتسخرين من غرفتي يا آنسة؟!

- غرفة، أين هي هذه الغرفة... مرأب أبي مرتب أفضل من هذا المكان الذي تسمينه غرفة...

قالت شامية وهي تربط شعرها الذهبي بربطة الشعر:

- أحبها هكذا...

ثم وضعت القبعة على رأسها، واستعدت للخروج برفقة عائشة، وقبل أن تغادرا تذكرت شامية بطاقات الائتمان خاصتها، فراحت تبحث عنها على الأريكة التي أفرغت عليها محتويات حقيبتها البارحة، وكان أمامها مباشرة كتاب عدنان لكنها لم تنتبه له فربما نسيت الأمر برمته... وراحت تبحث بين البطاقات وتتمتم:

- هذه فارغة، وهذه فارغة... وهذه لن تكفيني لليوم...

فأخذت البطاقة ووضعتها في حقيبة الظهر خاصتها، ثم حملت الحقيبة، اتجهت لصديقتها، وقالت:

- هناك مشكلة...

فقال عائشة وهي تتأفف:

- ماذا الآن؟

- نفذت بطاقتي الائتمانية...

- ماذا! وماذا سنفعل؟...

- لا شيء، سنتسول في شوارع إسطنبول!

قالت عائشة مازحة، وقد بدا عليها الاهتمام بالفكرة:

- تبدو فكرة جيدة...

فضحكت شامية كثيرًا من تعابير الجدية على وجه عائشة، وكأنهما ستتسولان فعلاً، وقالت وهي تضحك:

- أفضل التسول من أبي، علي التسول من سكان إسطنبول...

فضحكتنا ضحكة عالية، ثم نزلًا إلى الأسفل... واتجهت شامية إلى مكتب والدها، ومن شدة اندفاعها دلفت دون أن تقرر الباب... عندما دخلت كان أبيها يجلس في استياء على أحد المقاعد، وبجواره أمها تضع يديها على كتفه وتواسيه، فتغيرت كل ملامح السعادة على وجه شامية إلى الجدية... وقالت:

- ماذا هناك؟

أجابها الوالد، وقد انتفض من على مقعده، ونفض من على وجهه كافة ملامح الأسى ليستقبلها، بابتسامته المعتادة... وقال:

- لا شيء إطلاقًا عزيزتي، إنها بعض ضغوط العمل... ألن تذهبي برفقة عائشة؟ قالت أمك إنها أتت لاصطحابك، ألم تذهبا بعد؟... أين عائشة؟

- إنها تنتظر بالخارج، كنا على وشك الذهاب...

- ولماذا لم تفعلا؟

- نفذت بطاقتي الائتمانية نحتاج المال...

- اه، أنتم لا تنفكون تهدرون الأموال...

- هيا أبي، اعتبرنا إحدى الجمعيات الخيرية التي ترعاها... أضف إلى ذلك أننا نهدر المال في الطعام والتسوق... فيذهب إلى أهالي إسطنبول من الباعة... ألسنا أهم جمعية خيرية تستحق أن ترعاها؟

ضحك الأب كثيرًا بعد كلمات ابنته وقال:

- بل أنتم أفضل شيء حصلت عليه في هذا الحياة، أحيانًا أتمنى لو يعود بي الزمن للوراء، فأخرج برفقتك أنت والرفاق المدللين...

- لم يفت الأوان بعد، وسنرحب بك طبعًا بيننا، لأنك ستمدنا بالأموال لنمرح أكثر...
- ضحك عمر كثيرًا من كلمات ابنته، وكأنه قد نسي الشجار مع أخيه، ومشكلات العمل... ثم انصرف ليحضر لها المال... فاقتربت منها أمها وقالت:
- اه... تعرفين دائمًا كيف تعدلين مزاج أبيك أيتها المدللة الصغيرة... ولكن اسمعي عودي باكراً اليوم، قد أسافر إلى بغداد... أريد أن أراك قبل أن أرحل...
- بغداد ولكن لما بغداد الآن؟ ... الأوضاع خطيرة هناك...
- لا تقلقي إننا أطباء نكون دائماً مؤمنين جيداً، ولا نكون داخل نطاق الحرب... كما أن الأطفال في مستشفيات بغداد بحاجة الآن... وكيف لا أكون في عون أطفال موطني...
- ألا يمكنك أن تبقي بعيداً عن الأخطار لأجلي...
- عزيزتي، أفعل أي شيء لأجلك... ولكنني أعدك أنني سأكون بخير...
- كم ستغيبين هذه المرة؟
- أعدك لن يطول الأمر أكثر من شهر... سأحدثك كل ليلة... وسأشتاق إليك في كل لحظة...
- ثم جاء الوالد بالمال ليعطيه لابنته... وقال:
- حسناً، أيها المدللون ها هو المال، اذهبوا، اقضوا وقتاً ممتعاً...
- أخذت شامية المال من أبيها، وقالت، وهي تسرع في الخروج كشابة صغيرة لا تدرك للحياة أخطاراً:
- سنفعل...

وقالت الأم:

- شامية... لا تنسي أن تعودي باكراً...

- حاضر يا أمي...

كانت رقية تنظر إلى ابنتها، وقلبها يخفق بشدة، وكأنها تشعر أنها تذهب من أمامها للأبد...

ثم قال عمر، وهو يمسك بيد زوجته:

- أما زلت مصرة على السفر لبغداد؟

- أوضاع الناس هناك صعبة جداً... لا أستطيع أن أبقى، وهم في هذه الحال... إنها بلادي يا عمر...

- أنا لن أمنعك من الذهاب، ولن أرغمك على أن تأخذي حراسة خاصة معك... سأسمح لك أن تفعلي ما تريدين... ولكن عديني أن تكوني بخير...

- أعدك عزيزي، سأعود من أجلك...

- لم أعهدك، تنكثين وعودك يا رقية، إياك أن تفعلي هذه المرة...

- سأكون بخير، لا تقلق...

بالخارج كانت شامية وعائشة ذاهبتان إلى بيت رهن سيراً على الأقدام، فمنازل الثلاثة لا تبعد كثيراً عن بعضها البعض... وأثناء السير قالت شامية:

- متى تنوين الاعتراف لمعاذ بأنك تحبينه؟

أجابت عائشة في استهجان:

- ماذا؟! هل جنت؟ إنه أحمق، لا يقدر قيمة أي شيء... إلى جانب أنه وجد رفاقًا آخرين الآن... وها هو ذا يتركنا لأجلهم...

- اووو، أنت تتذمرين لأنه تركنا من أجل حفنة الحمقى هؤلاء... عزيزتي عائشة تعلمين طباع معاذ جيدًا... إنه لا يتمسك بالأمر لأكثر من شهرين فقط! دعيه لشهرين، وانظري كيف سينسى أمر أولئك الحمقى...

- أليس هذا سببًا مقلقًا برأيك أنه لا ينفك يتخلى عن الأمور، ربما مل مني أنا أيضًا وتخلي عني ماذا سأفعل حينها...

- ماذا، يتخلي عنك!! عندها سأوسعه ضربًا إلى حد أنه لن يستطيع النهوض على قدميه من جديد...

ضحكت عائشة كثيرًا ثم قالت:

- حسنًا إذن، ابدأي في تلقي دروس القتال...

وتابعت الصديقتان الطريق إلى منزل رهن بالحديث والضحك... في حين اختلف الوضع من داخل شقة عدنان... الذي لم يكن قد استيقظ من نومه بعد، حتى إن صوت الهاتف الذي لم يتوقف عن الرنين لم يؤثر فيه... إلى أن انطلق صوت قرع الباب، بشدة... ففزع من منامه، وذهب ليفتح الباب... فإذا بأحد الجيران يصرخ في وجهه بغضب شديد... فحاول تهدئة الرجل... وكان سبب الصراخ هو أنه ترك صنوبر المياه يعمل منذ البارحة إلى هذا الوقت إلى أن نزلت المياه في شقة جاره... خلال المبنى القديم الذي يسكن فيه... ثم أسرع يطفى المياه وقد وجد أن نصف شقته تقريبًا كانت غارقة في المياه... اعتذر عدنان للرجل ووعده أن يصلح الأمر... لم يكن يوم الرجل جيدًا لكنه كان على عادة الأيام منذ رحيل زوجته...

عندما انتقل عدنان لتركيا كان في استطاعته أن يشتري شقة فخمة في حي راقٍ، ولكنه اختار أن يسكن بعيدًا عن صخب المجتمع الراقي وزيفه، واختار شقة في مبنى قديم... ليعيش بين الناس البسطاء، ولكن المبنى كان يعاني من بدائية الخدمات فيه... قام عدنان إلى شقته يجفف المياه منها ويعيد ترتيب الفوضى، خطوة بخطوة في هدوء، وصمت لا يشعر بما يقوم به، ولكنه يعرف أنه يتوجب عليه القيام به، لا يتذمر لحاله، ولا يفكر إن كان جيدًا أم سيئًا أن يسكن في مبنى بخدمات بدائية... وبعدما انتهى فتح هاتفه ليستمع إلى الرسائل التي تركت في بريده الصوتي... وكان من بينها رسالة من محمود يخبره أنه سيحلق إلى مصر وسيقضي أسبوعًا هناك... والأخرى من إدارة الجامعة تخبره أنه عليه التقدم إليها، لمناقشة البرنامج الدراسي الذي سيقدمه خلال العام... ومن ثم قرر الدخول إلى المطبخ ليعد شيئًا للطعام... ولكنه عاد يتذكر كم أن طهوه سيئ للغاية... فقرر الذهاب ليتمشى في شوارع إسطنبول، ومن ثم يتناول الطعام في أحد مطاعمها...

بينما وصلت شامية وعائشة إلى منزل رهف، التي كانت ما تزال نائمة هي الأخرى... لم توقظها شامية بطريقة عادية، بل إنها أمسكت كوب الماء في يدها، استعدادًا لترشه على وجهها في حين لبست عائشة قناعًا مخيفًا اعتادوا المرح به، استعدادًا ليفزعها من نومها... وعندما اتفقا، بدأت شامية ترش الماء على وجه رهف التي فزعت من نومها... وظهرت أمامها عائشة فجأة بالقناع المخيف فانتفضت من فراشها صارخة، وعندما أدركت أنهما صديقتاهما... راحت تصرخ في وجهيهما بغضب... وحملت الوسادة وبدأت تركض خلفهما في المنزل... الركض والضحك واللعب والاندفاع الطائش كانت أشياء تمثل حياة شامية ورفاقها الثلاثة...

بعدما انتهى المرح في منزل رهف، خرجن جميعًا ليتمشين في شوارع المدينة التي يعلم فيها أثر أقدامهن في كل شبر فيها من كثرة ما مشين فيها، حتى إن الباعة، وأصحاب المحال الصغيرة والكبيرة في إسطنبول يعرفوهن، شامية ورفاقها... إلى أن حل المساء وقرروا الذهاب إلى أحد مطاعم إسطنبول ليتناولن الطعام خاصة بعد أن أنهى معاذ يومه مع رابطة شباب العمل الميداني التطوعي، وانضم إلى رفاقه...

في المطعم بينما كان عدنان يجلس على طاولة صغيرة بجانب نافذة زجاجية ينظر للورود اللامعة في بداية المساء ومن أمامه الطاولة عليها الطعام ومزهريّة صغيرة بها زهرة تيوليب صفراء... إذا بصوت ضجيج عند باب المطعم يجذب انتباهه أكثر من الزهور خارج النافذة ... أربعة أصدقاء في مقتبل العشرينيات دخلوا إلى المطعم وعيونهم مفعمة بحيوية الشباب ... وكأنهم ليس لديهم ما يقلقوا بشأنه في الحياة...

لم تكن هناك طاولة فارغة سوى تلك المقابلة لطاولة عدنان... والتي كان يتمنى ألا يجلس عليها أحد فيضطر إلى الاستماع لتفاهاتهم كما كان يظن دائماً... ولكن أتاه ما هو أصعب... فإذا بأصحاب الضجة يتجهون ناحية الطاولة ويجلسون عليها... عندها أدرك عدنان أن عليه إنهاء طعامه بسرعة ليغادر المكان، بينما كان هؤلاء الأربعة هم شامية ورفاقها، عائشة، ورهف، ومعاذ الذين لم يلاحظوا وجود الرجل الذي قابلوه عند البحيرة في أتاتورك بالأمس في الغالب لم يتذكروه...

إن كان عدنان يعشق الصمت فهؤلاء الأربعة لا يطيقونه على الإطلاق... حيث بدأ حديثهم يخترق أذنيه...

قالت عائشة بسخرية موجهة الحديث إلى معاذ:

- حسناً، متى ستحررون العالم من الطغاة؟

عندما سمع عدنان سؤال الفتاة انتبه إلى الحديث... وكأنه يعنيه، وغير رأيه في أنهم سيتحدثون في التفاهات، وراح يستمع إلى رد معاذ وهو يرد على سخرية عائشة:

- لا أتوقع منكم سوى السخرية، وما أدراكم أنتم بمشكلات الحروب والجوع والفقر في العالم من حولكم...

بدا كلام الفتى لعدنان يدعو إلى الضحك، وقال في نفسه... إن الفتى يتحدث بحرارة، وكأنه قد عايش الحروب والجوع والفقر... لا يبدو عليه أنه يوماً فارق حضن أمه...

قالت شامية بجدية غير معتادة:

- حسنًا يبدو أن حفنة الحمقى الذين تركتنا لأجلهم كانوا بارعين، فقد استطاعوا أن يغيروا منك بسرعة، ولكن دعنا لا نتعجل الأمور فكلنا نعلم جيدًا أنه بعد مرور شهرين ستنسى الأمر، وتبدأ في البحث عن شيء آخر لتهتم به.

- هذه المرة لا، أنا الآن صاحب قضية أداغ عنها في هذه الحياة...

ردت عائشة بسخرية:

- توقف أيها الأحمق، لا تليق بك أبدًا هذه الجدية...

فرد معاذ غاضبًا:

- ولما لا، هل تظنين أنني لست إنسانًا، هيا يا قوم ألا تتأثرون بمشكلات الحروب في العالم من حولكم... ألا يسوؤكم حال المستضعفين والأبرياء...

ردت شامية قائلة:

- وما الذي يدفعهم للخضوع؟ إن كانت الحرب فليحمل جسده أمامه ويقاوم به، أو يموت بشرف دفاعًا عن أرضه، وإن كان الجوع فليخرج باحثًا في الأرض عن طعام، وإن كان الفقر، فليحمل على ظهره فأس ويخرج للعمل....

لم يفهم عدنان ما الذي دفع الفتاة لقول مثل هذا الكلام، وهجومها على الفتى بشدة بهذا المنطق الغريب؟ فقد كانت تلك المرة الأولى التي يرى أحدًا يتحدث عن ضحايا الحروب بهذا الشكل... ووجد في ردها شيئًا غريبًا، شيئًا من القسوة والجحود... على عكس كافة الناس وبخاصة الفتيات، فإن الفتاة لم تظهر تعاطفًا، أو حزنًا مع الفتى التي يتحدث عنها الفتى... ثم بدأ يتابع حديثهم باهتمام أكثر... فاستمع إلى معاذ يرد عليها قائلاً:

- إن خرج حاملاً جسده، فسيفقد حياته، وإن خرج بحثاً عن الطعام فسيقتله الجفاف، وإن حمل فأسه للعمل فسيتم استعباده...

- أنت تحاول فقط أن تبرر وجهة نظرك...

ثم بدأ الشجار يدور بين شامية ومعاذ... فبدى الأمر لعدنان كأنهم مجموعة من الصغار المزعجين الذين ما زالوا يقفون على بوابة العالم، ولم يدخلوا إليه ليروا الواقع... فقام من مقامه وأخرج المال من جيبه ووضع على الطاولة ثم خرج من المكان...

في حين بقي الجدل قائماً بين شامية، ومعاذ... وكانت شامية تقول:

- لا يوجد مستضعفون بل يوجد مستسلمون للضعف...

- حقاً، وما رأيك في الأطفال، والنساء، والشيوخ ضحايا الحروب، ما رأيك بضحايا المجاعات، ما رأيك بالمستعبدين بسبب الفقر...

ردت رهف:

- معاذ، أنت تهزي، ما الذي تظن أنك تستطيع أن تفعله؟

- سأرفع صوتي في العالم كله أندد بما يحدث فيه من مشكلات...

قالت شامية:

- الآن أصبحت متعاطفاً مع العالم! وهل تظن أن انضمامك إلى أولئك الحمقى سيفيد العالم في شيء، لقد أصبحت عاطفياً لا أكثر... تماماً مثل أمي...

تذكرت شامية في نفسها أمها، وتذكرت أنها عليها أن تذهب لتودعها قبل السفر... وقبل أن تخبر رفاقها أنها ستنوي الذهاب إلى المنزل، أوقفها رد معاذ الصادم عن حديثها:

- كيف لفتاة مثلك أن تشعر بهؤلاء المستضعفين... على كل حال إن أموال والدك ونفوذهم يؤمنون لك حياة ليس عليك القلق بشأنها، فكيف لأحد مثلك أن يشعر بهؤلاء الناس؟

كان رد معاذ، صادمًا لها بسبب الصداقة التي تربطه بها، لم تعقب على حديثه بسبب صدمتها منه... ولكن عائشة تدخلت مسرعة لتلطف من الجو، قائلة:

- هيا معاذ ما هذا الكلام...

قطعت شامية حديث عائشة بجدية... وقالت:

- لا عليك عائشة... عليّ الذهاب الآن ستقلع طائرة أُمي بعد قليل...

ثم قامت من المكان استعدادًا للرحيل، فقالت عائشة:

- انتظري سآتي معك...

فردت عليها شامية بضيق:

- لا عليك، أريد السير وحدي...

ثم خرجت من المطعم تسير على قدميها، مندفعة بعيداً عنه... وتفكر في كلمات معاذ، بضيق شديد... كيف له أن يعدها مجرد فتاة ثرية لا تأبه للعالم من حولها.

في حين أنها لا تشعر بالفرق بينها وبينهم رغم غناها الفاحش، فهي تفضل البقاء معهم، لا تذهب للجامعة في سيارة فخمة، لا تقضي أوقاتها مع الفتيات اللواتي يتباهين بأموال أهليهم، تأكل معهم في مطاعم بسيطة وليست فخمة، تعدهم أهم شيء في حياتها، ورغم كل هذا يخبرها معاذ اليوم أنها فتاة ثرية لا تدرك قيمة الأمور من حولها...

وبينما تسير في غضب شديد وتسرع الخطى لتوقف سيارة أجرة تعود بها إلى المنزل، يفيقها من غفلتها وتفكيرها صوت أنين الطبقة الفقيرة في المجتمع، ونتاج التكتلات العشوائية، لَصًا يخطف حقيبة الظهر التي كانت تمسكها بيدها، ويركض بعيداً، في اتجاه الرجل الذي ينتظر سيارة الأجرة على بداية الطريق، فيعترض الرجل طريق اللص الذي كان يركض باتجاهه، محاولاً إيقافه، ولكن يتلقى لكمة قوية في وجهه تسقطه أرضاً، وتسقط من جيبه حاملة مفاتيحه.

كان هذا الرجل الذي أوقف اللص وتلقى اللكمة هو عدنان، الذي قام من مكانه ليوسع اللص ضرباً، وينهال عليه بالضرب بشدة، سحب اللكمات الغضب، غضب رجل خارج عن السيطرة، إلى حد أنه هشم وجه اللص، وأغرقه في الدماء، كأنه يخرج طاقة غضب مكبوتة بداخله... ثم عاد منظر الدماء ليذكره بمنظر دماء زوجته التي سالت بين يديه... فيهدأ فجأة ويتملكه الضعف... ويفر اللص من بين يديه هارباً... عندها اقتربت شامية لتلتقط حقيبتها الملقاة على الأرض، والتقطت حاملة مفاتيح الرجل الذي أنقذها، وتقترب لتشكره وتعطيه

إياها، فنظرت إلى وجهه الذي بدا مألوفاً لها، لكنها لم تتذكر أين رأته من قبل، لم تدرك أنه الرجل ذاته الذي كان يبدو عليه الأسى في حديقة أتاتورك بالأمس... ومدت يدها له بحاملة المفاتيح، ولاحظت في حاملة المفاتيح أنها خشبية محفور عليها بالعربية "سارة"، لكن من شدة الصدمة حينها، لم تربط بين الاسم على الميدالية والاسم على الصورة الذي وجدتها في الكتاب... ومن هول الصدمة مضى عدنان من أمامها قبل أن تتمكن من أن تشكره، غادر الرجل من أمامها ولم ينتظر سيارة الأجرة بل تابع الطريق سيراً على قدميه، إلى أن اختفى من أمامها... وبمجرد اختفائه بين الطرقات، توقفت أمامها سيارة أجرة، فأسرعت تركبها عائدة إلى المنزل... بينما أكمل عدنان سيره إلى شقته... يعاتب نفسه على العنف الذي أظهره في ضرب اللص، ويلوم الظروف التي مر بها في حياته ليتحول من إنسان هادئ إلى ذئب قاسي القلب، إلى حد أنه لم يشعر بنفسه وهو يوسع اللص ضرباً... ولم ينتبه أن الفتاة التي ساعدها هي نفسها التي كانت تجلس أمامه قبل قليل في المطعم...

بينما كانت الفتاة نفسها تجلس في سيارة الأجرة وتحتضن حقيبتها بخوف، تفكر فيما حدث معها قبل قليل، من جهة تعرضها لأول مرة للسرقة، ومن جهة أخرى ما قاله معاذ لها... إلى أن توقفت السيارة أمام باب منزلها... فقفزت من السيارة مسرعة تركض عبر حديقة القصر إلى داخله... وبدأت تنادي أمها... ولكن دون إجابة، كانت قد تأخرت... لقد ذهبت أمها...

ثم خرج والدها من غرفة المكتب قائلاً:

- لقد ذهبت... انتظرتك حتى آخر لحظة، كانت ترغب برؤيتك بشدة قبل أن ترحل...

صرخت قائلة:

- لماذا لم تتصل بي؟

فأجابها والدها:

- حاولت كثيرًا ولكن دون جدوى، هاتفك كان مغلقًا...

نظرت شامية إلى أبيها، وهو يتحدث وكادت الدموع أن تتفجر من عينيها، وتنهال من البكاء... لكنها أسرعت إلى الأعلى.

أسرعت إلى غرفتها... تبكي في فراشها إلى أن غرقت في النوم.

بينما كان عدنان قد وصل هو الآخر إلى شقته، ولكنه كان مرهقًا إلى حد أنه استقل على فراشه وحسب، ونسي تمامًا أنه سيكون عليه التوجه إلى الجامعة لمناقشة البرنامج الدراسي في اليوم التالي...

سكن الليل وخيم هدوؤه على المدينة، ولم يبق على يقظة فيها سوى القطط والحيوانات المشردة، وسكنت المدينة التي ينفجر فيها صخب الحياة من الملامح الأولى للشروق حتى آخر أنفاس الضوء وقت انسحابه في نهاية كل يوم...

ليخيم السكون أيضًا على عالمين هيهات للعقل أن يظن أنهما قد يتقابلا، ولكن القدر لا ينفك يفاجئ بني البشر بأحكامه...

لم تكن شامية تعلم أن عالمها كله على وشك الانقلاب رأسًا على عقب، ولم يكن عدنان الذي ظن أن الحياة قد يأسست منه، وأنها تركته يحيا باقي أيامه في هدوء على وشك أن تشعل الثورات عليه من جديد، وأنه ظن خاطئًا أن أحداث الماضي العاصفة تعني أنه قد استقبل بالفعل كل مفاجآت الحياة دفعة واحدة...

في اليوم التالي حين دقت الساعة العاشرة في الصباح ... كانت تروس المدينة قد عادت للدوران، وما يزال أستاذ الجامعة مستلقيًا في فراشه، بين الفوضى، إلى أن فتح عينيه على الضوء الذي اخترق زجاج نافذته ليصل لعينييه، ضوء شديد إلى حد أنه لم يستطع فتح عينيه دفعة واحدة، ولكن كان عليه أن يفتحهما ليكتشف ما يكتشفه كل صباح أنه ما زال حيًا... ما زال حيًا ولا يعلم السبب ولا الحكمة من حياته...

بمنتهى التخامل والكسل يغادر الفراش كما يفعل كل صباح على عكس ما يفعله سكان
الساحرة إسطنبول... فكيف لتلك الشابة اليافعة ألا تأثر قلوب قاطنيها... إلا أنها رغم جمالها
وسحرها لم يكن لها دلال على الحزن الدفين في قلبه...

كان يقوم من فراشه كل صباح كالمخمور الذي تتخبط برأسه الأوهام... وكأنه يحيا في
عالم غير العالم، لا يرى من معالم الجمال شيء ولا تلحظ عينيه سوى سواد الطريق...

هكذا كان أستاذ الجامعة يرى الدنيا من حوله سوداء قائمة حتى في بداية النهار، بدأ يحوم
في بيته كعادته كل صباح ليرى ماذا سيفعل في يومه، ومن ثم رن هاتفه، ليأتيه هاتف من
الجامعة يذكره بأنه قد تأخر عن لقاء المناقشة، فيهرول كعادته خارجًا من منزله...

بينما كانت الحسنة شامية الاسم والملامح والشيم، ما تزال في فراشها لم تفق من ثباتها
بعد...

وفي أثناء نومها دخلت صديقتها عائشة، فهي الأقرب لقلبها، وهي التي تعرف كيف تنعشها
من حزنها، بلمسة رقيقة على وجه رفيقتها كانت كافية لإيقاظها من نومها، ظنت شامية
أنها أفاقت على لمسة من يدي أمها فتبسم جبينها، ثم وجدت عائشة أمامها، فكتمت ملامح
الصدمة حتى لا تسيء عائشة الفهم...

قالت عائشة:

- صباح الخير...

وردت عليها شامية تحية الصباح، ولكن بصوت يظهر الكثير من الأسى...

ولأن عائشة تعلم السبب بالفعل فلم تسألها عنه، فقط أرادت أن تخرجها ممًا هي فيه فقالت:

- ما رأيك أن نخرج معًا اليوم، بدون معاذ أو رهف، ستحتاجين إلى إمضاء قليل من الوقت

بعيدًا عنهما إلى أن تشعري بالرغبة في لقائهما مجددًا...

أشارت شامية برأسها مؤيدة عائشة دون كلمة واحدة... ثم قالت إنها ستستعد للخروج معها، وقامت من نومها لتجهز نفسها... وبقيت عائشة في الغرفة، وبينما تنظر للأريكة المقابلة للفرش لاحظت وجود كتاب يظهر جزء منه من أسفل الأشياء الملقاة فوقه، فقامت من مقامها لتتفقدّه وعندما حملته اكتشفت أنها الرواية نفسها التي وجدوها ملقاة على مقعد حديقة أتاتورك، اندهشت وهي تفكر في السبب الذي يدفع شامية للاحتفاظ بها، وعندما فتحتها سقطت منها صورة المرأة الحسناء، ومكتوب عليها اسم سارة...

في تلك الأثناء كانت شامية قد عادت وهي تلف شعرها الذهبي في منشفة، وعندما ظهرت أمام عائشة سألتها:

- من تكون سارة؟

وبمجرد سؤالها وكأن بريقاً أضاء أمام عين شامية، فتذكرت حاملة المفاتيح المكتوب عليها بالعربية سارة... وربطت الاسم الذي نطقته عائشة بالاسم المحفور على الميدالية الخشبية في حاملة المفاتيح، والاسم المكتوب خلف صورة الحسناء التي وجدتها في الرواية، وتذكرت ملامح الشخص الذي أنقذها من اللص وأدركت أنه الشخص ذاته الذي رآته في بستان أتاتورك... وتذكرت كيف كان هائماً كأنه يبحث عن شيء ما... وبينما تقف شامية وهي تحاول الربط بين الصور والأحداث في ذاكرتها، أفاقها صوت عائشة تناديها:

- شامية... ما الأمر؟

- لقد عرفت صاحب الكتاب؟

- أي كتاب؟

- الذي تحمليينه.

- حقاً كيف؟

- لقد أنقذني بالأمس... هيا سنبحت عنه.

- ماذا! أنا لا أفهم أي شيء...

- سأخبرك في الطريق... هيا الآن...

- إلى أين؟

- سنبحت عنه.

- عمَّن؟

أوقف سؤال عائشة اندفاع شامية، فهي لا تعرفه ولا تعرف شيئًا عنه... ولكنها فقط لا تأبه إلا بشعور الفضول في داخلها للوصول إليه... فقالت:

- لا أعرف... أنا لا أعرف من هو...

- جيد، إذن...

- لكنني أرغب بشدة في أن أعرف...

- هداي من روعك... الآن عدتي للهذيان.

- أنا لا أهذي صدقيني، يجب أن أراه، يجب أن أعرفه، لقد أنقذ حياتي... عندما غادرت المطعم بالأمس في الليل هاجمني أحد اللصوص، ولكنه تصدى له وأنقذني.

أجابت عائشة في زهول:

- ماذا!! هل حدث لك كل هذا بالفعل؟

- نعم، صدقيني، أنا لا أهذي...

- ولكن، كيف و...

قطعت شامية حديث عائشة، وهي تجوب أنحاء الغرفة قائلة:

- هيا، دعك من التساؤلات، أنا بخير الآن، ليس أمامنا وقت دعينا نذهب للبحث عنه؟

- هل جننت، أتعنين أننا سنذهب نبحث في شوارع إسطنبول عن غريب لا نعرفه ولا نعرف عنه شيئاً؟!

توقفت شامية عن الحركة والتفتت إلى عائشة وقالت:

- منذ متى وأنت تتحدثين لغة العقلاء؟!

- هيااا، أنتِ لا تأخذين أي شيء على محمل الجد...

قالت عائشة كلماتها وهي تهتم بالجلوس على الأريكة، ولكن قبل أن تفعل، أمسكت شامية بمعصمها وقالت:

- أريد الوصول إليه...

- إلى من؟

- لا أعرف... لا أعرف!

- إذن كيف تظنين أنك ستجدينه...

- سأج...

قطع صوت شامية صوت المربية وهي تخبرها أن أمها على الهاتف... فهرعت إلى الهاتف لتحدثها، واطمأنت عائشة لذلك فقد ظنت أنها عندما تعود ستكون قد نسيت الأمر برمته

كعادتها... ولكن بعدما انتهت شامية من الحديث مع أمها، إذا بها تعود للغرفة مسرعة...

- وصلت أمي العراق بخير وتقول إنها بأمان هناك، وسامحتني على تأخري في الأمس... هلا ذهبنا؟

- جيد، إن أمك بخير...

- نعم إنه أمر جيد، والآن هلا ذهبنا؟!

- إلى أين؟!

- إلى المطعم الذي كنا فيه بالأمس، لقد كان الرجل هناك.

- حقًا... هل يعمل هناك؟ شامية لقد فقدت عقلك حتمًا.

- حسنا، فعلت والآن خذي قرارًا سترافقيني أم لا؟

ردت عائشة وهي تتمتم بينما تحمل حقيبة الظهر استعدادًا للخروج...

- أقسم أنك أكثر فتاة مجنونة قابلتها يومًا؟

فردت عليها شامية وهي تلحق بها بعد أن التقطت الرواية لتأخذها معها:

- أعلم أنك لن ترفضى الذهاب معي حتى ولو إلى برمودا...

خرجت الفتاتان لتبحثا عن الغريب الذي لا يعلمان عنه شيئًا.

بينما كان الغريب قد أنهى مقابله في الجامعة، واتصل به صديقه محمود الذي كان قد وصل إسطنبول بعد آخر رحلاته... ليمضي الوقت معه إلى أن يحين موعد رحلته القادمة

كعادته، وروتينية زيارة أتاتورك والجلوس والسير فيها، والبقاء في شقته، وإما إمضاء بعض الوقت برفقة صديقه إن كان موجودًا في إسطنبول...

وعلى جانب شامية، فقد خرجت برفقة صديقتها تجوب الأماكن بحثًا عن الغريب وهي مؤمنة تمامًا أنها حتمًا ستعثر عليه، وبعدها قصدت المطعم الذي كان فيه، وقضت ساعات من السير في حديقة أتاتورك والتحديق في وجوة المارة بحثًا عن الغريب ... قالت عائشة، بعدما توقفت ووضعت يديها على ركبتها من شدة الألم...

- لن أخطو خطوة واحدة، سأتوقف هنا... أكملني السير وحدك.

ثم جلست على العشب، ونظرت إليها شامية، ثم نظرت إلى مجلد الرواية الذي في يدها، وشعرت باليأس من أن تجده، كانت تشعر أنها تبحث عن إبرة في كومة قش فاستسلمت، وجلست هي الأخرى بجوار عائشة...

فقالَت عائشة:

- أتعلمين ما أكثر ما يزعجني؟

- ماذا!

- أنك ستنسين الأمر برمته بعد قليل.

- ولما لا تصدقين أنني أهتم للأمر بالفعل؟

- أي أمر؟ لماذا تبحثين عنه، وما الذي ستفعلينه إن وجدته؟

- سأعيد إليه مجلده حتمًا، وسأشكره لأنه أنقذني من اللص...

- شامية...! أراهن أنك تفضلين تناول الثلجات في الشارع على أن تهتمي بأن تعيدي شيئًا لأحدهم!! خاصة أنها رواية وأنت لا تحبين القراءة.

- حسنا ربما أنت محقة... بل أنت محقة بالفعل، لكن ربما أريد أن أشكره، لقد أنقذ حياتي تعلمين...

- أها... حسنا، وأراهن أيضًا أنك قد تنسين أن تشكري أحدًا قدّم لك معروفًا إن رأيتي أطفالًا يلعبون بالكرة، فحينها سيكون كل همك الركض معهم، ولن تبالي ...

- حسنا هل أنا سيئة إلى هذا الحد، لماذا أنت صديقتي إذن؟!

ضحكت عائشة من كلماتها، وقالت وهي تغالب الضحك:

- لأنني أشبهك يا عزيزتي...

انتهى الأمر بالفتاتين يجلسان يضحكان في حديقة أتاتورك، واتفقت شامية مع عائشة ألا تخبر معادًا ورهف عن الأمر، وأخبرتها أنها نسيت الأمر ولم تعد ترغب في البحث عن صاحب الرواية... ومضت الأيام، ولم يتغير الكثير غير أن شامية التي لم تكن تحب القراءة، إذا بها تنهي قراءة رواية أغاثا كريستي، وتهتم بكتابتها، وتبحث عنها... وتمضي الوقت ما بين مراسلة أمها، ومرافقة أصدقائها، والاستمتاع بالوقت كعادتها، ولم يجد شيئًا على تصرفاتها الطائشة، سوى أنها أصبحت تبحث في وجوه كل المارة عن صاحب المجلد، دون أن يلاحظ أصدقائها ولا حتى عائشة، فقد كانت تمضي الوقت معهم وهي تضحك وتستمتع وفي داخلها تطاردها فكرة البحث عن الغريب وهل ستلتقيه مرة أخرى أم لا ...

بينما كان غريبها يمضي وقته هو الآخر كعادته... هائمًا في دنياه...

إلى أن مرت الأيام، وبدأت الدراسة في الجامعة، فذهب كل منهما لشأنه؛ الأستاذ لعمله والطالبة لدراستها...

وبينما كانت شامية تجلس في صف اللغة العربية برفقة صديقتها رهف، يتحدثان كالعادة، إذا برجل لا يبدو عليه هيئة الأستاذ الجامعي يدخل الصف ويحييهم...

بمجرد دخول عدنان الصف، عرفته شامية وتذكرت مظهره حينما رأته أول مرة في حديقة أتاتورك، وحينما أنقذها من اللص، أدركت أنه الرجل الذي كانت تبحث عنه... وراحت تحدد في هياتها الصادمة، أستاذ جامعة في اليوم الأول للدراسة، ولا يبدو عليه أي شيء من الأناقة... بل إنه لا يبدو عليه أنه يبدي أي شيء من الاهتمام لمظهره... ليس هذا وحسب بل إن طريقتة في الحديث وصوته المليء بالخشونة الممزوجة بالألم... كل تلك الشواهد زادت من الفضول في نفس شامية لتعرف من هو وما هي قصته ...

بهدوء ممزوج بكل الألوان الملل والإحباط أدار الأستاذ حصته الأولى، التي لم يكن فيها أي شيء من الشغف أو حتى شيء من تشجيع طلابه...

فقط كلام ركيك لا يختلف عن كلام الكتب والمجلدات، وحديث خالٍ من أي تعبير عن أي شعور، كأنه آلة تسجيل تعيد ما تلقته...

وبمجرد انتهاء الصف، ودعهم إلى لقاء آخر، وهم بالخروج... وبقيت شامية هائمة تفكر فيما يحمله صاحب الرواية من أسرار، وكيف له أن يكون بهذه الحال،... وأفاقها صوت رهف تنادياها:

- شامية... شامية أين أنتِ؟

- ماذا تريدين؟

- انتهى الصف هيا لنذهب، أريد أن أتناول الطعام... لا بد أن الحمقى ينتظروننا.

- حسنا اذهبي إليهم سألحق بك.

- إلى أين ستذهبين؟

- سألحق بك إليهم...

- شامية...

كانت قد قامت مسرعة لتلحق بالمعلم...

- سيدي... سيدي.

التفت عدنان لها، وقال:

- نعم، ما الأمر؟

...

لم تتوقع شامية هذا الرد، فسكت لسانها، فقد ظنت أنه سيتذكرها، لم تكن تعرف أن الغريب لا يحب أن يتذكر أي لحظة من الماضي حتى لو كانت الثانية الماضية، فكيف له أن يتذكرها....

لم تستطع أن تطيل صمتها فقالت مسرعة:

- لقد سعدت بالصف اليوم برفقتك سيدي...

بدا على عدنان الاندهاش، فهو يعرف جيدًا أنه من المستحيل أن يستمتع أحد بصفه، فهو يدرك جيدًا أن طابع الاكتئاب يغلب عليه... فأخذ حديثها كمجاملة كاذبة، واضطر للرد فقال:

- جيد، أتمنى أن تستمتعي بالصفوف الأخرى أيضًا.

- شكرًا سيدي.

أوماً برأسه معبراً عن امتنانه ثم مضى في طريقه، بينما وقفت شامية تنظر إليه وهو يختفي من أمامها بين جموع الحضور في وضح النهار كما اختفى من أمامها في المرة التي أنقذها فيها....

كانت رهف قد لحقت بها هي الأخرى، ووقفت تشاهد ما يحدث من بعيد، وبعد انصراف المعلم وبقاء شامية في مكانها تنظر إليه... ووقفت تنظر إليها وتتعجب من نظرة الاهتمام في عينيها. إلى أن قررت أن تقطع عليها لحظة الاهتمام تلك، فاقتربت منها ثم من أذنيها، ونادت بصوت مرتفع، وسريع:

- شامية..!

فزعت شامية من صوتها فردت في غضب:

- ما بالك اليوم، هل قررتي العمل كمنبه؟!

فردت رهف بسخرية:

- ما بالي أنا؟!

- ماذا تقصدين بنبرتك تلك؟

- لا شيء، هل أعجبك المعلم؟!

- لقد فقدتني عقلك...

- أها نعم، حسناً إذن هيا وإلا سيوسعنا معاذ وعائشة ضرباً، أم أنه ما يزال لديك ما تخبريه للمعلم.

استشاطت شامية غضباً من حديث رهف، ونبرة صوتها الساخرة، وردت في غيظ:

- أقسم، سأقتلك لو لم توقفي تلك النبرة.

- حسنًا حسنًا... أرغب في حياتي.

- تحركي هيا، فأنا جائعة...

- الآن تذكرتي الطعام.

- نعم فعلت هيا...

بعد قليل التقيا بمعاذ وعائشة وتناولوا الطعام معهما، ومن ثم قصدوا منازلهم، ولكن شامية طلبت من عائشة أن تذهب معها إلى المنزل، وفي أول فرصة اختلت شامية بعائشة... قالت لها بشغف واضح:

- لقد وجدته...

- ما الذي وجدته؟

- صاحب الكتاب، لن تصدقي من هو... إنه أستاذ اللغة العربية بالجامعة... التقيناه اليوم؟

- ماذا؟! حقًا... أم أنك عدتي للهذيان.

- أي هذيان، أنا لا أمزح، لقد رأيتته وتحدثت إليه، لكنه لم يعرفني؟!

- رأيتته، وتحدثت إليه أيضًا؟!

- نعم فعلت، عليك أن تساعدني، أريد معرفة كل شيء عنه.

- أريد أن أسألك سؤالًا؟

- ماذا؟

- لماذا تهتمين لشأن هذا الرجل إلى هذا الحد...

- ماذا؟! أهتم لشأنه، لا أنا لا أفعل...

- حقًا! وما الذي ستفعلينه أكثر من هذا إن كنتِ تهتمين له، لماذا تهربين من الاعتراف بذلك؟

ردت شامية، وقد هدأت نظرة الشغف في عينيها...

- أنتِ لا تفهمين، أنا لا أهتم لأمره... أنا فقط لدي فضول لأعرف قصته... بدا لي غريبًا منذ أن رأيته أول مرة... أتذكرين في بستان أتاتورك، عندما كان يبدو هائمًا يبحث عن شيء ما.

- أهذا فقط ما يجعلك تهتمين لأمره؟!...

استلقت شامية على الفراش، واحتضنت إحدى الوسائد الصغيرة، وقالت:

- ما بالك اليوم عائشة، أنا فقط أريد معرفة قصته...

ردت عائشة وقد استلقت هي الأخرى:

- ولماذا تريدین معرفة قصته؟

- لا أعرف... لا أشعر أنه غريب عني أشعر أن فيه شيئًا يشبهني، وكأنني أعرفه جيدًا...

- شامية، أفيقي... إنها أوهام مضرّة.

هبت شامية من مكانها، وضربت صديقتها بالوسادة، وردت:

- جننت حتمًا!! ما بالك ظننت أنك ستفهمين.

ثم نهضت بعدها عائشة، وقد اطمأنت أن الأمر مجرد فكرة جديدة من أفكار صديقتها الطائشة، وقالت:

- حسنًا، كيف نصل لهذا الأستاذ؟!

التفتت إليها شامية، ثم أسرع وأحتضنتها بقوة، وقالت:

- عرفت أنك لن تخذليني...

ردت عائشة وهي تضمها، وعيناها تتحدث بكل ألوان القلق على صديقتها التي تخشى عليها من مغبة ما تقحم نفسها فيه، ولا تستطيع أن ترفض لها طلبًا:

- ومتى فعلت أيتها الحمقاء؟

وفي اليوم التالي، ذهبت شامية برفقة عائشة إلى الجامعة؛ كي ترى الغريب الذي تتحدث عنه... فذهبتا إلى مكتبه، وانتظرتا أمامه طويلًا، لكنه لم يأت...

وملّت عائشة من الانتظار وظنًا أنه لن يأت إلى الجامعة، فغادرتا المبنى إلى الخارج، ولم تلحظ شامية وجود الأستاذ جالسًا على إحدى المقاعد بمفرده خارج المبنى الذي كانت تنتظره فيه. ومضت في الطريق برفقة عائشة يتحدثان فيما سيفعلانه بشأن الكتاب وكيف ستعيده إليه... واتفقتا على أن تأتي شامية لمكتبه وتعطيه المجلد، وتشكره على إنقاذها من اللص... وبعد ذلك ذهبت إلى مكتبه عدة أيام متتالية لكنه لم يحضر إليه، حتى إنه لم يحضر لصفهم... وجعلها ذلك تستاء كثيرًا إلى أن حدث ما لم تكن تتوقعه... كانت تجلس في غرفتها بعد أن تحدثت إلى أمها، وإذا بعائشة تأتي إليها، وتقف أمامها، وتقول:

- عراقي، أرملة، له ابنة واحدة، ويعيش بمفرده في إسطنبول، السيد عدنان الأحمد، أستاذ اللغة العربية بجامعة إسطنبول...

فور ما سمعت شامية كلمات عائشة، قفزت واقفة على قدميها، وقالت:

- هل رأيتته؟

- لا.

ردت شامية، بعد ما هدا روعها:

- إذن فلن تصيبي وصفه، إنه رجل ملامح الغموض تغطي فيه كل شيء... كيف عرفتني تلك المعلومات؟!

- أخبرني موظف الملفات.

- ماذا، هل سألته؟!

جلست عندها عائشة على الأريكة، وردت بصوت ملامحه تحمل شيئًا من المكر:

- لا، هو أخبرني، تعلمين أن الطالبات الجدد لهم الحق في معرفة من سيعلمهم أثناء الفصل الدراسي...

ردت شامية بشغف:

- تبا لرأسك، ماذا عرفتني أيضًا؟

- ماذا!! وما الذي تريدين معرفته أكثر من ذلك، تلك الأجوبة تفسر كل شيء، أرمل لديه ابنة واحدة لا تعيش معه... هذا يفسر مظهره غير المهندم وملامح الحزن على وجهه.

- نعم، ربما سارة هي ابنته.

- لا يبدو من الصورة أنها كذلك، ربما كانت زوجته، وربما كان يحبها كثيرًا لحد أنه يحمل صورتها في كتبه.

- نعم... معك حق.

- والآن ماذا تنتوين؟

- لا شيء، فقط سأعيد إليه مجلده و....

...

- لقد تجاوزت كل حدودك.

بينما تتحدث شامية إلى عائشة، إذا بصوت والدها يدوي في أنحاء القصر صارخًا في غضب شديد، حتى إن جدران غرفتها لم تحجب شدة الصوت...

فهرعت الفتاتان خارج الغرفة لمعرفة ما يحدث، كان السيد عمر، والسيد خالد يقفان معًا في بهو القصر، نداءً لند بالحديث... وهذه المرة لم تكن ملكة القصر موجودة، لتحول بين ابنتها، وبين حقيقة الخلافات بين أبيها وعمها...

انتهى الشجار بكلمة قالها خالد لأخيه أمام الخدم والحراس:

- سأخذ ما هو حق لي، وسأنتقم لأجل كل شيء...

ومن ثم غادر المنزل في غضب...

بينما وقف السيد عمر ينظر إليه وهو يغادر المنزل، ثم نظر إلى ابنته التي كانت تنظر من أعلى الدرج في قلق شديد... وانصرف إلى غرفة المكتب...

أمسكت عائشة يد صديقتها، محاولة إعادتها إلى غرفتها في هدوء... لكن شامية أبت العودة، ونزلت الدرج صوب مكتب أبيها... في حين بقي الخدم ينظرون في قلق من أن يقع شجار جديد بين الفتاة وأبيها في لحظة الغضب تلك...

- الآن، أريد أن أفهم كل شيء...

- شامية، اصعدي إلى غرفتك الآن.

- لن أفعل، قبل أن تخبرني كل شيء.

في تلك اللحظة كاد السيد عمر أن يصيح بوجه ابنته غضبًا، لكن عائشة تدخلت في الوقت المناسب وشدت معصم شامية إليها، وقالت:

- لا بأس سيد عمر، ستهدأ الآن.

ثم صعدت شامية برفقة عائشة إلى الأعلى، وهي مستسلمة تمامًا للدموع في عينيها. وظلت تبكي إلى أن غرقت في النوم حتى إنها لم تتحدث إلى أمها في تلك الليلة، وبعد ما نامت، خرجت عائشة من غرفتها، فوجدت السيد عمر ينتظر أمام غرفتها متكئًا على إحدى قطع الأثاث في الممر، فسألها:

- كيف هي الآن؟

- إنها بخير الآن سيدي، سأتي لزيارتها في الصباح الباكر لأطمئن عليها.

- اسمعي عائشة، أريد أن أخبرك أمرًا سأسافر فجر اليوم إلى سويسرا، أريدك أن تعتني بشامية جيدًا... إلى أن أعود، لا تجعلها تشعر بالوحدة في غيابي أنا وأمها.

- وكم ستبقى هناك سيدي.

- لا أدري لكن من المحتمل أن تطول مدة بقائي، سأحرص على أن أترك لها الحراسة الكافية لتكون بخير.

- حراسة!! انا لا أفهم سيدي، لماذا؟! تعلم جيدًا أن شامية تكره هذا الأمر؟

- هذا فقط لكي أكون مطمئنًا عليها، لن يدوم الأمر طويلًا، عندما أعود سينتهي كل ذلك، أعلم أنها لن تقبل الأمر بسهولة؛ لذلك أطلب منك ان تهتمي بها هذه الأيام لحين عودتي، أنا أثق فيك وفي صداقتك لها؛ لذلك أثق أنها ستكون بخير...

- أعذرني سيدي، ولكن زاد حديثك من قلقي، هل هناك خطر على حياة شامية.

- لا، لا شيء من هذا القبيل، أنا فقط أريد الاطمئنان أنها ستكون بخير في كل خطواتها.

- حسنًا سيدي، أعدك أن أبقى بجانبها.

- أثق في ذلك... لقد عينت سائقًا خاصًا لكما أنتما ورهف ومعان، أعلم أنكم تحبون التحرك بحرية لكن اعذروني، أعدكم ألا تطول هذه الفترة، ستجدينه بانتظارك في الخارج ليوصلك إلى بيتك، وسيأتي في الصباح لمنزلك ليصطحبك إلى هنا، أنت ورفاقتك إن شئت.

- حسنًا سيدي، إن كان هذا سيجعلك مطمئنًا بشأن شامية، فسنقبل به.

- أشكرك كثيرًا وأتمنى أن تنقلي امتناني لأصدقائك أيضًا.

ثم أوما السيد عمر رأسه إليها معبرًا عن امتنانه، ومضى في طريقه.

بينما زاد القلق والخوف في قلب عائشة، وتمنت ألا يطيل السيد عمر بقاءه خارج البلاد، وعندما خرجت وجدت السائق في انتظارها ليأخذها إلى المنزل، فاستقلت السيارة إلى منزلها ولكن مشاعر القلق لم تفارقها، بل ظلت تفكر فيما سيحدث...

بينما كان السيد عمر قد ذهب إلى مكتبه ليحضر أوراقه وسندات ملكيته، لكي ينهي كل شيء مشترك بينه وبين أخيه، حتى يضمن بقاء أسرته بخير، كان عمر يعلم جيدًا أنه فعل كل ما بوسعه ليصلح من شأن أخيه، إنه فعل كل شيء ولم يبق شيء لفعله، لم يبق شيء سوى عزل ممتلكاته عن ممتلكات أخيه، كان خالد الأغا إنسان له فلسفته الخاصة في

الحياة، لم يتزوج لأنه يرى أن النساء للمتعة، يفعل ما يحلو له فقط؛ لأنه يستطيع فعله، لا يرى أن لأخيه أي حق في الممتلكات التي يملكها...

وذلك لأن أباه قد أوصى قبل موته بأن تؤول كل ثروته إلى ابنه المفضل، خالد، وعلى الرغم من خطأ القرار إلا أن عمر احترام وصية أبيه، وقدم لأخيه ممتلكات أبيه كاملة، ولكن ما يعجز خالد عن استيعابه هو أن ما لم يقدمه عمر له كان من ملك له وليس ملكاً لأبيه، ولا ينفك الأخ الأصغر يفتعل المشكلات لرغبته، في الاستيلاء على الثروة كاملة، التي يرى أنه ليس لأخيه أي حق فيها.

فقرر عمر عزل ممتلكاته عن أخيه، لينهي الخلاف بينهما، وخوفاً على عائلته... لذلك قرر السفر إلى سويسرا لبيع كل ممتلكاته المشتركة مع أخيه هناك، ويبدأ بداية أخرى بعيدة عنه.

في فجر تلك الليلة، قبل أن يستعد عمر ليستقل الطائرة إلى سويسرا قصد غرفة ابنته الوحيدة، واقترب من فراشها، وراح يمرر يده على شعرها الذهبي، فأحست به.

- أبي...

- نعم حبيبتي.

- ما الأمر؟

- أتيت لرؤيتك قبل أن أذهب.

قامت شامية وجلست على الفراش، وقالت في اهتمام:

- إلى أين، هل ستتركني أنت أيضاً.

- آسف حبيبتي، ولكن أصبح لا بد من تسوية الأمور، لم أعد أتحمّل عمك أكثر من هذا، عليّ أن أسافر لأنهي كل شيء مشترك بيننا، لقد سئمت من مشكلات العمل.

- يؤسفني هذا، ولكن افعل ما تراه صوابًا، هل ستتأخر؟

- لا عزيزتي أكيد لن أفعل... لكنني أريدك أن تعديني بأمر ما.

- ما هو؟

- أريدك أن تسمح لي للحرس بالبقاء برفقتك، وللأسف أن يقلك إلى حين عودتي، لقد أعطيتهم الأوامر أن يهتموا بك وبأصدقائك أيضًا...

- لماذا، هل هناك خطر عليّ، أبي تعلم أنني لا أحب التقيّد بالحرس.

- شامية، أرجوك أن تقبلي طلبي هذا، ليس لدي وقت لأشرح لك، لكن لا أريدك أن تقلقي، ليس هناك أي خطر على حياتك، أنا فقط لا أستطيع تركك بمفردك خاصة أن أمك ليست هنا هي الأخرى، ولكن لدي أخبار سارة، قريبًا ستنتهي أمك رحلتها الطبية وتعود، وأنا أيضًا سأعود بعد أن أنهي كل الخلافات مع عمك، لنحيا معًا حياة هادئة خالية من المشكلات.

- حسنًا أبي، أنا أوافق على كلامك وأعدك أنني سأستمع إلى الحرس، ولكن عدني أن تعود سريعًا إليّ.

- أعدك عزيزتي، أعدك أنني سأعود إليك.

ومن ثم طبع الأب قبلة على جبين ابنته، وودعها، ثم ذهب في طريقه.

وعندما خرج وجد كبير حرسه سامر ينتظر ليقبله إلى المطار، فقال له:

- سامر، لا أريدك أن تعين أحد رجالك لابنتي، أريدك أن تحرسها بنفسك، كن معها خطوة بخطوة، أنا لا أثق إلا بك.

- لا تقلق سيدي، سأقوم بذلك بنفسي.

- وكيف حال رقية؟

- لا تقلق سيدي ستصلني رسالة الآن من الحرس أنهم وصلوا إليها، وسوف يبقون معها إلى أن تنهي رحلتها....

سمع عمر كلمات سامر وقد اطمأن على زوجته وابنته، وأكمل الطريق إلى السيارة يسارع الأقدام، فلحق به سامر وهو يسايره بنفس الحركة السريعه، ليسأله:

- اعذرني سيدي، أردت أن أسألك هذا السؤال منذ أن أعطيتني الأوامر الليلة الماضية، ولكن عليّ أن أعرف إجابة هذا السؤال لدواعٍ أمنية...

توقف عمر عن السير ونظر إلى سامر، وقال:

- أتشك ولو بنسبة ضئيلة في قدرتك على حماية عائلتي؟

أجاب سامر بكل ثقة:

- لا سيدي.

عندها أكمل عمر طريقه، وأكمل الحديث وهو يسير:

- اسمع سامر، أخي خالد ليس سيئاً لهذا الحد، أعلم أن الشكوك تساورك بعد شجار الليلة الماضية ... لكن أخي لم يفقد عقله ليؤذي أحداً من أفراد أسرتي، أنا فقط أريد الاطمئنان عليهم أثناء غيابي.

- حسناً سيدي، اطمئن عليهم.

- أثق في أنهم سيكونون بخير.

ثم استقل عمر سيارته متجهاً نحو المطار في موكبه، وليستقل طائرته الخاصة.

في حين بقي سامر ورجاله في القصر لحراسة الأميرة التي لم تستطع أن تعود للنوم ولم تجد بدءاً من مراقبة والدها من خلف ستائر النافذة في غرفتها...

شيء ما في نفس شامية كان يخبرها أن الأمور لن تعود كما كانت عليه في سابق عهدها، وجعل قلبها المطمئن في مهجعه يهب فزعاً وكأنه لن يعود للسكون...

وفي الصباح الباكر، أتت عائشة برفقة السائق الذي قد ذهب ليحضرها لمرافقة صديقتها...

وبمجرد دخولها غرفة شامية، نظرت إليها شامية وكادت الدموع تتفجر من عينيها، لكن عائشة اقتربت منها، وضممتها إليها، وبدأت تهديء من روعها... قالت لها إن كل شيء سيكون على ما يرام... على الرغم من أنها نفسها لا تؤمن بذلك...

في ذلك اليوم رفضت شامية الخروج من المنزل أو فعل أي شيء، فقط قررت البقاء بالمنزل، واستمر الحال لليوم الثاني والثالث وهي لا تريد الخروج، حتى إن إلحاح رهف ومعاذ عليها لم يغير في قرارها شيئاً.

... ولذلك قرر الرفاق المكوث معها بالمنزل وقضاء الوقت برفقتها، كانوا يسعدون عندما يتحدثون إلى أبيها أو أمها؛ لأنها كانت تشعر بالسعادة لذلك...

أما بالنسبة لكتاب المعلم، فقررت أن تذهب إلى مكتبه في الجامعة، وتضع عليه الكتاب ثم ترحل دون أن تعرفه من هي...

كانت تقضي معظم وقتها على المقعد في الحديقة في صمت، لا تتحدث إلى أحد، ولا حتى عائشة، حتى إن الخدم كانوا مستائين من حالتها، ويشعرون بالأسى لأجلها؟ ويفتقدون ضحكتها المدوية في أرجاء القصر، ومرحها برفقة أصدقائها أمامهم، حتى أفعالها المجنونة التي كانت تثير غضبهم، اشتاقوا إليها...

حتى غرفتها التي كانت تفضلها غير مرتبة، وكانت تصرخ بوجه الخادمت عندما يرتبونها، إذا بها ترتبها بنفسها، وتضع كل شيء في مكانه، تجمع الألوان الملقاة في كل مكان وتضعه في الصناديق المخصصة له، وترتب الفراش بنفسها، والملابس الملقاة على الأريكة وتضعها في مكانها، وأثناء انشغالها بجمع الكتب من على الأرض استأذنت فرح في الدخول، أصغر الخادمت سنناً، والتي تصغر شامية بعام واحد.

عندما وجدت شامية ترتب غرفتها بنفسها، اندهشت كثيراً لتصرفها هذا، فهي تتذكر جيداً كيف كانت تبدأ بالصراخ إذا قامت إحداهن بترتيب غرفتها... عندما لاحظت شامية فرح وهي تنظر إليها، وتحمل في يدها الطعام لتقدمه لها، قالت:

- لا عليك، لا داعي للاندعاش، سأعتاد على ترتيب غرفتي كل صباح كما كانت أمي تريدني أن أفعل.

من فورها ردت فرح وهي تضع الطعام جانبًا، وتستعد لتجمع الكتب معها:

- أعذريني سيدتي سأفعل هذا بدلًا منك.

- لا بأس يمكنك المساعدة، ولكنني سأرتبها معك.

وبينما تجمع الفتاتان الكتب الملقاة على الأرض توقفت شامية قليلاً ثم نظرت إلى فرح، وقالت:

- أنت فتاة صالحة يا فرح تعملين بجد ولا تهملين دروسك أيضاً، وأراك دائماً تبتسمين.

ابتسمت فرح لها، وقالت:

- نعم أنستي، عملي لا يعني عجزني عن الفرحة، أحب حياتي كثيراً، فأنا أعمل بجد لأستحق ما سأصل إليه في الحياة، وحتى لو كان بسيطاً جداً، سأكون سعيدة جداً به لأنني عملت بجد لأصل إليه...

- يا لجمال روحك، بل أنت السيدة بيننا...

ثم عادت شامية لتجمع الكتب، وقالت أثناء ذلك:

- ليتني أملك روحاً مثلها.

فتوقفت فرح عن جمع الكتب، وقالت:

- بل إنك تملكين روحاً أفضل منها، إن كونك فتاة ثرية لا يعني بالضرورة أنك شخصية بشعة أو كسولة، إن الفتيات الأغنياء لا يقضون الوقت برفقة أصدقائهم يتجولون في شوارع إسطنبول، إنهن يرفضن أن يتناولن الأنواع البسيطة من الطعام، إنهن يرفضن الخروج بدون سياراتهم الفخمة، لا يبتسمن في وجه الخادمت لديهن، وأخيراً إنهن يفضلن

غرفهن مرتبة بيد الخادمت ... إن الفقر والغنى ليسا معيارًا للصالح سيدتي، بل إن الإنسان وأخلاقه هي المعايير التي تقرر... ودعيني أخبرك سرًا... أفضل غرفتي غير مرتبة أنا أيضًا.

أعجبت شامية كثيرًا بكلمات فرح، وقد بدا لها أنها شهادة تبرئة من الكلام الذي قاله معاذ لها في المطعم تلك الليلة... وبدأت الفتاتان بالضحك، بينما كانت تقف عائشة عند باب الغرفة، وسمعت آخر كلمات فرح، وسعدت عندما رأت صديقتها أخيرًا تضحك مجددًا منذ أن غادر والدها...

- لا أصدق ما أرى، لا تخبريني أنك أخيرًا سترتبين مرأب السيارات هذا...

التقطت شامية إحدى الوسائد الملقاة على الأرض، ثم ألقته باتجاه عائشة التي ردت لها الضربة، وسادت روح السعادة على الأجواء...

بعد ما انتهت الفتيات أخبرت شامية عائشة أنها قررت الذهاب إلى الجامعة في اليوم التالي فقط لتضع المجلد الذي يخص عدنان على مكتبه وترحل...

وفي اليوم التالي استقلت السيارة قاصدة الجامعة، ورافقها سامر، الحارس الدائم منذ سفر أبيها... وبالفعل ذهبت إلى مكتب عدنان ولم تجده كالعادة، ثم وضعت المجلد عليه، ثم انصرفت، وتركت عليه ورقة صغيرة مكتوب فيها، "شكرا".

وبينما ينتظرها سامر في الخارج إذا بها تغادر المبنى بسرعة، لم يكن يتوقعها...

فسأل:

- آنستي، هل تنتهي الدروس باكراً هكذا في العادة؟

- لا، لم أكن هنا لأجل الدروس سامر.

وهمت بركوب السيارة، فلاحظ سامر في نبرة صوتها الحزن، وظن أن السبب هو الحراسة التي كانت دائماً ترفضها، فأوقفها قائلاً:

- أتمنى أن تعذريني آنستي إن كانت مرافقني وحراستي الدائمة لك هي سبب انزعاجك، لكن عليّ أن أكون في خدمة الرجل الذي طالما وقف بجانبني....

- أفهم إخلاصك لوالدي، وأقدر لك ذلك، ولكن صدقني أنت لست سبباً في انزعاجي، أفهم جيداً أنك تفعل ما طلب منك، وأشكرك على اهتمامك...

- حسناً إلى أين تريدان الذهاب الآن؟

- سنعود للمنزل.

- كما تشاءين.

وركباً السيارة وانطلقا عائدين إلى المنزل، وفي الطريق مرّاً ببستان أتاتورك، راحت شامية تنظر إليه من داخل السيارة وتتذكر اللحظات السعيدة التي قضتها فيه مع أسرتها، وأصدقائها، لكن تلك الذكريات لم تدفعها لتوقف السيارة وتنزل إليه، فقط أكملت الطريق للمنزل...

كان عدنان حينها، قد وصل مكتبه، ووجد مجلد الرواية وعليه ورقة مكتوب فيها "شكراً"، لم يفهم أي شيء ولم يفهم كيف وصل المجلد إلى مكتبه، بهذا الشكل.... فجلس على المقعد وراح يتفقدّه باحثاً عن الصورة التي وضعها بين صفحاته، فوجدها في آخر صفحة من الكتاب، في غير المكان الذي كان قد أوقف عنده القراءة... راح ينظر لصورة زوجته، ونسي كل شيء حتى إنه لم يفكر من أحضر المجلد أو لماذا يشكره... رجل لم يكن موت من أحبها سبباً كافياً لنسيانها، ويقضي أيام عمره في حداد عليها...

حتى إنه لا يشعر بالحياة من حوله، ولا يؤثر فيه إيقاعها السريع والمؤلم أحياناً... نظر عدنان إلى المجلد وللورقة المكتوبة فيه، ولم يفهم شيئاً، ولكنه لم يهتم لتفسير ما حدث مؤمناً بداخله أنه إذا كان شيء يستحق الاهتمام، فإن من فعل ذلك حتماً سيأتيه مرة أخرى حاملاً تفسير ما فعله...

أيام قليلة ويشاء القدر أن يلتقي صاحب المجلد، مع صاحبة الشكر...

بالقرب من إحدى بحيرات أتاتورك كانت شامية تجلس على إحدى المقاعد المقابلة للبحيرة تتأمل في جمالها وهدوء المياه فيها... بعد أن قررت مغادرة المنزل والتنزه في أتاتورك بمفردها، وبجانب المقعد يقف الحارس الأمين سامر، نظرت إليه شامية، وقد أزعجها أن يظل واقفاً على قدميه، فقالت:

- أنت لا تنوي الوقوف هكذا طول مدة بقائي...

- آنستي، بإمكانني أن أقف قدر ما أردتني البقاء.

- لكنني لا أريدك واقفاً، تفضل بالجلوس.

- كما تشاءين.

ثم جلس سامر على نفس المقعد، وعاودت شامية النظر باتجاه البحيرة، وعاودت الصمت مرة أخرى...

وبعد قليل أتى رجل من بعيد يتحدث إلى أحد في هاتفه، وجلس على أحد المقاعد المقابلة لمقعد شامية ولكنه لم يكن قريباً بما يكفي، ليلحظ وجود تلميذة صفه، التي كانت تحديق به فور وصوله...

جلس عدنان ينظر هو الآخر باتجاه البحيرة ويهيم في جمالها، ووضع هاتفه بجانبه... بينما كانت شامية تهيم في انشغاله بالبحيرة كأنه لا يرى العالم من حوله، ظلت تنظر إليه كيف

ينظر للبحيرة، ولا يحيل نظره لأي شيء حوله غيرها، فقط ينظر إليها بحزن عميق، وكأنه يرى فيها ما يشبهه، بحيرة رائعة الجمال، وتتفجر شواطئها بألوان الزهور المختلفة، وعبيرها الفواح، ولكنها راكدة لا تحرك ساكنًا، لا حركة فيها إلا تلك الحركة البسيطة التي تفتعلها بها الريح إذا هبت بشدة على سطح مائها، كذلك يرى عدنان نفسه، بحيرة راكدة لا تتحرك إلا بفعل الرياح، وأما الفرق بينه وبين بحيرة أتاتورك تلك أنها ما تزال تحتفظ بجمالها، وجمال ما حولها، بينما هو قبح ما تعايش فيه، قضى على ملامح الجمال في داخله...

ويمر الوقت والمعلم لا يحيل ناظره عن البحيرة وشامية لا تحيل ناظرها عن المعلم... إلى أن قررت في نفسها أن تذهب وتتحدث إليه... ولكنها حتمًا لا تنوي أن تقدم له سامر على أنه الحارس الشخصي، فقالت:

- سامر، أتري ذلك الرجل في المعطف الأسود هناك.

- نعم، ذلك الذي يحدق بالبحيرة منذ لحظة وصوله.

- نعم هو، إنه أستاذ صف اللغة العربية لدي في الجامعة، هلا سمحت لي أن أذهب لألقي التحية عليه بمفردي، لن أبتعد عن ناظره على كل حال، فمقعده قريب جدًا.

- نعم يا آنسة، لا مشكلة طبعًا، لكن أرجو ألا تطيلي البقاء هناك.

- لا تقلق سألقي التحية، وأعود من فوري...

- حسنًا آنستي.

ذهبت شامية لتتحدث للمعلم، وتخبره أنها من وضع المجلد على مكتبه، وتخبره لماذا قدمت لها الشكر، لكن خطواتها لم تكن سريعة بما يكفي، ربما من شدة تفكيرها في ما الذي

ستقوله، وكيف ستخبره أنها الفتاة التي وجدت مجلده، وأنها نفسها الفتاة التي أنقذها من اللص، وهل سيتذكر أنها تلميذة الصف أم لا...

كل خطوة تخطوها تحمل تساؤلاً جديداً، من هذا الرجل، وماذا يحمل خلفه، ولماذا تخشاه، وتشعر بعالمه يناديها...

وقبل أن تقترب بمسافة تسمح لها بإيقافه عن الرحيل، كان عدنان قد نهض من مكانه مغادراً البحيرة... بينما لم تتوقف خطوات شامية نحو المقعد فقط توقف لسانها، الذي لم تستطع أن تستخدمه لتوقف الرجل، فقد شل لسانها بسؤال، ماذا سأقول؟

على الرغم من أنها تملك ما تقوله، إلا أنها كانت تشعر بالفزع من عالم الحزن الذي يبدو على ظاهره...

عندما اختفى عدنان من أمامها، بين أشجار أتاتورك، كانت قد اقتربت من مقعده لتجد أن التائه في الحياة قد ترك هاتفه على المقعد... من بعيد كان سامر يراقب ما يحدث، وعندما ذهب المعلم اقترب من شامية لدوافع حراستها فتحرك باتجاهها، وعندما وصل رآها تلتقط الهاتف من على المقعد، فقال:

- لماذا انصرف قبل أن يتحدث إليك ألا يعرفك...؟

ردت شامية في أسي، وهي تضع هاتف المعلم في الحقيبة على أن تعطيه له في الغد:

- لا إنه لا يعرفني، إنه معلم جديد لا يعرف أحداً...

وأكملت الحديث في نفسها...

"ويبدو أنه يعشق نسيان الأشياء على مقاعد أتاتورك، وأصبح قدرتي أن ألتقط ما ينساه..."

- اعذريني أنستي، ولكن يبدو الرجل غريب الأطوار بعض الشيء.

- لا بأس، هو لم يعرفني، فقط لأنه معلم جديد ولا يعرف الطلاب جيدًا... هلا ذهبنا للمنزل الآن.

- كما تشاءين أنستي.

ثم انصرفت شامية برفقة سامر إلى المنزل... بينما اختفى المعلم إلى عالمه كما يفعل في كل مرة...

وفي السيارة الفخمة، تجلس شامية تنظر إلى الخارج من النافذة، وتهيم في المعلم، وتتعجب من أحواله، وكيف أنه تائه طوال الوقت إلى حد أنه ينسى أشياءه في كل مرة، وتتعجب من الصدفة التي تجعل قدرها هي أن تجدها على مقاعد أتاتورك...

بعد أن عبرت السيارة الفخمة حديقة قصر عمر الأغا الذي تعيش فيه، توقفت أمام بوابته الفخمة... فنزل سامر منها ليفتح للأميرة الباب، ولكنه شعر بالريب وأن شيئًا ليس جيدًا أبدًا على وشك الحدوث، إذ رأى أمامه "كرم" رجل السيد خالد الأول يقف أمام الباب، ولم يفهم سبب وجوده، فالسيد خالد لم يأت للقصر منذ أن تشاجر مع أخيه عمر... وكذلك أيضًا شعرت شامية بالريب فقالت له:

- ما الذي يفعله كرم هنا؟

- لا بأس أنستي ربما أتى السيد خالد للاطمئنان على أحوال القصر...

- ظننت أنه في خلاف مع والدي.

نظر سامر إليها ورد بإجابة هو غير واثق منها، ولكنه يدرك أنه يجب أن يطمئنها:

- الخلافات تزول أنستي، لا داعي للقلق.

ثم صعدًا إلى القصر، وبينما يمران بالباب إذا بكرم يرمق سامر بنظرة لم يشعر بالاطمئنان تجاهها... لم يكن يعرف أن ما ينتظره خلف بوابة القصر من الداخل هو أسوأ من أسوأ مخاوفه، هو خيانة وغدر الأخ الممتزجة بالجنون...

بمجرد دخول شامية القصر إذا بعمها يصرخ:

- شامية ابنة أخي الحبيبة، أين كنت أبحث عنك منذ ساعات...

انتفض قلب شامية إلى حد أن لسانها عجز عن النطق، فرد سامر قائلاً:

- ما الأمر سيدي؟ إنها بخير.

إذا بخالد يتجه نحوها ويشد ذراعها إليه فيبقيها خلفه، ويوجه حديثه اللازع لسامر.

- أبدا لن يسامحك أخي، لقد آمنتك على حياة زوجته وابنته، ولكنك لم تصن الأمانة، أرسلت رجال ضعفاء لحراسة زوجة أخي، كيف اطمأن لحياة ابنته معك، ورجالك لم يستطيعوا حماية زوجته.

عندها انتفضت شامية من وراء عمها، وصرخت:

- أمي، ماذا بها...

- آسف عزيزتي، لقد وقع اعتداء كبير على المشفى الذي كانت فيه في العراق، ويقال إنه لم ينج أحد منه ولا حتى الأطفال المرضى...

نظرت شامية إلى سامر وقالت في لهفة والدموع تتفجر من عينيها:

- أمي خذني إليها، أريد السفر للعراق الآن...

فرد سامر في شدة يحاول إحكامها بالهدوء كي لا يفرعها:

- مستحيل أنستي، أعدك بأن تطمئني على السيدة رقية، لكن لا أستطيع أبدًا أن آخذك إلى العراق في تلك الظروف.

فلحقه خالد بالرد:

- أتجرؤ أن تعصي أوامر ابنة أخي.

فردت شامية، وهي تبكي بعد أن ذكرتها كلمة عمها بأنها الآمرة:

- أمرك أن تأخذني لأمي الآن...

- لا أستطيع، أرجوك أنستي أحكمي انفعالاتك، لا شيء يدعو للقلق لو أن السيدة رقية أصابها مكروه لكنت أول من عرف، ولأخبرني رجالي بذلك...

فرد خالد:

- أتجرؤ على تكذبي، يالك من خادم خائن، دعني أخبرك أنه لن يأتيك أي خبر من رجالك، فلم ينج أحد من الحادث لا بد أنهم ماتوا.

نظرت شامية إلى سامر، وقد أشعل ذكر كلمة الموت قلبها المرتجف، فردت قائلة:

- أرجوك، خذني إليها الآن ربما هي بحاجتي.

- لا أستطيع أن أعرضك لهذا الخطر... لا أستطيع، أنا مكلف بحمايتك، وسأفعل أي شيء لذلك حتى لو عصيت أوامرك.

فقال خالد:

- دعك منه شامية، أنت محقة ربما أمك بحاجتك، اذهبي السيارة في الخارج ستنقلك للعراق.

بينما تنطلق ناحية الخارج، اعترض سامر طريقها، وأحكم مسكها بكلتا يديه، ورد سامر في موجة غضب، من أثر عدم اهتمام عمها لسلامتها، ولا يقدر أن يتهمه أنه لا يهتم لسلامة ابنة أخيه، رغم أن ذلك أصبح واضحًا جدًا بالنسبة إليه:

- مستحيل، هي لن تذهب لأي مكان...

في موجة غضب واندفاع من شامية إذا بها تلتقط مسدس سامر، الذي يضعه في حزام على خصرة، وتندفع أمامه، وتصوبه إليه مباشرة، وتصرخ:

- خذني لأمي الآن...

فيرد سامر في هدوء، حتى يمتص غضبها، وانفعالها:

- لن أفعل، لن أسمح لك أن تؤذين نفسك... هذا لن يحدث إلا وأنا جثة هامة...

في تلك اللحظة رمق خالد، كرم الذي يقف خلف سامر بنظرة هو يعرف مقتضاها...

فينقض كرم على سامر من الخلف بضربة قوية على رأسه بمسدسه، فأفقد الوعي وبينما يسقط أرضًا... يقول بصوت يختفي من آخر لحظات وعيه...

- لا تذهبي...

ثم سقط على الأرض فاقدًا الوعي، فخافت شامية من هول ما حدث وسقط المسدس من يدها أرضًا ثم نظرت لعمها، وهي تذرف بالدموع... فقال لها:

- هيا اذهبي، لا تقلقي بشأنه سيكون بخير وسيفهم أنك فعلت الصواب عندما يفيق، ولا تقلقي عزيزتي سيكون كرم في حراستك إلى أن يوصلك إلى أمك، وسألحق بك بحلول الصباح، هيا السيارة تنتظرك في الخارج وستأخذكم عبر الحدود فهي أكثر أمانًا الآن.

ألقت شامية نظرة أخيرة على سامر وهو ملقى على الأرض ولكن قلقها على أمها، لم يسمح لها بالتفكير، فغادرت القصر مسرعة إلى السيارة...

بينما أمر خالد أحد رجال كرم أن يحمل سامر إلى السيارة الأخرى... ونظر إلى كرم، وقال:

- ستركب مع الفتاة في السيارة وسيلحق رجالك بك بالسيارة التي فيها سامر، عندما تقتله لا تنس أن تضعه في نفس السيارة معها، فهو حارس مغفل نفذ أوامر سيدته التي أودت بحياتهما في العراق...

- حاضر سيدي.

بينما يدير خالد ظهره، قال:

- كرم!! لا تغادر أرض العراق إلا وقد أنجزت مهمتك، لن أسمح بالخطأ هذه المرة، أريد أن أسمع خبر موتها، لا اختفائها كأماها...

- لا تقلق سيدي، كما أن رقية لا يمكن أن تكون نجت من الهجوم.

- لكنك لن تر جثتها أيها الأحمق.

- حاضر سيدي.

بعد انصراف كرم والسيارات في الخارج، وقف خالد ينظر للقصر الفخم الذي سيبني فيه قلاع أحلامه على أنقاض أرواح أسرة أخيه، بعد أن قام بطرد كل العاملين فيه، بحجة أنه خارج عن وعيه من شدة الحزن على موت ملكة القصر، ثم دخل مكتب أخيه وأسقط لافتة اسمه أرضاً، وجلس على مقعده ليستحضر شعور الجلوس على عرش ممتلكاته.. عندها خال الضبع نفسه في فراء الأسد...

ووضع هاتفه أمامه وجلس ينتظر مهاتفة من كرم يخبره أنه أنجز المهمة...

في هذه الأثناء كانت شامية في طريقها لمغادرة الأراضي التركية والعبور إلى العراق، في قلق شديد، إلى حد أنها لم تفكر في استخدام هاتفها لتخبر والدها عما يحدث، والأب منشغل في إنجاز أعماله في سويسرا، والأخ يحاول منع أخيه من بيع ممتلكاته بأقصى سرعة ممكنة حتى لا تخرج من تحت سيطرته كوريت شرعي لأخيه الذي ينوي قتله... بينما كان عدنان قد وصل منزل صديقه محمود لإمضاء ساعات الليل الأولى برفقته، وعندما وصل إلى المبنى من الخارج أراد أن يهاتف صديقه ليستأذنه في الصعود إليه، فوضع يده في جيبه باحثًا عن هاتفه، لكنه لم يجده، فظن أنه نسيه في مكان ما، وقرر الصعود لصديقه... عندما وصل باب الشقة، دق الجرس ثلاث مرات، ولكن دون رد، فظن أن محمود ليس بالمنزل وهم بالرحيل، ولكن بينما يدير وجهه إذا بمحمود يفتح الباب، ويناديه:

- عدنان، مرحبًا بك إلى أين تذهب!!

- ظننت أنك لست بالمنزل.

- لا بأس، هيا تفضل يا صديقي.

وعندما دخلًا أخبره عدنان أنه حاول الاتصال به لكنه لم يجد هاتفه؛ لأنه ربما نسيه في مكان ما... وجلس الصديقان يتحدثان ويتسامران حول الأحداث والوقائع من حولهما كعادتهما...

وأخبر عدنان محمود بشأن ما حدث على مكتبه وأنه عاد من الصف ووجد مجلد الرواية موجودًا على مكتبه وعليه ورقة مكتوب فيها شكرًا... وأنه لا يملك تفسيرًا لما حدث، فإنه هو من عليه أن يشكر من أعاد له المجلد...

فقال محمود ربما من وجد الرواية أحد تلامذتك وشعر بالحرص من التحدث إليك، ولكنه لم يفهم كيف لأي من تلاميذه أن يعرف أنه هو صاحب المجلد، وفي النهاية لم يجد كلا

الصديقين تفسيرًا لما حدث...

وبعدما انتهى المجلس والقليل من الحديث، نزلًا لتناول طعام العشاء معًا في أحد المطاعم.

في تلك اللحظات كانت صاحبة التفسير الوحيد قد غادرت الأراضي التركية بالتهريب عبر الحدود إلى العراق...

في حين انتهاء الصديقين من تناول الطعام، والحديث، كان الليل قد شارف على الانتهاء، فقرر محمود مرافقة صديقه ليوصله إلى المنزل... وعندما وصلًا باب المنزل، طلب عدنان من محمود هاتفه ليتصل بهاتفه فيعثر عليه، ظنًا منه أنه قد نسيه في المنزل...

فأعطاه محمود الهاتف وعندما حاول الاتصال بهاتفه لم يسمع الجرس في الشقة... ليس هذا وحسب بل إن أحدهم أجاب على الهاتف، بينما يضع عدنان الهاتف على أذنيه، إذا بصوت فتاة، تصرخ وتستغيث، "أبي... أبي... ساعدني".

لكن صوت الاستغاثة لم يكن الصوت الوحيد، بل كان صوت طلقات الرصاص يكاد أن يغادر مسامع أذنه إلى أن يشق قلبه داخل صدره...

وفجأة سكت صوت الفتاة، ولم يبق سوى صوت الرصاص المدوي...

كل هذا وعدنان يضع الهاتف على أذنه ولا يبدي أي رد فعل، سوى شعور الصدمة الذي يشق صدره، ويستحضر أمامه مشهد مقتل زوجته، كاملاً، ليس هذا وحسب بل إن الفتاة كانت تنادي النجدة من أبيها، فظن أنها ابنته، ولكن كيف لابنته التي لا تنطق أن تناديه... في وسط زحمة المشاعر والأفكار التي عصفت بقلب الرجل في أقل من دقيقة، سقط أرضًا فاقداً الوعي...

-... عدنان...

حمل محمود صديقه إلى الأريكة محاولاً أن يعيده إلى وعيه...

بينما كانت شامية في سيارتها بين حطام الأجساد والجثث، الجميع ماتوا، السائق وسامر في المقعد الأمامي من نفس السيارة برصاصتين في صدرهما...

بينما دخلت أرض العراق سيارتان، خرجت سيارة واحدة تقل كرم ورجاله بعد أن أنجزوا مهمتهم...

وفي القصر في إسطنبول تلقى خالد مهاتفة من كرم تخبره أن المهمة قد أنجزت وأن الفتاة قد ماتت...

فأغلق المهاتفة كرم، واتصل بأخيه في وقت الفجر...

- ما الأمر خالد، لماذا تكلمني في هذا الوقت لقد انتهى كل شيء، سأبيع كل نصيبي من الممتلكات المشتركة بيننا، وأبتعد عنك...

- إن كنت ترغب برؤية ابنتك حية مجددًا، عليك أن تحضر بمفردك في العاشرة صباحًا عند سفح الهضبة، التي طالما لعبنا عندها، لدينا حساب لنصفيه يا ابن أمي...

- ما الذي تقوله هل جنن...

...-

أخبر كرم خالد أن الفتاة قد ماتت، لكن الحقيقة أنه أجهز على السائق وسامر، وباع الفتاة لمتبردي الحدود، وقبض الثمن، قال إن أبيها أحد أكبر رجال الاقتصاد في تركيا، وأنه قد يدفع كل ثروته لاسترداد ابنته الوحيدة، ونصح من أعطاه المال أن يتصل بأبيها بعد ثمان وأربعين ساعة حتى يكون قلقه عليها قد نال منه، والحقيقة حتى يكون رئيسه قد قضى عليه، فلا يجدون فائدة من الفتاة فيقتلوها ولا يعلم رئيسه بحقيقة ما حدث...

فإن كان المعلم خائنا فلا بد للتلميذ أن يجرب العصي ذاتها...

بينما كانت شامية تستغيث بالشخص على الطرف الآخر من الهاتف الذي ظنت أنه أبيها من هول ما يحدث حولها... فتح أحد المتمردين باب السيارة ووضع منديلاً به مادة مخدرة على أنفها حتى فقدت الوعي وسحبها خارج السيارة قبل أن يقوموا بتفجيرها بما فيها من جث حتى لا تظهر هوية القتلى...

كان عدنان قد أفاق من غفلته، وحكى لمحمود حقيقة ما حدث، وعندما أخبره أن صوت الفتاة توقف قبل صوت الرصاص، استدلاً على أنها ماتت...

ظل الصديقان في حيرة جمّة مما حدث، فعدنان لا يذكر أين ترك هاتفه، ومحمود لا يملك أي تفسير لما يحدث لصديقه، أولاً يجد مجلده المفقود على مكتبه، والآن ما حدث على الهاتف، وأخذ عدنان الهاتف من محمود وحاول الاتصال بهاتفه مرة أخرى ولكن دون رد...

وبعد قليل، أشرقت الشمس على الجميع، على الأب في طائرته الخاصة عائداً إلى تركيا، ومنها إلى سيارته التي قادها وحده كما طلب منه أخوه متجهاً إلى المكان الذي دعاه إليه أخوه، فهو يعرف أن جنونه قد يقوده لأبعد الحدود...

وعلى العم الخائن الذي ما يزال يجلس على مكتب أخيه أن ينتظر عودة رجاله...

وعلى عدنان ومحمود اللذين لا يفهمان ما يحدث حولها ويجلسان لا يعرفان ماذا يفعلان، هل يخبرا الشرطة بما حدث، ولكن ما الذي سيقولانه، وأي تفسير يقدمانه، وهم لن يصدقوا عدنان إن أخبرهم أنه لا يذكر أين نسي هاتفه، فقط يجلسان والحيرة تعصف بعقلهما...

وعلى عائشة التي ظلت تنتظر السيارة لتقلها لمنزل شامية كما الأمر في كل صباح، ولكنها انتظرت طويلاً ولم يأت السائق، وهاتف صديقتها مغلق ولا إجابة، فزاد القلق في نفسها إلى أن قررت الذهاب إلى منزل صديقتها لتسأل عنها، ولكن عندما وصلت لم تجتز بوابة القصر حتى، فقد وجدتها مغلقة وعليها حارس تراه لأول مرة، وعندما أخبرته أنها تريد الدخول لشامية، قال إنه ليس هناك أي أحد في المنزل، ولا يعلم إلى أين ذهبوا، ولا يستطيع أن

يسمح لأحد بالدخول؛ لأن هذا مخالف للأوامر التي تلقاها... فزاد قلق الفتاة واتصلت برفاقها لتخبرهم بالأمر وليساعدها في البحث عن صديقتهم...

وبعدما وصل كرم إلى القصر، رحب به سيده ترحيب المنتصر، ثم أخبره أنه ذاهب لينفذ باقي الخطة... فاقترح عليه كرم أن يذهب هو ليجهز عليه، ولكن خالد رفض ذلك، قال إنه يريد تصفية حسابه، والحقيقة أنه لا يملك عند أخيه حساباً سوى الحقد والكراهة في قلبه...

كان عمر قد وصل إلى التلة التي دعاها إليه أخوه، هضبة تشبه سفح المنحدرات اعتادا اللعب عليها في الطفولة، وظل جالساً في سيارته ينتظر قدوم أخيه... وعندما أتى خالد عرف أن أخاه يجلس في سيارته، فظل واقفاً بسيارته يلقي نظرة أخيرة من الخلف على السيارة التي فيها أخوه وهو يراها للمرة الأخيرة... ثم انطلق بسيارته نحو سيارة أخيه من الخلف ودفعه للسقوط من أعلى التلة... ليلقى عمر حتفه هناك... ويموت معه كل أمل لشامية في النجاة... وتموت معه حياة المجد التي عاشها وبنها بيده وعصبه... وينتهي عصر الشريف عمر الأغا ليبدأ عصر الغدر والخيانة في دم أخيه...

عاد خالد إلى القصر بعد أن قضى على أخيه...

إلى القصر التي كانت تملأ مداخله أصوات الطير وتحولت إلى نحب الغربان... تلك الموسيقى الفخمة التي كانت تراوح الذهن عند دخول القصر، تحولت إلى سيمفونيات الصراخ والعذاب... حتى زهور الحديقة راح عطرها، وبهت لونها... حتى جدران القصر بدا عليها أن تميل للتشقق...

بينما يدخل سيد القصر الجديد ويخطو بقدمه فيه... كل خطوة ترتجف لها جدران القصر فزعاً...

وفي المساء بدأت وسائل الإعلام تعوي بأخبار المليونير المنتحر...

وخرج الأخ المفجوع على فقدان أسرة أخيه لأهل الصحف لينقل لهم وقائع ما حدث ليكتبوه في صحفهم...

"كانت السيدة رقية عمر الأغا في رحلة طبية في بلادها الأم العراق... وكان في حراستها ثلاثة من أكفأ رجالنا، ولكنها تعرضت لاعتداء جاثم صباح أمس... مما أودى بحياتها، وعندما سمعت شامية عمر الأغا ابنة أخي الحبيبة بخبر ما حدث لأمها، لم تستطع البقاء في القصر، وأمرت حارسها الشخصي بأن يأخذها إلى أرض العراق، ونفذ الحارس الأوامر من فوره دون روية أو تفكير... وقبل أن يصل إليها رجالي كانت وصلتنا الأخبار أنه وقع الاعتداء على سيارتها من قبل متمردي الحدود... في تلك الأثناء كان أخي... السيد عمر الأغا قد استقل طائرته الخاصة عائداً إلى تركيا لنحاول الوصول إلى شامية كما اتفقنا في آخر مهاتفة جرت بيننا... ولكن خبر موت ابنته كان أسرع إليه مني... لم يتحمل أخي خبر موت ابنته الوحيدة وزوجته في آن واحد، فألقى بنفسه من فوق التلة وفارق الحياة من فوره..."

وبحلول صباح اليوم التالي كانت أخبار العائلة المنكوبة حديث أهل إسطنبول أجمعين... ولم تشرق بعدها شمس الأيام على الرفاق عائشة ومعاذ ورهف...

بينما المعلم عندما سمع الأخبار، ارتاب كم أن أحداث القصة قريبة من حياته والفرق أنه هو وابنته لا يزالان يتنفسان فقط...

عندما، ظهرت صور العائلة المنكوبة على التلفاز، تذكر عدنان أن شامية الأغا هي نفسها الفتاة التي أتت تعبر عن سعادتها بصفه، وأنه لم يلحظ وجودها في الصف منذ تلك المرة، ولكن عقله لم يتوقف عند هذا فقط، بل إن شيئاً في نفسه جعله يؤمن أنها هي من وضع المجلد على مكتبه، وأنها من كانت تستغيث عبر الهاتف... فراح يبحث في سجل الطلاب عن اسم شامية عمر الأغا... فتأكد من صحة ما تذكره، أنها فتاة مقيدة بصف اللغة العربية لديه... عندها تأكدت ظنونه أن الهاتف كان معها وهي من كانت تستغيث...

قصد عدنان من فوره صف الفتاة حاملاً مجلد رواية أغاثا كريستي في يده، واستأذن من المعلم الذي كان يلقي لهم، وبدأ يسأل الطلاب سؤالاً غريباً:

- هل من بينكم من وضع هذا المجلد على مكتبي منذ عدة أيام، ووضع عليه ورقة

مكتوب عليها "شكرا"؟

ولكن أحداً لم يجب... فسأل سؤالاً آخر:

- من بين طلاب هذا الصف أوقفتني فتاة منذ عدة أيام وعبرت عن سعادتها بصفي هل هي موجودة... إن كانت بينكم أتمنى أن تظهر نفسها إليّ.

فقامت من بين الحضور، رهف التي كانت شاهدة على المشهد، وقالت:

- لا يمكن لها أن ترد سيدي، ولا يمكن لها أن توجد بيننا، لقد فارقت هذه الفتاة الحياة.

- أخبريني هل اسمها شامية عمر الأغا.

فنظرت إلى الأرض في حزن، ثم عاودت الرد بصوت مذبوح بالدموع:

- نعم سيدي.

ومن ثم غادرت رهف الصف في أسي، وكأنها لم تعد ترغب فيه ... واعتذر عدنان من معلم الصف وخرج هو الآخر...

شعر عدنان بالأسى الشديد إلى حد أنه ترك الجامعة هارباً من كل ما حوله إلى حديقة أتاتورك ملازه الوحيد، وقضى الوقت يفكر في الفتاة وما أصابها، ويفكر كيف وصل هاتفه إليها، وإن كانت هي من وضع المجلد على مكتبه فلماذا؟ أرادت أن تشكره... ولماذا عبرت

عن امتنانها بصفه، الرجل الذي كان لا يهتم بشيء في الحياة، إذا بالحياة تجبره على الاهتمام، ولو بالحيرة...

وبحلول المساء عاد إلى منزله فوجد محمود يجلس على الدرج أمام الباب:

- ما الأمر، لماذا تجلس هكذا...

رد محمود بلهفة، كأنه لا يصدق أنه أخيراً عثر على عدنان:

- أين كنت؟ أبحث عنك منذ الصباح، وذهبت لمكتبك في الجامعة ولم أجدك...

- ما الأمر محمود تكلم...

- هاتفك، لقد اتصل بي اليوم...

- ماذا؟!

نظر محمود حوله، وقال:

- هيا، افتح الباب...

فتتح عدنان الباب ودخلا، وعندها بدأ محمود يخبره بما حدث بأنفاس متقطعة:

- الفتاة ما تزال حية...

- ماذا؟ أي فتاة؟ أنا لا أفهمك، هدى من روعك، وتحدث.

- حسناً، لقد اتصل بي أحدهم من هاتفك اليوم وطلب فدية في حق فتاة تدعى شامية، قال إن كان يهكم شأنها عليك أن تأتي إلى حدود العراق وتدفع الفدية...

- ماذا؟! وكم هي الفدية التي طلبها...

- نصف مليار دولار أمريكي.

- ماذا؟!

- أردت أن أخبر الشرطة ولكنهم هددوا بقتل الفتاة إذا ما أخبرت الشرطة...

- وما الذي يجعلك تظن أن الفتاة حية لقد قتلت الفتاة التي تتحدث عنها ف...

- لقد سمعت صوتها تحدث إليّ...

- ما الذي قالته؟

- سيد عدنان... ثم لم يسمحوا لها بأن تكمل الحديث... لقد نادتك أنت...

- كيف؟! كيف تناديني من هاتفي؟

- حتمًا كانت تعلم أن الحديث سيصل إليك...

بينما يتحدثان إذا بهاتف محمود يرن مرة أخرى، والمتصل عدنان ... فأخذ عدنان الهاتف من يد محمود بسرعة، ودون تفكير رد عليه...

- مرحبًا...

- هل أحضرت المال، إن لم تأت به في حلول خمس ساعات من الآن تعال إلى الحدود لتأخذ جثة الفتاة، وبإمكانك عندها أن تبلغ الشرطة...

- المال جاهز، أين آتي إليك..

- سألتقيك عند مدخل زاخو في مدينة دهوك على الحدود العراقية، بعد خمس ساعات...

- سأوافيك في الموعد.

ثم أغلق الرجل الهاتف، وصاح محمود:

- هل جننت، لقد فقدت عقلك حتمًا...

- لم يكن أمامي أي خيار آخر.

- من أين ستأتي بالمال...

- لا مال عندي سأذهب دون مال...

- لقد فقدت عقلك حتمًا...

- محمود ليس لدي وقت لأشرح لك، خمس ساعات أبدا لن تكفيني للوصول إلى دهوك...
أبق هاتفك مفتوحًا حتمًا سأحاول الاتصال بك...

ثم انصرف مسرعًا يجمع كل ما لديه من مال، والذي لم يكن ليتعدى بضعة دولارات ...
والتقط معطفًا جلدًا وضعه عليه... ونزل مسرعًا إلى الأسفل، إلى الجراج ليخرج سيارته
التي لم تغادر مكانها منذ زمن، ويتبعه محمود محاولًا إيقافه، فهو يعلم جيدًا أن تصرفه
هذا انتحار لا محال عنه، ولكن عدنان لا ينتبه لحديثه ولا ينتبه لشيء، لا يرى أمامه سوى
صورة زوجته تلتقط آخر أنفاسها، وكأنه يشعر أن الفرصة تأتيه من جديد لإنقاذ حياتها،
وكان قلبه هائجًا، وكأنه مستعد للسير في النار كي لا يفقدها هذه المرة... كان يخال نفسه
ذاهبًا لإنقاذ زوجته لا الفتاة...

حاول محمود إيقافه كثيرًا ولكن دون جدوى، بل إنه دفع صديقه بقوة فأسقطه أرضًا بعيدًا
عن السيارة، وانطلق بها مسرعًا متجهًا نحو الحدود التركية، ساعات من القيادة، وهو في
غيوبة لا يرى الواقع، لا يرى أنه ليس ذاهبًا لأجل زوجته بل ذاهب لينقذ فتاة لا يعرفها،
ساعات من القيادة وهو لا يرى الطريق يرى صورة زوجته وهي تفارق الحياة، لا يشم
الهواء بل يشم رائحة دماؤها السائلة على ملابسه يوم فقدها...

لا يفكر بشيء سوى أنه مندفع بسرعة نحو زوجته...

وعندما وصل الحدود، كان يعلم أنه حتمًا سيلقى حتفه، وقد يؤدي أيضًا بحياة الفتاة... ورغم هذا لم يتراجع عن تصرفه الأحمق، وصل بالسيارة إلى الحدود في المكان الذي أخبره الرجل أنه سيكون فيه... لكنه لم يجد أحدًا فوق ينظر حوله ويتلفت كالمجنون لا أحد في المكان سواه، وهو يبدو كالهائج التائه الذي لا يعرف أين هو وماذا يفعل في هذا المكان في مقربة الفجر... إلى أن سقط على الأرض حانيًا ركبتيه من شدة التفكير... ومن الخلف انقض عليه أحدهم بسلاحه على رأسه، فأفقدته الوعي...

ثم أفاقته صدمة قوية بالماء البارد، وإذا به ملقى على الأرض تحت قدم رجل غريب يبدو كالبدو، ويلف جسده كله بالقماش ويرتدي عمامة سوداء... ثم قال الرجل:

- أين المال؟

فأجاب عدنان، وهو يلتقط أنفاسه:

- لا مال عندي، أنا رجل فقير لا أملك المال الكافي الذي طلبته...

بعدها انهال الرجال عليه ضربًا مبرحًا حتى نزف أنفه... ثم قال الرجل:

- أوقفوا الضرب، لا تؤذوه، يريدونهما أحياء... خذوه إلى حيث وضعت الفتاة، سنسلمهما ليلة الغد...

فقام رجل ضخم البنيان، بشد عدنان من كتفيه على الأرض، حتى ألقاه في إحدى الغرف، ومن شدة الضرب، لم يشعر عدنان بجسده، لم يشعر بشيء من حوله، سوى أقدام الضخم تغادر الغرفة، وينغلق الباب خلفه... وبعدها أغمض عينيه فاقدًا الوعي مرة أخرى...

وفي أحد أركان تلك الغرفة كانت تتكوم فتاة، لا تحتمي في شيء سوى ثوبها وترتجف من أشياء كثيرة لا تعرفها ولا تفهمها... والأصوات في المكان ليست سوى أصوات الكلاب التي

- أنتِ من وضع المجلد على مكتبي أليس كذلك؟

فأومأت برأسها، مصدقة على كلامه... وبعد قليل إذا بالباب يفتح فتفزع الفتاة، من مكانها وتقترب من عدنان ثانية... ودخل رجل غليظ الهيئة يحمل في يده صنية مليئة بالطعام... ووضعها أمامهما كانت تحمل اللحوم والطعام الفاخر... فنظر عدنان إلى محتوى الطعام، وتبسم ساخرًا، وقال:

- يقدمون خدمة راقية هنا...

ثم أمسك يدها لعدم الخوف وتناول الطعام... ونظر إلى يدها، فإذا بها مليئة بالجروح العارية من أثر الحبال، فبدأ يمد يده إلى كوب الماء القادم مع الطعام ويغسل جروها، ثم قام بتمزيق طرف قميصه وربط الجرح به... وخلع معطفه ووضعها على كتفها، ثم استدار يتناول الطعام في هدوء... وكأنه يجلس في مطعم فخم، لم يكن هدوءًا أو اطمئنانًا لبقائه معهم، بل هو يعلم جيدًا أن النهاية قد حانت على أرض العراق، هو فقط يستغرب، الأرض التي فر منها بعد أن أخذت زوجته يعود إليها بقدميه... في تعامل ساخر مع الواقع من حوله، مد يده بالطعام إلى الفتاة، ولكنها رفضت ذلك... فأدرك أنه لا جدوى من السخرية، فوضع الطعام، وبدأ يتحدث إليها، قبل أن تحين اللحظة الأخيرة، فهو يعلم جيدًا أنهم لن يبقوا عليهم طويلاً:

- كنت أتمنى العودة إلى موطني في كل لحظة، ولكنني كنت أخشى ذكرى فقداني لزوجتي على أرضه، وها أنتِ تعيديني إليه منكبًا على وجهي، وأنا حتى لا أعرفك...

...-

- تفضلين الصمت لا بأس، ولكن سيكون عليك تناول بعضًا من هذا الطعام وإلا أخذك الموت كافرة بالانتحار... إن كنتي ستموتين فلا تخسري كل شيء...-

ثم مد يده لها، فالتكأت عليها بيدها الواهنة من شدة الهزل، وعندها أحس أنها غير قادرة على فعل شيء فبدأ يطعمها بنفسه، إلى أن تناولت كفايتها... وعادت إلى الركن تتكوم فيه مجددًا، بينما عاد هو يسند ظهره إلى الحائط يفكر فيما قاله الرجل، ما الذي يقصده بسنسلهما... ولماذا يغدق عليهما بالطعام الذي ظن أنه مسمم في بادئ الأمر، ولكنه اكتشف أنه ليس كذلك بعد أن أكل منه... وبعد قليل من الجلوس، فُتح الباب مرة أخرى ودخل رجلان، حاولا الاقتراب من الفتاة أولاً فحاول عدنان اعتراضهما لكن أحدهما ضربه على ضلوعه بقوة، فأكد على كسر عظامها.... وقام بتغطية وجهه بغطاء أسود وسحبه للخارج، وكذلك فعل الآخر مع الفتاة التي كانت لا تنفك تصرخ... عرف عدنان حينها أنه حانت اللحظة...-

ولكن بعد قليل إذا بهم يضعوهما في صندوق خلفي لسيارة نقل حمولات مغطاة، وسمع عدنان الرجل وهو يخبر أحد رجاله... عليك أن تتأكد من المال قبل أن تسلمهما البضائع ... عرف عدنان حينها أنه تم بيعهما أعضاء بشرية، فهذا هو السبب الوحيد الذي يفسر إبقائهما على قيد الحياة ... والطعام الفخم لهما، ومنذ أن أدرك ذلك ظل يحرك يديه جاهداً لفك وثاقهما، وبعد محاولات كثيرة مع ضلوع مكسورة وألم يفتك به ... تمكن من فك وثاقه... ورفع الغطاء عن وجهه بسرعة، فإذا بالفتاة ملقاة بالقرب منه، فك وثاقها بسرعة، ورفع عن وجهها الغطاء، ثم قام وكشف غطاء السيارة عنهما برفق حتى لا يشعر السائق، فوجد نفسه في سيارة تتحرك بسرعة عالية على إحدى الطرق، وفي الأمام رجلان يبدوان مسلحين... ففكر في طريقة يتخلص بها منهما... فأشار إليها بالانبطاح في أرض صنوق السيارة، وطلب إليها أن تعيد وضع الغطاء على وجهها وتضع يدها خلف ظهرها... وانبطح هو الآخر ثم جمع غطاء السيارة في يده، وجعل ذراعه يتدلى بالغطاء ناحية الباب، لكي يراه الرجلان، ومن

ثم تركه يسقط على الطريق، وبسرعة عاد للانبطاح في السيارة ... وعندما سمع صوت باب واحد من السيارة يُفتح عرف أنه ما يزال واحد بالداخل والآخر خرج ليلتقط الغطاء، وبسرعة قفز من السيارة وانقض على الذي خرج وكان يحمل سلاحه في يده، فطوقه بيديه وأمسك سلاحه وبمجرد خروج الآخر لنهضته كان عدنان قد أمسك سلاح الرجل الذي اشتبك معه أولاً، ووضع إصبعه على زناد السلاح، فأطلق الرصاص صوب الرجل الآخر قبل أن يتمكن الآخر من إطلاق الرصاص عليه، بينما ضغط الرجل الأول على ضلعه المنكسر، فصرخ بقوة من شدة الألم، ولكن تمالك قواه وأفلت منه،... وعندما استدار أمامه أجهز عليه عدنان، وأطلق الرصاص...، ثم قام بسرعة بدفعهما بعيداً عن الطريق، وذهب لينزل الفتاة معه إلى صندوق السيارة الأمامي... وعندما كشف الغطاء عنها وجدها تبكي بشدة وهي مغمضة العين... فقال بصوت عال:

- شامية... لا وقت هيا انزلي معي...

فتحت شامية عينيها ولم تصدق أنه ما يزال حيًّا، فقال ساخرًا وهو ينزلها:

- إنها تدريبات الجيش العراقي... أبدًا لا تنسى...

ثم ضحك ضحكة خفيفة، في حال رجل علمته الحياة السخرية في أصعب المواقف من سوء ما مر به... وانزلها قائلاً:

- نجوت، لا داعي للخوف الآن...

ثم استقل السيارة وأسرع بها وهو لا يعلم أين وجهتهما... ولكن بعد قليل أدرك أنه يتجه صوب الموصل العراقية... ولكنه تجنب المرور بها خوفًا من أن يكونوا بانتظاره، فأخذ طريقًا آخر لا يعرف نهايتها... وبعد ساعات من القيادة على طريق صحراوية قادتته إلى مكان لا يعرفه... وعندما ظهر له المعمار أوقف السيارة بعيدًا عن المعمار خشية أن يظن الناس أنه من المسلحين فسياراتهم مألوفة للجميع، ونزل من السيارة ممسكًا بيد الفتاة،

وقد كانت ضلوعه قد تورمت، واشتد الألم الذي يحاول إخفاءه... إلى أن أقترب من مباني البلدة التي كانت تبدو من مبانيها بلدة صغيرة... ودخل إليها وهو يشد بيد الفتاة خلفه... وعندما اقترب من إحدى الدكاكين سقط أرضًا أمامه من شدة الألم، ولم تعرف شامية ماذا تفعل، أو ماذا تقول... فقط وقفت في مكانها ترتجف من الخوف بينما عدنان يتلوى أمامها من شدة الألم...

فخرج الرجل من دكانه مسرعًا إلى الملقى على الأرض واستدعى بعض الرجال، فحملوه إلى داخل المنزل، وخرجت إحدى النساء وأخذت بيد شامية وهي تشد عليها وتطمئنها "تعالى... لا تخافى... لا تخافى...".

وعندما دخل المنزل، كان الرجال يتحدثون من داخل الغرفة التي وضعوا فيها عدنان بينما تقف شامية في الخارج تسمع صوت أهاته وتبكي في حرقه، ومن حولها النساء يتحركون في كل مكان للمساعدة...

ومن داخل الغرفة يعلو الصوت... "جراح الرجل خطيرة لا بد من نقله للمشفى"، وصوت آخر: "نحن لا نعرف قصته ربما كان هاربًا، استدعوا عزام، أليس طبيبًا استدعوه... يا ولد اذهب لمنزل الطبيب عزام، قل له إن عليه أن يحضر في الحال إلينا... أسرع يا ولد".

وبعد قليل يأتي عزام الطبيب... ويدخل الغرفة ويخرج الجميع، ويذهب رجل ويجيء عليه... وينقل الأشياء المختلفة... بينما تقف شامية في الخارج تشاهد كل هذا في فزع...

وبعد قليل يخرج الطبيب ويقول:

- إنه رجل قوي، سينجوا حتمًا، لكنه بحاجة إلى الراحة التامة... لن يغادر الفراش إلا قبل شهر...

وخرج الطبيب، وبقيت شامية بمفردها في بيت لا تعرف من فيه، فأتجهت إلى أحد الأركان في المنزل وجلست فيه، وعادت تلملم ثيابها وتنطوي على نفسها مرة أخرى بعيدًا عن أعين

الحضور... فاقتربت منها إحدى النساء، وحاولت التحدث معها كثيرًا، ولكن دون رد، فظنت
السيدة أنها لا تسمع ولا تتكلم، ونقلت ذلك إلى سيدة أخرى كانت تبدو بمظهر عجوز في
بداية العقود الأخيرة تدعى "عهد"، فاقتربت منها، ونظرت إلى يدها، فوجدتها ملفوفة
بقطعة من قميص الرجل، وظلت تنظر لها وليديها وهيأتها، فاستنتجت أنها تأتي من أصول
طبية وثرية، فشدت على يديها، وضمتها لصدرها لتجعلها تشعر بالأمن... ومن ثم ساعدتها
على النهوض... وأدخلتها إحدى غرف المنزل الصغير والبسيط...

وأعطتها ثيابًا أخرى غير ثيابها التي قد بليت... وأشارت لها إلى الحمام لتغتسل...

ثم تركتها "عهد"، وذهبت إلى غرفة عدنان ثم جلست بجوار فراشه... وقد كان يتصبب
عرقًا من شدة الحمى التي نزلت به...

وبينما تبلل قطع القماش وتضعها على جبينه، محاولة تخفيف الحرارة... يدخل زوجها رجل
يبدو عليه الوقار من هيأته في عباءة صوفية... فقال لها:

- ترى ما هي قصته؟

فتنهدت عهد، ثم ردت قائلة:

- إنه غريب ليس من المنطقة، يبدو عليهما الترف، وخاصة الفتاة التي معه، تعلم أحوال
منطقتنا الآن لا يمكن أن يكونا منها....

- فتاة!! أليست زوجته؟

- لا، وجدت قطعة من قميصه على يدها، كان تخفي جرحًا طفيفًا، يبدو كأثر حبال... لكنها لا
يمكن أن تكون امرأة متزوجة... هيأتها توحى بأنها أنسة، ويبدو أنهما تعرضًا للاعتداء، فهي
واقعة تحت تأثير صدمة قوية، لذلك لا تتكلم...

- أخشى أن يجلبا خلفهما المشكلات... يقول الطبيب إنه لن يتعافى قبل شهر من الآن....

نظرت المرأة إلى عدنان، ثم مدت يدها المليئة بالتجاعيد إلى وجهه وراحت تمسح عنه قطرات الماء، ثم قالت:

- انظر إليه كم يشبه "قاسم" كثيرًا...

- اه، قاسم نعم منذ أن رأيته للمرة الأولى ظننت أن ولدي قد عاد إليّ...

- ولدي شهيد ودمه طاهر، لن يعود إلينا من الجنان... بل سيأخذنا إليها... ربما قاد الله هذا الجريح إلينا لناويه... وننظر لوجهه فنتصبر برؤية ولدنا قاسم...

يتنهد الرجل بقوة، ويقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، الله قادر أن يحميه ويحمينا ممن يتتبعونه..

مر أسبوع كامل وعدنان وشامية كل منهما في غرفة من غرف المنزل الذي يضم زوج وزوجة في العقود الأخيرة، وولديهما، وزوجات ولديهما وأحفادهما...

كانت شامية لا تغادر الغرفة التي تمكث فيها، ولا تتحدث ولا تأكل إلا بيد عهد العجوز... وكانت عهد تعتنى بعدنان أيضًا في فراشه، وتطعمه وتمرضه وتتوسم في كل لحظة تمضيها بقربه ملامح ابنها الراحل قاسم...

بينما كان الرجل يمضي وقته في دكانته أسفل المنزل... وبينما يجلس في أحد الأيام فإذا بأحد أحفاده يهرول إليه "لقد أفاق الرجل... إنه يتحدث..."، فعلم الشيخ أن الغريب قد أفاق، فصعد إليه... وعندما دخل على عدنان... قام عدنان من مكانه محاولاً إسناد ظهره إلى الفراش، فلحقه الرجل قائلاً:

- لا بأس، لا عليك... لا تتحرك فأنت مصاب بشدة.

فاسترخى حينها عدنان، وقال:

- شكرًا لك... سيدي.

فنظر الرجل إلى زوجته، وقال لها:

- اتركينا بمفردنا قليلاً...

فخرجت عهد، وأخذت معها الأطفال الموجودين في كل أنحاء الغرفة... وأغلقت الباب،
وبعدها نظر الرجل إلى عدنان، وقال:

- عدنان مرزوق طيب الأحمد... أستاذ اللغة العربية بجامعة إسطنبول...

...

فزع عدنان من صوت الرجل ولم يصدر أي رد فعل، وشخط إليه بالنظر... ولم يصدر أي رد
فعل آخر... فهو يخاف منه في كل الحالات يخاف أن يروي له قصته وكيف وصل أمام
دكانته، فيرفض مساعدته، ويخاف أن يكون ضمن الجماعة التي أطعمته طعامًا جيدًا
لتبعية أعضاء بشرية...

فنظر الشيخ إلى عين عدنان، وقد فطن الحقيقة كاملة... فتابع الحديث بمكر الشيوخ
وحكمتهم، قائلاً:

- عراقي الجنسية، ولكنه وقع في أيدي المعتدين... لقد أعلنوا اليوم في التلفاز عن العثور
على جثته متفحمة هو وجثة رجل آخر مجهول الهوية، على إحدى الطرق المؤدية لقريتنا،
أردت فقط أن أسألك هل لك علاقة به...

عندها اطمأن قلب عدنان، إلى أن الشيخ لن يعرف هويته، بعد أن أعلنت السلطات مقتله...
ولن يعرف أنه فر من أيدي جماعة مسلحة لا بد أنها تبحث عنه... فنفى معرفته بنفسه...

- لا، لا أعرفه...

ثم اطمأن عدنان وهدأت النظرة في عينيه، مما جعل شكوك الرجل تتأكد، وعرف أنه هو عدنان الأحمد، فويلات الحرب علمته أنه من السهل قتل الهويات... ومن السهل إطلاق أي هوية على جثة متفحمة... ولكنه يفهم أيضًا شعور عدنان بالقلق وخوفه من أن يسلمه الشيخ إلى المعتدين مرة أخرى لكي يضمن سلامة أسرته... فرد الشيخ قائلاً:

- لا بأس أنت هنا آمن على حياتك، وحياة من معك، إلى أن تتعافى...

- أنا عاجز عن شكرك سيدي... لقد أنقذت حياتي، والآن تأمنها...

- يا ولدي... لن أطلب منك رد الجميل بجميل مثله، ولكن اعذرني واسمح لي أن أطلب منك، أن لا تسمح أن يرد جميلي فيك بالسوء...

عندها فهم عدنان مبتغى الرجل، فهو والشيخ يفهمان جيدًا أن من هرب من مسلحين، وقتل رجالهم حتمًا سيأتون للبحث عنه... فرد عدنان عليه قائلاً:

- أعدك بأن لا أسمح بذلك سيدي...

فرد الشيخ في ألم، قائلاً:

- على عيني يا ولدي... ألا أومن لك المأوى أنت ومن معك، لكنهم وجدوا سيارة أولئك الغادرين بالقرب من قريتنا، وقد أتوا إلى هنا واستعادوا السيارة، وحتماً سيعودون للبحث عنك... أنت عراقي مثلي وتفهم أمور الحروب... لكنك آمن إلى أن تستعيد عافيتك، أنا وولدي فداء لك إلى أن تستعيد عافيتك...

- أنت إذن تغدقني بكرمك سيدي...

ثم قام الشيخ من أمام ضيفه مكسور خاطر، والعين... إنها الحرب التي حنت سيوف الفرسان، وأسكتت صليل جيادهم... إنها الحرب التي كسرت عين الجواد أمام ضيفه، وأمسكت لسان الضيف عن الحقيقة أمام من أجاد عليه...

كان عدنان قد أدرك أنه موجود بإحدى القرى الصغيرة على أطراف بغداد بعد يومين من استعادته وعيه... وبمجرد أن تمالك نفسه واستطاع النهوض عن الفراش قبل المدة التي حددها الطبيب بفترة... طلب العون من الشيخ في شيء أخير، هو أن يوفر له الطريق إلى بابل مسقط رأسه... وقد أمّن له الشيخ السفر برفقة أحد التجار الذي كان سيمر ببابل في طريقه... وبعد أن قرر الرحيل خرج من الغرفة مستنداً إلى حامل خشبي يرفع جسده عليه من ناحية أضلعه المكسورة ليساعده على النهوض والمشي، واجتمع أفراد المنزل ليودعوا الغريب حتى الأطفال التفوا حوله ليودعوه... وأنت عهد إليه وطوقت وجهه بيديها، ثم سحبته إليها وطبعت قبلة أم مفجوعة على فقدان ابنها على جبين شبيهه...

ومن بين الحضور يرفع نظره فإذا بفتاة بشعر ذهبي يلمع فوق العباءة السوداء التي تلف جسدها، ويظهر وجه برّاق من خلاله وعين مكسورة إلى الأرض تقترب في خجل ممزوج بالفزع...

فمدت عهد يدها إليها وأمسكت معصمها، ووضعتها في يد عدنان، ودعت لهما أن يصلا لوجهتهما سالمين...

وعندما نزلًا إلى أسفل المنزل كان الشيخ يقف برفقة التاجر يوصيه أن يهتم بهما في الرحلة، ويعطيه أجره...

ومن ثم ركبت شامية السيارة، ووقف الشيخ يودع الغريب... الذي كان يرغب أن يبقى عنده للأبد فيرى وجه ابنه كل يوم... فضمه بين ذراعيه واحتضنه، وقال بينما يعانقه:

- يا عدنان يا ولدي، إذا تحسنت الأمور يوماً ورجعت للعراق غير مطارد، فمر بمنزل عمك الشيخ، فإنه يتوسم في رؤية وجهك السعادة...

عندها عرف عدنان أن الرجل قد فطن إلى حقيقته... ولم يملك للشكر كلمات على ما فعله معه... فقال:

- سأفعل أيها الشيخ الأمين، سأفعل...

ثم شد على معصمه، وركب السيارة متجهاً إلى مسقط رأسه ... ركب عدنان السيارة مغادراً إلى القرية ومتجهاً صوب كنف عمه، وأبناء عمومته، فلا أحد من أقاربه حي سواهم، طوال الطريق لم ينطق بكلمة واحدة، وكذلك الفتاة بقربه، حتى إن التاجر شعر أنه مسافر بمفرده كالعادة ... كان عدنان يفكر فيما سيحدث، وما الذي سيخبره لعمه عن الفتاة التي معه ... وكيف يخبر الفتاة أن والدها لم يعد حياً لينقذها، وكيف يعود إلى تركيا ليعيدها لموطنها ... وكيف قادته الظروف لكل تلك الأحداث بين ليلة وضحاها...

بينما كانت شامية لا تفكر إلا في شيء واحد... كيف لم يأت أبيها لينقذها هي وأمها إلى الآن...

وبعدما انقضى الطريق ووصلا إلى مشارف بابل ... انزلهما السائق من السيارة، وأشار لهما على مكان هاتف في إحدى الدكاكين كما طلب منه عدنان...

فنزل، ومد يده في جيبه وأخرج بعضاً من المال منه ... وأعطاها لصاحب الدكان، واتصل بعلي أحد أبناء عمومته ليأت إليه ويقبله إلى المنزل...

ولكن ابن عمه لم يصدق أنه عدنان فهو يظن أنه قد مات متفحماً على أحد الطرق كما نقلت وسائل الأنباء... لكن عدنان ألح عليه في الحديث ليقنعه أنه ابن عمه، وأنه ما يزال حياً... وبعد مرور ما يقارب الساعتين كان ابن العم قد وصل في سيارته، وانتفض منها متجهاً صوب ابن عمه بمجرد رؤيته، وفرت الدموع من عينيه، فهو حي بعد أن فجعت الأسرة كلها بموته ... مصاب بسوء لكنه حي...

وبعد أن قبّله واطمأن عليه مد يده ليسنده إلى السيارة، ولكنه فوجئ به يمد يده إلى معصم امرأة من خلفه ويأخذها معه نحو السيارة، وفتح لها الباب الخلفي ثم دخلت وأغلق الباب لها...

وفتح باب المقعد الأمامي، وجلس بجوار علي... وبعدها بدأ السير لم يتوقف علي عن الإلحاح في السؤال ما الذي حدث، وكيف نقلت وسائل الإعلام خبر موته ... فاضطر عدنان أن يلفق قصة أخرى كي لا يزيد من قلق العائلة... فقال:

- لقد كنت قادمًا إلى العراق عبر الحدود مع تركيا ... وكان معي رجلان فتعرضنا لهجوم في الطريق ما بين دهوك والموصل، أصبتُ إصابة بالغة ولكني تمكنت من النجاة، بينما أجهزوا على الرجلين الآخرين، وقاموا بحرق جثتيهما...

- لقد قالوا في التلفاز إن مصريًا يدعى محمود كان قد بلغ الشرطة التركية عن اختفائك في العراق ... وأن الشرطة العراقية وجدت جثتك متفحمة على طريق الموصل...

- محمود صديقي...

- ولكن كيف تمكنت من النجاة أنت وزوجتك؟

خرقت الكلمة أذن عدنان، ولم يتحملها فرد مسرعًا دون تفكير:

- زوجتي؟

فنظر علي إلى عدنان باندهاش، وملامح وجهه تتطلب تفسير الحديث... بينما فزع عدنان من سرعة إجابته لو أنه صدق على كلام ابن عمه، وقال إن الفتاة زوجته لنجي من براثن عمه سلطان الذي لن يستطيع الكذب عليه...

وطالت لحظة الصمت، فقال علي:

- إذن من هذه؟

فرد عدنان ببديهية:

- إنها فتاة تركية من أصل عراقي، إحدى تلميذاتي في الصف، وقد كانت مسافرة برفقتي لأقلها لأهلها...

- الآن فهمت ... اه يا ابن عمي أهم شيء هو سلامتك ... لن يصدق عمك عينيه... فهو لم يصدق عندما أخبرته أنك تحدثت إليّ عبر الهاتف.

وبعدها أكملًا الطريق إلى أن وصلنا باب المنزل، من على الباب تصطف النساء في خمورهن يملؤون الأجواء بالزغاريد... ويندفع العم الملهوف إلى ابن أخيه، صوب عدنان بقوة وطوقه بذراعيه إلى حد أنه لم ينتبه إلى الساند الخشبي الذي يتكئ عليه ابن أخيه، فضغط على جروحه بقوة، ولكن عدنان كتم صوت الألم في نفسه...

وأنى أبناء العمومة وأولادهم والكل سعيد بعودة القريب سالمًا للديار...

فتح علي باب السيارة للفتاة، وطلب منها النزول والتفضل إلى داخل المنزل، لكنها لم تستجب له ... فظن أنها تشعر بالحرج فنادى كريمة زوجته لتأخذها إلى داخل المنزل، فاقتربت كريمة بثغريها المتبسمين لكن الفتاة لم تنظر لها حتى ... وحاولت أن تسحبها من يدها فشدت شامية معصمها بقوة وفزع حتى ظنت كريمة أن بها خطب ما...

ولاحظ عدنان أن الفتاة لم تغادر السيارة فذهب بنفسه إلى السيارة، ومد يده لها وأخرجها منها... وإذا بالفتاة تمسك بيده بقوة وتطوق ذراعه بجسدها وتخفي نظرها من الجميع إلى الأرض من شدة الخوف ... فيأخذها عدنان بنفسه إلى الداخل أمام الجميع، فظن الجميع أنه تزوج وأن الزوجة تشعر بالخجل...

وإذا بالأب ينادي علي... ويسأله على انفراد:

- هل تزوج ابن عمك...

- لا إنها إحدى تلميذاته في الصف في تركيا، قد كانت في الطريق لأهلها برفقة عدنان ولكنهم تعرضوا للاعتداء، وهي تشعر بالفزع من وقتها...

فعقد الأب تجاعيد وجهه، وعلم أن في الأمر ريب، فهو يعرف جيداً أن عدنان ولد أخيه قد أغلق العالم على نفسه منذ وفاة زوجته ...

بعدما أدخل عدنان شامية إلى إحدى الغرف المقابلة لبهو المنزل وخرج، فإذا بالنساء تزغرد من حوله ويهنؤنه بالنجاة، والزواج...

فيرفع رجل البيت صوته، ويسكت الجميع للاستماع:

- أعدوا الطعام هيا لا بد أنهما متعبان وجائعان...

فانصرفت كل النساء، وأشار الأب إلى علي بأن يعد أحد الغرف لكي يستريح فيها ابن أخيه... ولم يعلق العم ولا بكلمة واحدة على الفتاة... فقط مد يديه إلى ابن أخيه وسحب منها الساند الخشبي، وسنده بجسده إلى غرفة ليسترخ فيها... وعندما وصلاً ساعده ليسترخ على الفراش، ومن ثم أمره بأن يكشف جرحه ليلقي نظرة عليه... فأمر أحد أبنائه أن يحضروا له الضمادات لكي يعد له غطاء الجرح بنفسه، وأشار إلى مروان الابن الأصغر من علي:

- قل للنساء أن يُدخِلن الطعام للضيقة، وأن يحضرن الطعام لابن أخي...

عندها علم عدنان أن علي أخبر أبيه بما قاله له في السيارة... وبدأ العم يغير لابن أخيه الضمادة في صمت تام، وعدنان ينتظر أن يسأله عمه عن الفتاة، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة عنها... ثم اطمأن سلطان العم إلى أن ابن أخيه قد تناول الطعام، وأن جرحه بخير، وتركه ليرتاح بعدها...

علم عدنان أن الأمور لن تمر بخير في العراق، وأن عمه لن يقبل القصة التي حكاها لعل، وأنه إن سأله بشأن الفتاة فلن يدري ماذا يقول؛ لأنه لا يملك تفسيرًا لعلاقته بها، فعزم أمره أنه في الصباح الباكر سيهااتف صديقه محمود ليؤمن له رحلة لتركيا، ويعيد الفتاة لعمها الذي كان يتحدث بأسى عنها في التلفاز، وينتهي كل شيء ...

بينما خرج سلطان من الغرفة فوجد زوجته، في انتظار أن تخبره أن الفتاة لا تتحدث ولا تنظر لأحد، فربما تشعر بالخوف، وتستأذن منه أن تأتي بها إلى عدنان فتشعر بالأمن، فقال لها إن الفتاة ليست زوجته بعد، إنها خطيبته وقد كانا في طريقهما إلى العراق لعقد القران مع العائلة... فعدلت الزوجة عن طلبها وقالت إنها وضعت لها الطعام في الغرفة، ربما شعرت بالجوع فتأكل منه... وانقضت الليلة الأولى بعد أن أمر سلطان الجميع بالذهاب إلى الفراش...

في الصباح الباكر استيقظ عدنان، وقرر النزول إلى الأسفل ليطلب من محمود أن يؤمن له السفر لتركيا... وعندما نزل من على الدرج وجد عمه جالسًا على الأريكة في بهو المنزل... عندما رآه عمه ينزل الدرج، أشار إليه بيده، فذهب عدنان إليه... وعندما اقترب دعاه عمه للجلوس بجانبه والحديث، فقال سلطان:

- هل نمت جيدًا؟

- نعم، الحمد لله...

- كيف هو جرحك الآن؟

- أنا الآن بخير... أشعر بتحسن.

- اممم، إنه جرح خطير، لا بد أنك مررت بأيام صعبة، منذ متى وأنت مغادر الأراضي التركية؟

- منذ أسبوعين تقريبًا...

- ولكن أخبرني، لماذا عبرت للعراق عبر الحدود، ألا تعلم كم هي خطيرة في هذا الوقت؟

- لم أجد بدًا إلا الذهاب للحدود...

شعر عدنان بالضيق، وهو يعلم أنه لن يستطيع الكذب على عمه... فحكى له القصة كاملة...
وحقيقة الفتاة التي معه... وبعدها انتهى من قول كل شيء أخبره أنه ينوي إعادة الفتاة
لتركيا إلى أهلها هناك... فرد العم قائلاً:

- إذن فالفتاة بلا أب أو أم الآن، وهل تعلم بالأمر؟

- هي تعرف بشأن موت أمها، فقد قالوا إنها أتت للعراق بعدما سمعت بالاعتداء الذي وقع
عليها... لكن لست متأكدًا إن كانت تعلم بشأن أبيها أيضًا...

- ولماذا لا تتحدث؟!

- إنها فتاة مترفة الحال على ما يبدو، من الصعب عليها معايشة كل تلك الظروف، ورؤية
كل تلك الدماء...

- وأنت تنوي العودة بها إلى تركيا بأي هوية؟!

- لا أفهم السؤال، اعذرني؟

- كلاهما ميت الآن في نظر حكومتي البلدين العراق وتركيا، وكلاهما حتمًا لا يملك هوية
تثبت من هو بعد أن مررتما بتلك الظروف، فبأي هوية تنوي العودة لتركيا...

- لا أعرف، علي أن أوصلها إلى زويها في تركيا، وأنهى الأمر...

- سينتهي الأمر هنا...

- اعذرني عمي لا أفهم...

- غدًا ستعقد قرانك على الفتاة وستعيشان معنا، لست مستعدًا لفقدانك كما فقدت أبيك من قبل، والفتاة ليس لها من يأويها الآن، ولا يمكنها العودة لتركيا فهي حتمًا مترقبة، وفي خطر...

- عمي! ما الذي تقوله، كيف هذا؟!

- قضي الأمر، لن تغادر العراق إلا والفتاة زوجتك، وفي الغد عقد القران...

- عمي...

- الفتاة ليست في غرفتها... وجدت باب الغرفة مفتوحًا وهي ليست في الداخل بحثت عنها في البيت كله ولكن لا أثر لها...

صرخت كريمة زوجت علي، فصاح سلطان:

- كيف هذا أين علي، أحضري علي ومروان هيا...

ذهبت كريمة تنادي علي ومروان أبناء سلطان وأبناء عمومة عدنان... ونظر سلطان إلى عدنان وقال:

- إلى أين يمكن أن تكون ذهبت؟!!

فرد عدنان وهو يحاول النهوض من على الأريكة في ألم...

- لا أدري علي البحث عنها، فهي لا تتحدث، وقد تقود نفسها للمشكلات...

- لا تتحرك من مكانك سأخرج أنا وعلي ومروان للبحث عنها، ما يزال جرحك بالغًا...

بينما يتحدثان فإذا بعلي ومروان يهرولان صوب أبيهما، فقال الأب:

- أحضروا السيارة سنذهب للبحث عن الفتاة التي كانت برفقة ابن عمكم بالأمس.

انطلق الأخوان مسرعين إلى السيارات بينما أشار العم إلى ابن أخيه قائلاً:

- لا تخف سنعيدها للمنزل، لا بد أنها لم تبتعد فهي لا تعرف شيئاً في المدينة...

- دعني أرافقكم في البحث، فحتى لو وجدتموها لن تستطيعوا التعامل معها، فهي واقعة

تحت تأثير صدمات عديدة، ولا تثق في أحد غيري الآن...

- حسناً سترافقنا في السيارة ولكن لن تتحرك منها...

- حسناً أعدك لن أفعل...

من ثم استند على عمه إلى أن وصل السيارة فخرج للبحث عن الفتاة، فقال سلطان لعلي الذي كان يتولى القيادة:

- أسرع يا ولد لا بد أنها ابتعدت، فأنا مستيقظ منذ الصباح الباكر، ولم تمر من أمامي، لقد خرجت في الليل حتماً...

وبدأوا يبحثون عن الفتاة التي غادرت المنزل لأنها تشعر بضياح تام، ويخيل إليها من هول ما رأت أنها إن خرجت تمشي في الشوارع ستجد أمها تنتظرها في إحدى الطرق، أو أبيها قادماً بحرسه ليعيدها للقصر... وستجد صديقتها لتمازحها وتمسح عن عينيها مناظر الدماء السائلة...

بينما كان عدنان يجلس في السيارة، ويكاد القلق يفتك بعضه أكثر مما يفتك الألم بضلوعه المكسورة...

ساعات من البحث والسؤال عن غريبة تسير في الطرقات بشعر أصفر ذهبي، ولكن دون جدوى، وانقضى النهار ولا أثر للفتاة، كأنها تبخرت في الهواء...

وبحلول الظلام طلب الأب من ابنه علي ومروان أن يعيداه للمنزل هو وعدنان وأن يعودا للبحث عن الفتاة مرة أخرى...

رفض عدنان الأمر في البداية، وكان مصممًا على النزول من السيارة والبحث عن الفتاة في الطرقات، لكن عمه أحكم لجامه، وعاد به إلى المنزل بينما عاد علي ومروان للبحث عن الفتاة مرة أخرى...

وقضى عدنان النهار بدون طعام وكذلك لم يأكل في الليل من شدة القلق وهو لا يعرف أين الفتاة، وإلى أين ذهبت وهي في هذه الحال...

وبينما هو على حاله إذا بعلي يدخل مندفعًا من الخارج وينحني عند أذني أبيه ويهمس فيها، فيصرخ الأب:

- وأين عثروا عليها...

- لقد أخبرنا الناس أنهم أخذوها من سوق البلدة، وجدوها تائهة وأخذوها معهم...

وعندما سألنا عنهم قالوا إنهم يبيعون الفتيات سبايا، وخدمًا...

فانتفض عدنان من مكانه صارخًا...

- خذني إليهم... سأشتريها بكل ما أملك، سأدفع من أجلها حياتي، فهي بلا قيمة على كل حال...

فرد عليه عمه سلطان بحدة:

- اهدأ يا ولد وتمالك أعصابك...

ثم نظر إلى علي، وقال له:

- اذهب إليهم واعرض عليهم شراء الفتاة، قل لهم إننا سندفع لهم ما يريدونه من مال...

- حاضر يا أبي.

ثم انصرف على وجهته... بينما وقف عدنان لا يفهم شيئًا، فنظر إلى عمه وقال:

- ماذا الذي يحدث، أين الفتاة؟!

- لقد خرجت إلى السوق تائهة تحدق في وجوه الناس، إلى أن وجدوها جماعة تدير بيوت الدعارة، ويبيعون الفتيات، وقد أرسلت علي ليشتري الفتاة...

- لماذا لم تسمح لي بالذهاب معه؟

- لا داعي لأن تطأ أقدام الكثيرين منا تلك الأماكن يكفي علي، سيحسن التصرف لا تقلق...

جلس عدنان على الأريكة يحك يديه ببعضها من شدة القلق الذي أصابه، يحاول أن يجد تفسيرًا لما فعلته شامية، ولكن دون جدوى، ويتعجب كم أن رصيد تلك الفتاة من علامات الاستفهام يزيد يوميًا بعد يوم...

وبعد ساعات من الانتظار المرير إذا بعلي يدخل البيت مرة أخرى فارغ الوفاض، فصرخ الأب:

- أين الفتاة؟ لماذا لم تأتِ بها معك؟

- أعتذر لم أستطع، لقد طلبت المرأة مني طلبًا غريبًا جدًا... قالت إن كنت تريد أن تشتري الفتاة ادفع مهرها، واعقد قرانك بها...

فرد عدنان بتعجب:

- امرأة....

- نعم يا عدنان، فمن يدير تلك الدار امرأة تدعى نصره البغدادي...

فتدخل الأب قائلاً:

- في هذه الحال سيقضي هذه المهمة عدنان، وليس أنت يا علي...

فرد عدنان في غضب:

- لن أتزوج بعد زوجتي...

فرد العم في هدوء، إذن أنت تنوي أن تتركها لرجل آخر، ربما لن يعيدها أبداً لبلادها... وربما يقضي حاجته منها، ويجعلها عبدة له...

فوقف عدنان يتعجب من سرعة وتيرة الأحداث ولا يفهم ما يحدث... كيف لتلك الفتاة أن تقتحم حياته بهذه الطريقة، وما السر الذي يجعله مهتماً بها، ولماذا يظن نفسه متعة دا بحمايتها... فتمالك، أعصابه، وقال...

- لكنه زواج إكراه، فأنا مرغم عليها، وهي مرغمة علي...

فرد العم سلطان:

- وحده الله يعلم ما في القلوب يا ولدي...

بينما همس سلطان في نفسه: ربما لم يكن كلاكما مرغم على الآخر... فلا تفسير لاهتمامك بشأنها، ولا تفسير لاطمئنانها لك دون غيرك... سوى أنه لن يكون زواجاً باطلاً... ربما لم تشعر بوخذه الحب في قلبك بعد من كثرة الصدا فيه بعد كل ما مر به من أسى...

ثم طلب سلطان من ابنه علي أن يعود لنصرة ويخبرها أنه في الصباح سيعود لدفع مهر الفتاة، وعقد قرانها...

وأمر الجميع بالذهاب للفراش، كانت ليلة طويلة ولم تنقض بسهولة على أي أحد، فشامية قلبها مغيب طول الوقت، وعقلها قد أصابه الشتات، لا تدرك أي شيء من حولها، ولا تخرج عن صمتها كأنها قد فارقت الحياة إلى الجحيم...

وأستاذ الجامعة لا يستطيع أن يغمض جفنه ما بين قلقه على شامية الفتاة التي استنجدت به، وابنته التي ستُصدم من خبر زواجه الباطل، وقلبه الذي فجأة أصابه النبض، وها هو ذا ثائرٌ بين ضلوعه ينزف الدماء...

حتى العم لم تغمض له جفن هو الآخر بحكمته كرجل عجوز يعلم جيدًا أن الفتاة لن يكون لظهورها في حياة ابن أخيه وقع خير، لكنه يرى أن القدر جمعهما، ولا يمكن أن يقفا نداءً له...

في صباح اليوم التالي خرج الجميع من غرفته، والتف الأبناء حول الأب، فأمرهما بتزيين إحدى غرف المنزل للعروسين، على أنه عقد قران عادي، كما أخبر زوجته في السابق أن الفتاة خطيبة ابن أخيه، وأنه أتى لعقد قرانه بها حتى لا يثير فضول نساء المنزل ... ثم أخذ ابن أخيه وذهب إلى منزل نصره البغدادية...

عندما دخل بهو المنزل لم يبدو كبيت دعارة عادي أبدًا، ففي البهو تلهو الفتيات الصغار، وتذهب النساء وتجييء، وكأنهن لا يحملن أي عار من وجودهم في مثل هذا المكان... ليس هذا وحسب بل قبل دخول المنزل لاحظ وجود حلقة درس بها الفتيان والفتيات الصغار، ويمسكن بأقلام وأوراق ويتوسطهم معلم بلحية... تعجب أي علم قد يتلقاه هؤلاء في مثل هذا المكان... وأي كوميديا سوداء يعيشها هؤلاء الناس...

وعندما دخلًا قادتهم إحدى الفتيات الصغيرات إلى مجلس نصره البغدادي، فإذا بها امرأة شابة لا يظهر عليها أي من ملامح الغاويات، ترتدي ثوبًا نسائيًا بسيطًا جدًا لا يُظهر شيئًا من

مفاتها، وتبدو في غاية البساطة، مما أثار الدهول في نفس عدنان، وبدى عليه العجب لما يرى أمامه... فبدأت حديثها بدون سلام:

- لقد وكلتني العروس... من المشتري ومن الموكل...

فرد عدنان عليها:

- ما الذي قد يعود عليك من عقد هذا القران...

- إنه القانون هنا يا سيد... نحن لا نبيع الفتيات نحن نبيع الزوجات...

- إنها فتاة صغيرة، أنا أكبرها بخمسة عشرة عامًا... دعينا نأخذها، ولك ما أردت من مال...

نظرت إليه المرأة في عينيه، ونادت بصوت مرتفع...

- فتاة شقراء، لا تتكلم... هل من مشتري آخر..

فثار غضب عدنان ورد قائلاً:

- هي ليست سلعة...

- لا تضيع وقتي، هل ستشتري أم أدخل من بعدك...

- إن...

عندها قطع صوت عدنان يد عمه وهو يشد على معصمه... وتدخل قائلاً:

- لقد جئنا لدفع المهر وعقد القران، هو العريس، وأنا موكله... دعينا ننهي الأمر ونأخذ الفتاة...

فرمقت سلطان بنظرة ساخرة، وكأنها تسخر من الموقف كله... ثم نادى بصوت مرتفع:

- أحضروا الفتاة الشقراء...

وبعد قليل دخلت فتاتان تمسكان شامية من كل جانب ... ووضعوها تجلس أمام الجميع، دون أي استجابة لما يحدث حولها...

ومن ثم وضع سلطان المال الذي طلبته نصره أمامها... فمدت إحدى الفتيات يدها وأخذت المال وانصرفت، ثم دخل رجل آخر بلحية ويحمل في يده صحفًا، هي صحف الزواج، وأتم عقد قران عدنان على الفتاة التي لا يعرف أي قدر ألقى بها في طريقه...

وبعد انتهاء المراسم، أشارت نصره بيدها قائلة:

- خذوها وانهبوا..

كانت نصره تدير منزلًا للكوميديا الساخرة، وليس الدعارة، فإن ويلات الحرب التي أطاحت بكل عائلتها، وشردتها من منزلها، وجعلت منها إحدى سبايا رجل غني بعد أن وجدها في الشارع بلا مأوى، جعلها تخرع منطقها الخاص في الحياة، الحقيقة أنها كانت تدير بيتًا للدعارة، وتبيع الفتيات لكنها مؤمنة أنها تحميهم من عالم الخارج، فكلما وقعت بين يديها فتاة، قيمتها طبقًا لسنها، إن كانت صغيرة تركتها تلهو وتترعرع، وتتعلم تحت كنفها، وإن كانت شابة باعتهما زوجها لأحد الأغنياء.

ولا ترى فيما تفعله، إلا أنها تقوم بعمل بطولي في بلد الدمار... والغريب والمثير للسخرية بالنسبة إليها أن أولئك الذين يهدمون مساجد السنة أو الشيعة والأضرحة أو الكنائس، لم يفكروا في هدم منزلها ...

قام عدنان من مكانه، بعد أن انتهى عقد القران ومد يده لشامية التي لم تكن منتبهة لما حولها، فلم تبدي أي رد فعل تجاه مد يده لها... فأمسك بمعصم يدها، ودعاها للنهوض... ومشيت خلفه، وهو يشدها من معصم يدها... ويمشي في الطريق لا يعرف إلى أين الخطوة القادمة، وأي مفاجآت تخبئها الأيام بعد بشأن الفتاة...

وبمجرد وصوله منزل عمه، إذا بزغاريد النساء تنطلق والطبل والتصفيق، وكان عدنان حينها يرى مراسم الأفراح في ظروف العزاء للمرة الأولى... وخرج مروان ابن عمه، وهو يحمل سلاحًا آليًا، وبدأ يطلق الرصاص الحي في الهواء... فقط صوت الرصاص جعل الفتاة تفيق من غفلتها، فإذا بها تفزع من ثباتها، وتمسك بعدنان بشدة، وتخفي وجهها في ظهره، وتنزل دمعاتها المتسارعة على قميصه.

حتى بللته... فيرى العم منظر الفزع على الفتاة، فيشير للجميع:

- توقفوا... توقفوا، أوقف طلق النار يا ولد... هيا ليهدأ الجميع ويعودوا للداخل.

فعمت لحظة السكون على الجميع ودخلوا إلى المنزل بينما اقتربت زوجة العم، وأمست بيد عدنان الذي بدا عليه هو الآخر أنه غير عابئ بأي شيء من حوله وكأن غيبوبة السكون كانت قد أصابته هو الآخر... فسحبت العممة معصمه إلى الداخل، وهي تهدد بيديها على كتفه وتواسيه بعدما فهمت الأمر كله، ثم قادتاهما إلى إحدى غرف المنزل، التي كان بابها مزخرقًا بالورود النضرة... ولكنها كانت تبدو كالأشواك المسممة لعدنان ...

وأدخلتهما بنفسها، ومن ثم خرجت من الغرفة... وعادت إلى زوجها، وهي تبكي..

وبمجرد أن أغلق باب الغرفة تركت شامية يد عدنان، واتجهت إلى الركن المواجه، وجلست فيه تلملم فزعها في ثيابها كما تفعل في كل مرة... ولكن هذه المرة وقف عدنان حائرًا لا يعرف كيف يواسيها، وماذا قد تظن به لو دعاها لأن تفارق الركن الذي تمكث فيه إلى الفراش لترتاح ... شعر هو الآخر أنه بحاجة أكثر منها ليللمم الفزع في قلبه، فإذا به يجلس على الأرض ويستند إلى الفراش في الجهة غير المقابلة للفتاة ويضم قدمه بيديه، ويحني رأسه في سكون تام....

وانقضت الليلة في سكون وصمت الألم، وموسيقى الفزع الوجداني، وكأن كل منهما يستسلم تمامًا لصراع حرب دامية داخل قلبه، لا الفتاة تفقه ما يحدث حولها، ولا عدنان

يفقه ما تورط فيه، وكل منهما لا يرى لشروق الشمس بذرة نور، وكل منهما لا يرى للغد ملامح...

وفي الصباح أفاق عدنان من شدة الألم في ضلوعه الذي قد زاده النوم على الأرض الصلبة طوال الليل... فقام وهو يضع يده على مكان جرحه، ويتلوى في صمت من الألم...

لم يكن الألم ألم آثار كسر الضلوع فقط، بل كان الألم في كل شيء في التفكير، والنظر ودقات القلب، وحتى شم الهواء في الغرفة التي كانت تشبه زنزانة التعذيب له... فلا يدري أي عذر قد يبقيه برفقة فتاة تصغره بأكثر من خمسة عشر عامًا في غرفة واحدة، كان شعوره بالخجل من الموقف الذي وضع فيه، يفوق شعوره بالسوء أنه عقد قرانه بعد موت زوجته، حتى وإن كان يعده غير شرعي، إلا أن من حوله يصدقون به، وأي عذر قد يخبره لأهلها إن قال إنه تزوجها، وأي زواج هذا وكلاهما مغيب، وكلاهما كاره للزيجة... كل تلك الأفكار جعلت الألم الجسدي يهون بكثير أمام ألم استنشاق هواء هذه الغرفة، فأسرع عدنان يقف على قدميه نحو الباب ويغادر مسرعًا، حتى إنه لم ينتبه للفتاة التي تكومت على نفسها، ونامت في ركن الغرفة...

فخرج من الباب مسرعًا، محاولا العثور على أي هاتف ليطلب من صديقه العون، فوجد علي يجلس في بهو المنزل، وعندما رآه علي قادمًا هبَّ من مكانه ليساعده على الوقوف، والسير بعد أن اشتد به الألم... فطلب منه عدنان أن يعطيه هاتفه ليتصل بصديقه... وأعطاه علي الهاتف، وحاول عدنان الاتصال بصديقه، ولكن دون جدوى فهو لا يستطيع أن يجمع أرقام هاتفه بشكل صحيح، ولا يستطيع تذكر الرقم كاملاً...

بينما يقف عدنان في حوش البيت يحاول تذكر رقم محمود، إذا بعمه يضع يده على كتفه... ويتنهد قائلاً:

- اه، يا ابن أخي لقد عانيت الأمرين...

فانتبه عدنان لحديث عمه، وأحس في صوته ألم الرجال الذي يفتك بالقلوب... وأكمل العم حديثه قائلاً:

- لا أريدك أن تظن أنني أردت إرغامك على الزواج من الفتاة، لقد أردت لك البقاء بقربي ... أنت آخر قطعة من أخي وأشم ريحة الطيب فيك ... وأنا شيخ كبير ولا أتحمل أن أفجع بموتك، أردت إبقائك بقربي، ولكن بعد ما حدث بالأمس وما رأيته من ألم في عينك، لم أعد واثقاً من أن ذلك الزواج سيحقق ذلك بالفعل ... كنت أظن إنه إذا زففتك لإحدى النساء سيزول همك ... ولكني رأيت ألمك قد زاد... ولا أدري ما أفعل لأعيد إليك ابتسامتك، أو على الأقل أنتزعك من دوامة الغياب عمًا حولك، أشعر بالعجز كأني أريد أن أنقذك من برائن الألم ولا أستطيع...

يذكر عدنان تلك الكلمات، ونبرة الصوت تلك جيداً... فلطالما كان عمه يحاول أن يجعله ينسى ما مر به من أسى ... ولكن عدنان الذي لم يعد حتى يفقه حتى كيف يطمئن أحد على حاله ... رد على عمه بإجابة لا تطمئن قلقه على الإطلاق بل تزيده:

- أريد السفر لتركيا لأسلم الفتاة لأهلها وأنهى هذا كله...

- لكنك الآن أهلها، ألسنت زوجها...

- إنه حتماً زواج باطل... وإن لم يكن سأطلقها، وأنهى تلك المهزلة...

- لماذا تراها مهزلة، ليس للفتاة أحد سواك الآن لا تتركها...

- هناك في تركيا لها عم كان يبدو حزيناً جداً لفقدانها...

فصمت العم قليلاً، ثم أشار لعدنان بالجلوس بجواره على أريكة في حوش المنزل أمام نافورة مياه صغيرة تضخ ماء الصباح وتفوح رائحة الزهور من حولها ممتزجة مع قطرات الندى ... ثم قال:

- يا ولدي، إن كان للفتاة مشترٍ، فلما بيعت؟

- ماذا تقصد...

- هلا أخبرتني لماذا اتصلوا بك... لماذا لم يتصلوا بعمها... أو بأي أحد آخر غيره من معارفها...

- اتصلوا برقم صديقي، لأن هاتفي كان معها... ولأنني اتصلت به من عند صديقي فاستغاث بي وكانت تصرخ أبي، فظنوا أنني والدها...

- ومتى فعلوا؟

- بعد يومين من اختفائها تقريبًا...

- أتظن أنهم لم يحاولوا الاتصال بأحد غير آخر رقم حدثته... ألم يكن معها هاتفها، أليس على هاتفها رقم كل عائلتها بمن فيهم عمها الذي تتحدث عنه... اسمع يا ولدي أنا شيخ عجوز، وأردت أن أخبرك فقط أن الفتاة لم يعد لها أحد سواك، وإن كنت تهتم لأمرها... فاعلم أنه لا يمكنك أن تذهب بها لتركيا، فهي حتمًا ستكون في خطر هناك... ولكن دعني أخبرك يا ابن أخي أنني سأدعم قرارك مهما كان، إن كنت ترغب في البقاء فهو بيتك... وإن كنت ترغب في الرحيل، فلا ترهق نفسك بمحاولة تذكر رقم صديقك، سأؤمن لك ذلك...

- كيف عرفت أنني أحاول الاتصال بصديق لي، ليؤمن لي الذهاب لتركيا...

- أخبرني علي... لا داعي للقلق يا عدنان... أعتقد أنه عليك أن تولي اهتمامًا أكثر للفتاة الآن، لقد تحملت عبء حمايتها، وقد أصبحت ديتًا عليك...

- نعم...

ومن ثم انصرف العم، وترك عدنان حائرًا في حديثه، ويعيد على نفسه نفس السؤال، ما الذي قد يدفعهم للاتصال برقم محمود، إن كان معهم هاتف الفتاة... لم يكن يعلم أن كرم قد أخذ هاتف الفتاة حتى لا يستطيع مخطفي الحدود الاتصال بأحد، ولم يكن يعلم أن بحوزتها هاتف آخر...

وبينما يقف في مكانه على حاله، فإذا بزوجة عمه تأتي إليه، وتسأله بشأن الفتاة:

- كيف هي الآن؟

- لا أعرف لقد تركت الغرفة منذ الصباح الباكر...

- حسنًا، أعددت الطعام، وهي لا تأكل بسهولة فما رأيك أن تأخذه أنت إليها، فهي تطمئن لك فقط.

- حسنًا، سأفعل...

وفي الداخل أعطته زوجة عمه صينية مليئة بالطعام... فذهب بها لشامية، وعندما دخل الغرفة كانت قد أفاقت من ثباتها، ولكنها لم تغادر الأرض حيث كانت تجلس، فقط تكومت في مكانها تنطوق ساقها بكتلتا ذراعيها...

فاقترب عدنان من مكانها حيث كانت تجلس، ووضع الطعام على الأرض بجانبه، وبدأ يبحث عن أي كلمات تساعد في إخراجها من حالة الخوف والفرع... ولكن من أين له أن يأتي بكلمات وكيف لبنك الأحزان أن يصرف كلمات الفرح...

ولكن كان عليه قتل كل المشاعر المتضاربة فيه ليخفف قليلاً عن الفتاة التي بدأ يشعر أن حتى حمايتها من شعور الخوف واجبه ... فقال:

- إذن شامية... هل قصدتي بالفعل حديثك عندما أخبرتني أنك استمتعتي بصفي ذلك اليوم....

...-

- أشك في ذلك، فأنا لا أستمتع به فكيف تفعلون؟!

...-

لم يصدر عن الفتاة أي رد سوى أصابع يدها التي بدأت تحركها حول بعضها وهي مشبوبة حول ساقها... فنظر عدنان إليها، وعلم أنها قد زاد قلقها، خاصة أنها ما تزال تخفي وجهها في الجهة المقابلة له، تنظر للحائط ولا تنظر إليه... ففكر في قول شيء يجعلها تطمئن:

- قريباً ستعودين لتركيا، لا داعي للقلق بشأن ذلك... قريباً سينتهي كل هذا الكابوس، وهناك سيهتم أهلك بك...

عندها التفتت شامية إلى مصدر الصوت ونظرت لعدنان في عينيه... وكأنها تتوسله أن يؤكد حديثه... فقال:

- نعم، قريباً جداً سنغادر أرض العراق... وستصلين لمنزلك...

واستدار يجذب الطعام إليه ليقدمه لها، وبينما يستدير حدث ما لم يكن يتوقعه، ولم يظن أنه قد يحدث... إذا به يسمع صوتها فقد خرجت عن صمتها... تتحدث بصوت يكاد يكون غير موجود ومختفٍ، وذلك لطول المدة التي قضتها في الصمت:

- لماذا... أتيت...

لم يكن الصوت وحده هو من داهم عدنان، بل إن السؤال أيضًا جعل قلبه ينتفض في مكانه... إلى حد أنه لم يملك الرد في لحظتها، ولم يملك لنفسه أن يعيد النظر إليها... فقط ظل ساكنًا ممسكًا بالطعام في يده... وبعد ثوانٍ معدودة حاول فيها إعادة هيكلة كل تفكيره ليرد على سؤالها، استدار إليها ورد قائلاً:

- لأنك استغثت بي...

-... لم أفعل، لم أقصدك... كان طلق النار قويًا، وعندما أضاء هاتف في يدي ظننت أنه والدي، فكنت أناديه...

التفت عدنان إلى الفتاة... وبدى له أنها قد استعادت جزءًا كبيرًا من طاقتها، وتذكر ما حدث، فرد قائلاً:

- كنت أنا على الطرف الآخر من الهاتف... لي ابنة أنا أيضًا، وخيل إليّ للحظة أنها من تستغيث، ربما لهذا السبب لم أفكر كثيرًا عندما طلبوا فديتك، انطلقت بسيارتي نحو الحدود، وبالطبع تورطت أنا أيضًا لأنني لم أملك المال الكافي...

- لماذا لم يأت أبي؟

عندها علم عدنان أن الفتاة لم تعلم بشأن ما حدث لأبيها... ولم يستطع قول كلمة واحدة، فبماذا يخبرها... في وسط تلك الظروف... فقال:

- أنا لا أعرف بشأن أبيك... لكنني واثق أنه عندما نصل لتركيا ستجدين تفسيرًا لكل أسئلتك...

- هل مات هو أيضًا؟

نظر عدنان للفتاة وإلى نظرة الثبات في عينيها التي تثير الفزع في قلبه، وكأنه هو من يحيا
واقعها... وقال:

- ما الذي يدفعك لقول هذا... لا بد أنه بخير، ولا ينقصه سوى الاطمئنان عليك...

الآن تناولي بعض الطعام...

وقرب الطعام إليها، ونهض من على الأرض... وأكمل حديثه بينما يستدير للخروج:

-... ومن فضلك انهضي من على الأرض التي لا تفارقيها... وأرجوك، لا تغادري المنزل مرة
أخرى بمفردك...

واستدار للخروج... ولكن أوقفه صوتها...

- أريد أن أتحدث إلى أبي... أحفظ رقم هاتفه...

عندها صعق عدنان فأى حجة قد يملكها الآن... ولم يملك ردًا عليها، ولكن كان عليه أن يجد
الرد، فنظر حوله فإذا بمكتب خشبي صغير عليه مجموعة ورق وقلم... فأحضره إليها ومد
لها الورق والقلم في إشارة منه لها أن تكتب رقم أبيها...

فنظرت إليه، وإلى نظرة القلق والخوف في عينيه، وفكت يديها عن ساقبيها، ومدتهما
وأخذت الورقة والقلم... وكتبت الرقم... ثم مدتهما إلى عدنان مرة أخرى.

فأخذ منها الورقة، وقال إنه سيحاول الاتصال بأبيها ليخبره بمكانها... ومن ثم انصرف من
الغرفة مسرعًا...

وتركها خلفه هي والطعام الذي لم تتناول منه شيئًا، ظن أنه سيجعلها تطمئن لكنها داهمتها
بالفزع، فالآن ماذا عساه يقول وكيف عساه يخبرها الحقيقة؟!!

وذهب إلى عمه يخبره ما حدث وأن الفتاة تريد الاتصال بأبيها... فأشار عليه أن يراوغها إن تحدثت في الموضوع مرة أخرى، ويخبرها أن رقم الهاتف غير صحيح... وأنها ربما من الصدمة لا تستطيع تذكره جيدًا... وأن يطمئنها بأنهما سيرحلان لتركيا في القريب العاجل...

وبالفعل هذا ما أخبرها إياه عندما عاودت السؤال عن أبيها... وكلما طمأنها بالسفر لبلادها كانت تتحسن حالها، فإذا بها تفارق الأرض وتمضي النهار في الجلوس على الفراش، وتنام عليه في الليل، بينما ينام عدنان على الأريكة المقابلة، كان عدنان وكل من في المنزل حريصين على راحة الفتاة... وكانت الأطفال قد اعتادت الذهاب لغرفتها، وإمضاء الوقت معها... ومن بينهم حنين الابنة الصغرى لمروان... كانت تقضي كثيرًا من الوقت برفقة شامية على الرغم من ندره حديثها إليها، إلا أن حنين كانت تحب البقاء معها... ومضت الأيام على هذا الحال، نادرًا ما تتكلم، وتأكل في غرفتها، ولا تفارقها، وتمضي معظم الوقت مع حنين الصغيرة، ولا تتحدث لأحد، وفي الليل يدخل عدنان فينام على الأريكة، وفي الصباح الباكر يغادر الغرفة قبل أن تفيق من نومها...

وبعد مرور خمسة أيام من وعد عمه له أنه سيؤمن له السفر لتركيا.. إذا بعلي يأتي إليه، ويخبره أن عمه يريد، فذهب عدنان إلى عمه، الذي عندما رآه دعاه للجلوس بقربه... وقال:

- لقد وعدتك يا بني أنني سأؤمن لك السفر لتركيا، لكن هناك مشكلة كبيرة الآن؛ إنه لم يعد بإمكانك ذلك؛ لأنك الآن ميت في سجلات الحكومة العراقية، والتركية أيضًا، وكذلك الفتاة..

- أنا لا أفهم كيف يظنون أنني ميت، وأنا حي أرزق...

- لقد قلت إنك أطلقت الرصاص على اثنين من المختطفين، وتركت جثثهم على الطريق...

لا بد أن جماعتهم قد أشعلت النيران فيهم لإخفاء هويتهم، فهم لا يحبون الإعلان عن خسائر في صفوفهم... وعندما أبلغ صديقك عن اختفائك عبر الحدود فكان من الضروري الرد على قضيته، وأي رد قد يكون أسهل من إنساب هويتك لإحدى الجثث المحروقة... فهم يعرفون جيدًا أنك لا يمكن أن تنجو من تلك المنطقة على كل حال...

- حسنًا، ماذا الآن؟!

- الآن قد التأمّت جروح ضلوعك، وأصبحت جاهزًا للرحيل الذي تتوق إليه... بعد أسبوع من الآن ستسافر عبر البر إلى مدينة الوليد، على الحدود السورية العراقية، وفي الجانب الآخر ستجد سيارة تنتظرك على الحدود يقودها أحد أقارب الشيخ محمد السوري إنه من معارفي، وصديقي، وستمضي في بيته يومًا واحدًا، وبعدها سيأخذك إلى ميناء اللازقية على السواحل السورية، ومن هناك ستذهب إلى إيطاليا، ومنها إلى إنجلترا، وفي تلك الأثناء سيؤمن لك أحد الرجال جوازات السفر إلى تركيا كسائح أوروبي برفقة زوجته، وإلى حين ذلك ستمكث في منزل "كاثرين" ... إنها الطريقة الوحيدة لدخول تركيا في أمان، ومن هناك يمكنك أن تقرر إن كنت تريد أن تخبر الشرطة التركية بكل ما حدث وتستعيد هويتك، أو تعود للعراق بنفس الطريقة وأن تذهب لإنجلترا وتأتي بابنتك لتعيش معنا في سلام، أو تبقى في تركيا، وابنتك في لندن وكلاكما مشتتين بعيدًا عني... لك الخيار يا ابن أخي... قال العم كلماته وانصرف من أمام ابن أخيه... وتركه خلفه حائرًا في القرار كيف يعرض حياة الفتاة لكل تلك المخاطر، وكيف يذهب بها إلى ابنته، وكيف يقدمها، وكيف يتصرف، وأي حل بديل قد يملكه...

وبينا هو على حاله إذا بابنة ابن عمه حنين تأتي إليه... وتقول إن شامية قد غادرت الغرفة إلى فناء المنزل، فظن أنها قد تغادر المنزل مرة أخرى، فانتفض من مكانه مسرعًا نحو الفناء، فإذا بحورية جميلة تجلس إلى نافورة المياه ويتطاير شعرها الذهبي على وجهها، ومن شدة بريقه تحت أشعة الشمس يحيل بين جمالها وبين نظرات العيون...

وقف عدنان من مكانه ينظر للفتاة وهي لأول مرة خارج غرفتها، تجلس إلى النافورة وتلاعب الماء بيدها، في ثوبها العراقي الواسع الذي يزيد من جمالها الأضعاف...

ولكن كل ذلك الجمال يزول بنظرة واحدة من عينيها الشامية المليئة بالحزن، ولا تنفك تطلق سهامها لكل ما تنظر إليه... نظرة واحدة من عينيها إليه أعادته إلى أصل مشاعره...

أعادته إلى الخوف والفرع بشأن أمنها...

اقترب عدنان من النافورة والحورية الجالسة على طرفها... وقال:

- لقد تحسنت أمورك كثيرًا... بإمكانك أن تجوبي المكان قدر ما شئت...

سمعت الفتاة كلماته بينما كانت تنظر إليه بجبين مقطب وعين تكاد تكون مفتوحة بفعل الشمس التي تؤذيها، ولم تبد اهتمامًا، فقط عاودت النظر إلى المياه مرة أخرى وعاودت التلاعب بها... وبعد قليل من الصمت سألته:

- متى نعود؟

فأخذ نفس عميقًا، وقال:

- الأسبوع المقبل...

عندها عاودت النظر إليه وبدأت مهتمة بحديثه أكثر من ذي قبل، فأكمل عدنان حديثه:

- الأسبوع القادم، سنبدأ رحلة طويلة إلى تركيا...

- رحلة طويلة!!

- نعم... لن نسافر لتركيا مباشرة...

فنظرت إليه، ومن ثم عاودت النظر للماء... وتوقع عدنان أنها ستسأل عن الرحلة لكنها لم تفعل، كمن لا يعبأ للحياة، لقد كانت شامية مستسلمة للأحداث إلى حد أنها لا تعني بمعرفة تفاصيلها...

وبعد السكون جلس عدنان إلى الأريكة المقابلة للنافورة أمامها ينظر إليها وهي تهيم في كل تفاصيل قطرات الماء، كما كان هو يهيم في كل تفاصيل بحيرة بستان أتاتورك...

ومن ثم خرجت من صمتها ثانية:

- لماذا تنسى مقتنياتك على مقاعد أتاتورك... لو لم تكن رجالاً كثير النسيان لما قادك القدر إلى هنا...

عرف عدنان حينها أنها هي من وجد مجلد الرواية وهي أيضاً من وجد الهاتف، بعد أن نسيهم على مقاعد أتاتورك... فرد قائلاً:

- كان قدري أن أصل لتلك النقطة، ولم يكن شيء ليحول دون ذلك... وكان قدرك أن تعثري في كل مرة على مقتنياتي وما كان شيء ليحول دون ذلك...

...-

- لم أفهم سبب الشكر في الورقة التي تركتها على المجلد...

فنظرت إليه، وابتسم ثغرها ابتسامة طفيفة، لكنها كانت كفيلة لتشعل قلبه فرحاً... لم يفهم سببه، ربما لأنها الإشارة الأولى إلى أنه قد لبي نداء الاستغاثة كعربي مخلوق من طين الشهامة... إلى أن بينت الفتاة سر تلك الابتسامة الغريبة:

- على إنقاذك حياتي...

لم يفهم عدنان شيئاً مما قالته... فبدت على وجهه كل ملامح الاندهاش، هل شكرتني على إنقاذها مقدماً... فتبسم هو الآخر وقال:

- اعذريني، لم أفهم...

... لا تذكر، وليس لا تفهم...

...-

- كان قدرتي أيضًا أن أكون نفس الفتاة التي أنقذتها من اللص، في تلك الليلة خارج المطعم في إسطنبول... أردت شكرك، يوم أخبرتك أنني استمتعت بدرسك... لكنك لم تعرفني فعدلت عن ذلك...

- الآن، أذكر عندما تركت اللص من يدي كنت خلفي تمامًا، وأعطيتني حاملة مفاتيحي الخشبية...

- وعرفت أنك صاحب المجلد من الاسم المحفور عليها فقد كان نفسه هو الاسم المكتوب خلف الصورة في المجلد... سارة، من هي سارة تلك؟!...

مجرد سماع السؤال، كان كافيًا ليغير كل ملامح الرجل إلى الحزن العميق... ونظرت شامية إليه... وكل ملامح وجهه تتغير... ومن ثم نهض من مكانه مغادرًا المكان، بينما بقيت هي تنظر إليه وهو يغادر من أمامها ويختفي كما كان يفعل دائمًا في إسطنبول... وعندما دخل المنزل واختفى عاودت النظر في حزن إلى المياه...

بينما عاد عدنان إلى الغرفة، وجلس على الفراش يعيد طقوسه الحياتية ورهبانيتها في محيط أحزان رحيل زوجته... واستسلم للحزن والتفكير بكل ما مر به منذ أن تركته، وفتكت به الآلام حتى استسلم للدموع، ولم تكن الدموع وحدها من داهمه... إذ بشامية تعود للغرفة فجأة، دون علم منها أنه في الداخل، لتراه غارقًا بين عبراته، وكرجل شرقي هب عدنان من مكانه، وأدار وجهه، ومد يده إلى وجهه يزيل العبرات عنه، واستدار فجأة مغادرًا الغرفة بسرعة فخبط كتفها بشدة بقوة جسده، ولم يلتفت خلفه...

بينما شعرت شامية بالسوء من كل ما حدث، وأحست بالذنب أنها لم تحسن رد الجميل للرجل في كل مرة توقعه في المشكلات، وآخرها أن أثارت في قلبه الأحزان... ليس هذا وحسب بل إنها أيضًا قامت بتعريته من رداء قوته عندما كشفت ضعفه أمام عينيها ورأت دموعه...

بينما خرج عدنان من الغرفة متجهاً لخارج المنزل مندفعاً تقوده قدمه لهلاكه... خطوات سريعه نحو قبر الأحلام، والأمنيات نحو مقبرة حياته التي فر منها طيلة تلك السنين، نحو أطلال زوجته ورائحتها التي تفوح في المكان نحو المنزل الذي شهد عصر حياته... نحو منزله الذي عاش فيه مع زوجته الراحلة...

لم يكن المنزل ببعيد عن منزل عمه... وعندما وصل إلى بوابته الصغيرة، فجأة أصيبت قدماه التي كانت تغالبان الوقت في السير بالشلل التام... وقف أمام الباب لا يعرف للخلاص طريقاً، فلا يقدر أن يعود من حيث جاء، ولا يقدر أن يخطو خطوة واحدة إلى الداخل... ولا يقدر أن يمنع شوقه لأطلال حياته فيفتح الباب الذي أصابت متاريسه الصدا ويخطو خطوة واحدة للأمام، خطوة واحدة.

فقط... وقف ينظر للباب، ومن ثم نالت من رأسه الخيالات، فيرى زوجته، وهي تقف عند الباب بتلك الابتسامة الرائعة في كل مرة يعود إليها في البيت... ومن خلفها تركض ابنته زهرة وتخرج من وراء رداء أمها عبر الباب مسرعة إليه، لتضمه...

فيمد يديه وينحني بركبتيه على الأرض ليحتضنها، وفجأة يفيق على سراب... فلا يكتفي ويعود أدراجه، بل يكمل الطريق نحو الداخل... ويمد يده ممسكاً بمقبض الباب الذي لم يحتج إلى بذل مجهود لفتحه، فقد أصابه الصدا إلى أن فسدت متاريسه... إلى المنزل المتروك بين الأتربة، وأغطية الأساس، ولكنه يرى كل لحظة قضاها مع زوجته فيه، كأنها تمر أمام عينيه... ويسمع صوت ضحكتها المدوية في الأرجاء... ويشم ريحها الطيب، ويشعر لمسة يدها الدافئة... إلى أن تهاوى وسقط على الأرض مستنداً على أطرافه الأربعة يديه وركبتيه... وتفتك به الدموع وينهار في البكاء كطفل صغير فقد كل أسرته في طوفان... إلى أن استسلم للانهيال التام وسقط بكل جسده على الأرض مستلقياً على ظهره... وراح ينظر لسقف المنزل الذي آواه وأوى سعادته، ونبض حياته...

بينما كانت شامية هي الأخرى في غرفة منزل عمه، تغالب العبرات الهاربة... من كل شيء... فلا تشعر بشيء من حولها، ولا تدري سوى أن الرجل الوحيد الذي أنقذها ردت إليه الجميل

بأسوأ ما يكون... وشعرت بحزن في قلبها يكاد يفوق ذلك الحزن الذي شعرت به عندما علمت بموت أمها... فقط تتمنى لو أن الوقت يعود للوراء، فلا تنطق ذلك الاسم ولا تسأل ذلك السؤال...

وعندما بدأ الظلام يخيم على المكان كان عدنان قد استعاد قوته، ونهض من مكانه مسرعًا مغالبًا كل شيء... وخرج من البيت بسرعة، وسحب المقبس خلفه فأغلق الباب، وأغلق البوابة وهو يخطو آخر خطواته على أرض منزله...

وراح يبتعد بسرعة عن المنزل، وكأنه يفر منه ثانية... إلى أن وصل غرفته في منزل عمه، ودخل بسرعة وأغلق الباب من خلفه... فإذا بالفتاة هي الأخرى تجلس على الفراش بين عبراتها التي تغطي وجهها الأبيض...

ولكنها لم تهرب من النظر إليه... بل ظلت تنظر لوجهه المضطرب... وكأنها تستمحيه عذرًا لما فعلت... فجلس على الفراش بالقرب منها، ومد يده إلى وجهها يزيل عنه العبرات... وبينما يفعل إذا به يستسلم للعبرات مرة أخرى... كان يريد أن يواسيها، فهو يعرف أنها أصبحت مثله تمامًا وحيدة في الحياة، وكأنه يتوسم مواساة روحه في مسح دموعها... ولكن عندما انهار في البكاء هو الآخر نهض من على الفراش، واستقل على الأريكة، وأخفى وجهه عنها...

واستلقت هي الأخرى على فراشها... وكل منهما غارق بين عبراته...

وانقضت ليلة أخرى طويلة مليئة بالألم، كتلك التي يقضيها الاثنان منذ أن التقيا...

وفي الصباح التالي لتلك الليلة... استفاقت الفتاة من النوم فلم تجده في الغرفة كالعادة، فقامت تنظر من النافذة، فإذا به يجلس إلى نافورة المياه في الأسفل... فوقفت تسأل نفسها: هل أنزل إليه لأعتذر إليه أم لا؟... وحسنت أمرها وخرجت من باب الغرفة لتنزل له، فإذا بزوجة علي تقابلها خارج الغرفة، وتبسمت لها كتعبير عن سعادتها بمغادرة الغرفة

بمفردها حتى دون الطفلة حنين... ثم ألقى عليها تحية الصباح، فردت شامية بصوت متردد ممزوج بكل ألوان الخجل:

- صباح الخير...

ثم انطلقت نحو الأسفل إلى نافورة المياه، كانت تندفع بقوة وكأنها تعلم كل حرف ستنتطق به جيدًا... إلى أن وصلت إلى الرجل، فانعقد لسانها فقط ووقفت تنظر إليه...

فقام عدنان من مكانه، وأشار لها بالجلوس على حافة النافورة كما كانت تفعل بالأمس، فقالت:

- شكرًا لك سأجلس على تلك الأريكة هناك...

وأشارت بيدها إلى الأريكة، ثم ذهبت لتجلس عليها في المقابل منه... وعاود عدنان الجلوس إلى النافورة... وشعر أنها أتت إليه بسبب ما حدث بالأمس... فحاول الهروب من الحديث عما حدث، قائلاً:

- هذه النافورة صغيرة جدًا، لا تشبه تلك الموجودة في مدخل أتاتورك... لكنها تضم حولها الكثير من الورود الرائعة، وتجذب إليها الطيور المغردة... وفي الصباح الباكر يتطاير طيب عطور زهورها مع رزاز مائها... فيرطب الجو برائحة لطيفة جدًا...

- إلى هذا الحد تحب الطبيعة...

- نعم... كثيرًا، أتمنى دائمًا لو كنت جزءًا منها، أتمنى لو كنت زهرة في بستان، أو طائرًا مغردًا، كل بقاع الأرض وطن له لا حدود توقفه، أو فراشة تحملها الريح إلى حيث تريد الذهاب... أو حتى قطرة ماء ساكنة في وسط بحيرة هادئة كتلك الموجودة في بحيرات أتاتورك، فلا الزهور تبكي قلة عطر أقرانها، ولا الطيور تُطرد من أوطانها، ولا قطرات المياه

يرفضها بئرها... وحده الإنسان يفنى إن فني رفيقه، ويرفضه وطنه إن أصابه الفقر أو العلة
...

- لا، طالما عشت حياتي طائرًا حرًا، كنت أجوب البلاد التي أرغب بزيارتها... وأذهب إلى
أفضل البقاع، لكن ما من أماكن أذكر روعتها كتلك الأماكن التي كنت أجوبها برفقة
أصدقائي في إسطنبول... دونهم لم يكن لأي شيء معنى... كانوا هم روح اللحظات التي
أعيشها...

- الآن... انظري إليك دونهم، وردة ذابلة؛ لأنك تنتظرين منهم العطر...

- ربما أنا كذلك، لكنني واثقة أنهم أيضًا ليسوا بخير تام دوني...

- نعم، وتذكرهم الأماكن والروائح بك، وإن ذكر اسمك دمعت عيونهم...

فشعرت شامية أنه يقصد ما حدث بالأمس، فقالت:

- أردت أن أخبرك أنني آسفة بشأن ما حدث بالأمس، لم أكن أقصد بأن أذكرك بماضٍ
يؤلمك...

- لا عليك، فأنا لا أنسى على كل حال...

ثم عاود النظر إلى المياه مرة أخرى... فشعرت شامية أن الحديث قد وصل لخاتمته، فقامت
من مكانها وقصدت غرفتها مرة أخرى...

وانقضت أيام الأسبوع، وحن موعد المغادرة إلى الحدود السورية، فاجتمع أهل البيت كلهم
يودعون عدنان والفتاة... وحن وقت السلام على العم، فوقف سلطان ينظر لابن أخيه

ويقترب منه ليودعه، ولا يدري إن كان سيراه مرة أخرى أم لا ...

وقف الشيخ يودع في شموخ وعزة ويغالب كل المشاعر المتضاربة في داخله، ولا يظهر منها شيئاً سوى أنه يشد بمعصم ابن أخيه، ويطمئنه على سلامة الرحلة، وأنه سيكون بخير...

وبدأت الرحلة إلى الحدود السورية، بسيارة علي... وفور وصولهم للحدود كان "شرف" أحد أبناء الشيخ محمد السوري ينتظرهم على الجانب الآخر، فنزل عدنان من السيارة، وودع ابن عمه، ثم عبر الحدود بين العراق وسوريا سيراً على القدم هو وشامية خوفاً من أن يقعا في أيدي حرس الحدود، فإن لم تكن قوات الجيوش التي تطوق حدود بلاد اللغة الواحدة، كانت جموع السرطان التي تسكن تلك الحدود بعد أن تفتت في البلاد... إلى أن وصل إلى الجانب الآخر، وألقى التحية على شرف، الذي كان ينتظره حاملاً على صدره سلاحاً آلياً تحسباً للمشكلات، ثم استقلَّ السيارة إلى منزل الشيخ محمد، ليستريحوا فيه قبل السفر إلى ميناء اللاذقية للانطلاق مع الباخرة إلى السواحل الإيطالية...

وبعد قضاء يوم واحد مع الرجل الذي أكرم ضيفه، انطلق عدنان وشامية إلى الرحلة الكبيرة، ودون أي رد فعل من شامية، سوى أنها تتبع زوجها إلى حيث يشد رحاله...

ثم جاء وقت ركوب الباخرة وكان السفر، وكأنه نوع من التهريب، قبل أن يركب عدنان الباخرة... سلمه الشيخ محمد بنفسه إلى أحد العاملين عليها، وبدا عليه وكأنه يوصيه بشأنهما... وأخبره أنه فور وصوله للميناء في الطرف الآخر سيجد سيارة في انتظاره، تأخذه إلى إنجلترا؛ حيث تعيش ابنته زهرة برفقة جدتها كاثارين...

... ركب عدنان الباخرة، وكانت رحلة غير كل تلك الرحلات التي ذهب فيها من قبل... ثم أخذهما العامل إلى مكان بقائهما على الباخرة، وهو يعتذر ويتأفف من سوء المكان، فهو لا يستطيع إبقائهما في مكان آخر غير مخازن الحقائب، ثم منحهما غطاءً واحداً ليحتمياً فيه من برد الرحلة، ولم يعطهما غطائين على أساس أنهما زوج وزوجة... كان عدنان يشعر

بالسوء حيال بقائهما في مخازن الحقائب... ولكن الأمر لم يشكل فارقًا بالنسبة لشامية التي لم تبدِ أي أسى من وجودها وسط الحقائب ومقتنيات العمال، قد كانت تقبل الوضع بكل ما فيه من مصاعب... بينما كان عدنان يعاني من كل ما حوله، بداية من صوت البوق الذي يكاد يفجر رأسه... إلى المكان الذي سيمكث فيه... ولكن لا حيلة له سوى أن يكمل الطريق الذي بدأه...

راح ينظر حوله باحثًا عن غطاء أو قطع قماش يفرشها على الأرض لتجلس شامية عليها... ومن ثم عثر على قطعة كبيرة من قماش الجوخ، فأتى بها وفرشها على الأرض تحت قدميها بين أرفف الحقائب، وأشار لها بالجلوس لتستريح، فجلست في صمت تام، ... بينما أسند هو ظهره إلى الرف من خلفه وجلس في الجهة المقابلة لها أيضًا في صمت... وبعد ساعات قليلة انطلقت الباخرة، وبدأت الرحلة...

كانت الفتاة قد غرقت في النوم بينما بقي عدنان ساهرًا طوال الليل، هو ليس قلق بشأن سلامة الرحلة، وليس قلقًا من وصوله إلى لندن، فهو يعلم أنه سيصل لا محال... ولكن كل قلقه من أن يصل هو أن ينظر في عين ابنته، وأم زوجته الراحلة إذا سألوه من هذه، فبأي رد يجيب... وظل حائرًا بين أفكاره إلى أن سلم رأسه للرف من خلفه وغرق هو الآخر في نوم عميق ...

وبعد ساعات من النوم استيقظت الفتاة وهي لا تعرف إن كان الشروق قد نشر نوره أم لا، فلا ضوء في المخازن سوى ذلك الضوء الكهربائي الخافت... وكان عدنان لا يزال جالسًا ولكنه ساند رأسه إلى الخلف وغارق في نومه... فقامت الفتاة وهي تحتمي من البرد بالغطاء الذي أعطاهما إياه العامل... تنظر إليه وهو نائم... وتسال نفسها من أي أصل أتى، وأي شيم قد تكون بهذا القدر من النبل... ما الذي قد يدفع إنسان لخوض كل تلك الصعاب من أجل إنسان لا يعرفه...

وتسأل نفسها كيف كانت تهتم لأمره، وكأنها تعلم أنها تعرفه جيدًا... وكيف تشعر بكل هذا الأمن بقربه... كيف بقربه لا تعباً بشأن أي شيء ولا تقلق من أي شيء... رغم عدم معرفتها بأي شيء عن عائلتها، ورغم كل المخاطر التي تحيط بها، إلا أنها بخير ما دامت معه...

وما الذي ينوي فعله بشأن الزواج، وهل هو زواج...

وبينما هي على حالها إذا بالنائم يفيق من سباته، ويفتح عينيه على عيون تنظر إليه، كأنما تنظر إلى أعجوبة لم ترها من قبل... فظل ينظر في عينيها، وكأنها أفاقته على جمال لم يعهده من قبل... فقال:

- عيناكي جميلتان جدًا...

...

لم تعلق شامية ولكن نظرة الدهشة على وجهها كانت كفيلة بالتعبير، ثم تبسم ثغر عدنان، وقال:

- كانت زوجتي سارة تخبرني دائمًا، أن أعبر عن الجمال بأروع الكلمات إن وقعت عليه عيني... وكانت تقول ابتسم في وجه الصعاب تهون...

- هل كنت تحلم بها...

- أتمنى... لكنها لا تفعل... هي لا تأتيني في أحلامي أبدًا، فهي ليست راضية عما فعلته بنفسى بعد موتها... لا يمكن أن تكون راضية عن حزني...

- الآن نتحدث عنها ولا تشعر بالسوء...

- لم أشعر يومًا بالسوء للحديث عنها... في تلك المرة عند النافورة عندما سألتيني عنها... لم أشعر بالسوء حيال ذلك... وأنت لم تذكريني بها، فأنا لا أنساها... لكنني شعرت حينها

بالضعف والحزن، ولم أشأ أن تريني في تلك الحال...

...-

بينما يتحدثان إذا بالعامل يدخل الطعام لهما، ويحييهما بالسلام... ويضع الطعام أمامهما الذي لم يكن يشبه طعام الفطور على الإطلاق... فقال عدنان:

- هل في العادة تتناولون هذا اللحوم في الفطور، هنا على السفينو؟

فضحك العامل، وقال:

- إنها الواحدة ظهرًا، وبعد ساعات قليلة أخرى نصل إلى وجهتنا...

ومن ثم انصرف العامل وترك لهما الطعام... وبعد انصرافه سألت شامية:

- وما هي وجهتنا؟

- السواحل الإيطالية، ومن هناك ستنقلنا سيارة إلى إنجلترا، سنمكث في لندن، وبعد يومين سنسافر إلى تركيا.

- لماذا لم نسافر لتركيا مباشرة...

عندها ارتبك عدنان ولم يعرف أي رد يرد به... فقال:

- لم يكن الأمر سهلًا...

عندها سكتت شامية، ولم تعلق على الحديث فهي لا تعبأ على كل حال... وانتظر عدنان أن تكمل الحديث، ولكنها لم تفعل، فأكملة هو:

- عندما نصل لندن سننزل بمنزل أم زوجتي، تدعى كاثرين... وتعيش ابنتي الوحيدة برفقتها هناك... وتدعى زهرة، وهي لا تتكلم ولكنها تسمع جيدًا...

- لماذا تعيش بعيدًا عنها؟

لم يتوقع عدنان هذا السؤال أبدًا، فقد ظن أنها قد تتذمر وتطلب البقاء بعيدًا عن الناس... كما كانت تفضل أن تفعل في العراق، ولكن ها هي ذا تدهم حصن قواه بسؤال يفتك به... فرد عليها كما كان يرد على صديقه محمود...

- لا أستطيع احتواءها الآن...

- بأي عذر ستقدمني لها...

عرف عدنان أنها لا تنوي إيقاف صعقاتها... وبدأ يسايرها في الردود:

- ولما قد أحتاج لعذر لأقدم زوجتي...

-...

المرّة الأولى التي يناديها فيها بزوجته، كانت كفيلة لتشعل نيران العشق الأولى في قلب فتاة ظنت أن العالم كله انقلب عليها، وتخلّى عنها، وها هي من بين الحطام تجد من يتقبلها زوجة، ويحمل لواء حمايتها... كانت تلك النبضة القوية التي هزت كيان قلبها وعلامة العشق الأولى... ولكن عدنان ظن أن ملامح الذهول على وجهها؛ لأنها تخشى أن تجد نفسها مرغمة تجاهه بواجباتها كزوجة له... فراح يرد على خيالات رأسه أمامها:

- أنتِ زوجتي، وعلي حمايتك، وإن كنت لم ولن أقترّب منك... فيكفي أنك الآن تحملين

اسمي... وإن كنت أشك في سلامة هذا الزواج، لكنني مصر على حمايتك حتى النهاية بصفتك زوجة لي... الآن على الأقل أملك سببًا قويًا يدفعني لأتمسك بحمايتك، وإن كنت لا أنوي أن أتركك إلا عندما تصلين لديارك سالمة على كل حال...

قال كلماته ومن ثم مد يده وقرب الطعام منها، ودعاها إليه... وكأنه يستمحيها عذراً أن توقف الحديث، فيما قد يؤلمه، وأن تتوقف عن ذكر ما يثير الذعر في نفسه...

فسكتت الفتاة، وبدأت في تناول الطعام... وبعد انقضاء عدة ساعات كانت الباخرة قد شارفت على أبواب وجهتها، ثم ملأت الأجواء صوت الباخرة، وأطلقت نفيها المدوي...

وإذا بالعامل يأتي إليهما ليوصلهما إلى سائق السيارة الذي ينتظرهما، ولم يتحدث عدنان إلى السائق، بل فعل العامل، وأشار إلى عدنان لركوب السيارة، وأخبره أن السائق سيأخذه إلى البلدة التي أوصى عمه سلطان أن يوصلهما إليها... ليس هذا وحسب بل إن العامل أخذ من السائق كيساً بلاستيكيًا، وأعطاه رزمة من المال، ولم يفهم عدنان ما حدث إلا عندما أعطاه العامل الكيس، وقال له:

- هذا جواز سفرك أنت وزوجتك لتركيا، كسائحين كما أراد عمك...

وبدأت ساعات رحلة أخرى بسيارة عادية ليست مخصصة للسفر عبر الكثبان الرملية إلى السهول الخضراء والمدن الحدودية، ومظاهر الحياة بأشكالها وأنواعها المختلفة، وعندما وصلا إلى مشارف لندن، نزلًا من السيارة التي انطلق صاحبها بها بعيدًا، وقصد عدنان أقرب هاتف رآه أمام عينيه، واتصل بكاثرين يخبرها أنه في الطريق إليها، والتي لم تصدق نفسها أنها ستري زوج ابنتها الراحلة، وبدا من كلامها أن أي من أخبار قتله لم تصل إليها، فقط كل الدهشة كانت أنها زيارة مفاجئة، ودون سابق علم... ومن ثم استقلًا سيارة أجرة إلى عنوان المنزل الذي يحفظه عدنان عن ظهر قلب، من كثرة ما خيل له أنه ذاهب للقاء ابنته، وزيارتها في هذا العنوان...

فور وصول "عدنان" و"شامية" إلى أبواب منزل "كاثرين" بلندن، نزل عدنان من سيارة الأجرة ثم فتح باب شامية لتنزل من السيارة، بدت شامية قلقة بشأن الأمر في بدايته... ومن ثم خرجت العجوز السبعينية "كاثرين"، تندفع بسرعة بأقصى طاقة بالنسبة لعجوز

في الستين تتكى على عصا، وتندفع ناحية "عدنان" مرحبة به وتحيطه بين ذراعيها متوسمة شم ريح ابنتها الفقيدة سارة... في أكثر رجل أحبته... وقالت:

بني، آه عدنان يا عزيزي.. عدنان..

اشتقت لك كثيرًا يا كاثرين العزيزة.

آه عدنان، كيف حالك بني؟!

لقد شعرت بخير للتو، فور رؤيتك.

بينما يتبادلان أسئلة الشوق إذا بكاثرين تلحظ وجود "شامية"، فتتنظر إلى عدنان وتقول:

- من هذه الجميلة التي معك؟!

سألت كاثرين "عدنان" السؤال الذي كان يخشاه طول الطريق في الرحلة من العراق لإنجلترا... وقف أمامها وشعر أنه لا يملك الرد... ولكنه خاف أن تزيد الريبة في قلبها فبدأ يرد:

اسمها شام.....

ولم يكذ يكمل كلمته، إذا بالصغيرة الصامتة، ابنة الحادية عشر عاما، تندفع بسرعة الشوق نحو أبيها، وتطوق كتفيه بذراعيها الصغيرة، عندها خر عدنان على ركبتيه من هول السعادة في قلبه، وكادت الدموع أن تفر من عينيه لشوقه لابنته، التي ظن أنه لن يراها ثانية، وأنه سيدفن في العراق، دون أن تعرف مكان قبره فتأتي لزيارته... كان المشهد رائعا إلى حد أن الفتاة بدأت تذرف الدموع في صمت على كتف أبيها، وكأنها هي الأخرى شعرت للحظة من اللحظات أنها لن تراه مجدداً...

دمعت عين العجوز بينما وقفت شامية تتعجب لقدرة الرب الذي كتب لهذا الرجل أن ينجو من كل ما مر به ليصل اليوم إلى أحضان هذه الصغيرة...

... ثم استجمع "عدنان" قواه وكبح دموعه في عينيه... ومن ثم أمسك بيد "كاثرين" وقال لها:

كاثرين الطيبة، أقبلي بي وبضيفتي في بيتك لبعض الوقت؟!

نظرت العجوز إلى زوج ابنتها، ووضعت يدها على خده كأنها تدلل ابنها وقالت:

أنت في منزلك أخيراً يا بني.

وكان العجوز تخبره أنه لا يمكنه الاستئذان للمكوث في بيته، فنظر عدنان إلى شامية وقال لها:

- تفضلي بالدخول...

وأخذت "كاثرين" بيد "شامية" مرحبة بها دون أن تعرف من هي، وحمل "عدنان" ابنته إلى الداخل، بينما تسير كاثرين برفقه "شامية" خلف عدنان ليدخلوا من باب المنزل، ثم نظرت الفتاة "زهرة" إلى "شامية" نظرة قلق لا تبشر بأنها سترحب بها... في حين نظرت إليها "شامية" بشفقة الخوف، فهي تشفق على نفسها من أن توضع في مثل هذا الموقف أمام الصغيرة...

عندما دخلوا المنزل... طلب عدنان إلى كاثرين أن تأخذ "شامية" إلى غرفة "زهرة"، فنظرت إليه "كاثرين" وقالت:

بالطبع عزيزي.

ثم نظرت إلى شامية وسألته:

بما أدعوكي عزيزتي؟!

فنظرت "شامية" إلى "عدنان" وكأنها تطلب النجدة، لا الإذن في الرد... فرد بسرعة وكأنه يتدارك الموقف:

شامية.. اسمها شامية!!

نظرت العجوز إلى زوج ابنتها الذي بدا عليه الارتباك، وقد أدركت أن في الأمر ريب... ولكن ربما لم ترد أن تزيد عليهما مشقة السفر، فلم تزد عليهما في السؤال...

وقالت بصوت خافت، وكأن أحبالها الصوتية تتخبط في حلقها...

آآ الطريق إلى هنا... لا بد أنها كانت رحلة طويلة وشاقة، تعالي معي عزيزتي سأأخذك إلى غرفة زهرة.

ثم نظرت إلى "زهرة" وقالت:

حسنًا هيا سيدتي الصغيره، دعينا نري صديقتنا كم أن غرفتك جميلة ورائعة.

ثم أمسكت بيد "شامية" لتأخذها إلى الغرفة، بينما نظرت "زهرة" إلى أبيها نظرة توحى بالقلق، فابتسم عدنان في وجه ابنته ابتسامة مشوبة بالخوف... وصعدت الفتاة بعدها على الدرج لتتبع جدتها...

بعدها استند عدنان إلى الأريكة وجلس يفكر في همومه، وعن قلقه بشأن أمور كثيرة، فقلقه الآن يشبه الصندوق الأسود الذي يخبئ الكثير للجميع، لا يدري ماذا يقول، وماذا يفعل... يتمنى أن يصل صديقه المصري بأقصى سرعة ليفرغ حاويته أمامه، ويسأله ماذا يفعل، هل يخبر كاثارين وابنته أنه تزوج بعد زوجته التي أقسم لهما أنه سيمضي العمر بعدها وحيدًا إلى أن يلحق بها، وفاء لحبها له، هل يخبرهما أنه تزوج فتاة تصغره سنًا... فقط لأنه أراد إنقاذ حياتها، هل سيفهمان الأمر، هل ستتقبل "زهرة" ما حدث، وهل

ستوافق كاترين على رغبته في اصطحاب ابنته معه إلى تركيا لتعيش معه هناك، هل سيستطيع أن يوصل "شامية" آمنة إلى أسرتها بإسطنبول، وكيف يخبرها أن والدها الذي تنوق للقاءه قد فارق الحياة، كيف يخبرها أن أملها الوحيد في الحياة قد انقطع، وأنه يخشى أن عمها قد لا يقبل وجودها وقد يرفض استلامها منه... كنبته صبار في صحراء جرداء لا تنفك تفقد كل نقطة مياه في أوراقها، لا ينفك عدنان يفكر في كل ثغرة قد يصل منها الأمل إلى قلبه... وبينما يجلس على حاله غارقاً في أفكاره، إذا بجرس الهاتف يسرقه من همومه... ويرفع السماعة ليسمع صوت الصديق المصري...

"محمود"...

- ألو... ألو.

عندما سمع عدنان صوت رفيقه شعر أن الإمدادات قد أتته من السماء، إلى حد أنه لم ينتظر ليعرف "محمود" من على الهاتف، وسأله مباشرة:

- أين أنت؟

- عدنان، هذا أنت؟ هل أنت عدنان... أعرف صوتك جيداً...

- نعم إنه أنا، إنه أنا يا صديقي...

- أنت حي ترزق!!... كنت أعرف هذا، كنت أعرف أنك لم تمت... لم أصدق يا صديقي، صدقني لم أفعل...

- أعرف يا صديقي، ساعدني محمود أنا غارق هنا...

- أنا قادم إليك... بالطبع سأفعل، لقد وصلت أرض المطار لتوي، لكني قادم إليك...

- حسناً، أسرع...

- سأفعل...

لم يطق عدنان فكرة الانتظار... إلى حد أنه هم بالخروج لحديقة المنزل فور ما وضع سماعة الهاتف... ولكن أوقفته "كاثرين" بعدما نزلت للدور السفلي وقالت:

إلى أين؟!

صديقي محمود سيصل الآن سأنتظره في الخارج.

وقبل أن يخرج عاود النظر إلى "كاثرين" وقال:

كيف هي شامية؟!

نظرت إليه العجوز بريبة وقالت:

انها بخير، لما لا تستريح إلى أن يصل محمود.

شكرًا كاثرين أنا بخير، ولكن أين زهرة؟

إنها في الطابق العلوي برفقة الفتاة.

شعر عدنان في داخله بالقلق حيال بقاء "زهرة" برفقة "شامية"، وشعر في داخله بالندم لأنه أتى إلى لندن برفقتها...

قبل أن يترك الباب للخارج، استوقفته كاثرين قائلة إن ابنتها الأخرى "كيت" ستأتي أيضًا لترحب به...

نظر إليها "عدنان" وابتسم، ولكنه عاد ليقطب جبينه فور ما أدار وجهه لها... فقد علم حينها أن الأمور ستزداد سوءًا بحضور "كيت"... فهي طالما كان موقفها منه يشبه موقف أبيها،

وهي تكره عدنان منذ مقتل سارة، الآن لن يكون من السهل أبدًا إخبارهم عن حقيقة "شامية" ...

خرج عدنان إلى حديقة المنزل الأمامية يذهب ويجيء بانتظار صديقه... ومن نافذة غرفة "زهرة" كانت "شامية" تنظر هي الأخرى، تفكر فيما يحدث لها، بعد أن غادرت أرض الدمار والدماء، وابتعدت عن بابل... ولكنها ما تزال بعيدة كل البعد عن حديقة أتاتورك... بل هي الآن تجلس على فراش ليس فراشها وتنظر من نافذة ليس لها الحكم على هوائها بلندن، المشهد من خارج النافذة ليس غريبًا عليها، فهي ليست المرة الأولى التي توجد فيها بلندن، فلطالما اعتادت أن تقضي الإجازات برفقة والديها بين باريس ولندن... لكن المشهد من داخل النافذة هو المشهد الغريب، فهي تدرك تمامًا أنها برفقة أناس لن يرحبوا بها إذا عرفوا حقيقتها... وحقيقة ارتباطها بعدنان... ورغم أن عدنان صرح لها بأنه يعدها زوجته، وأنه ملزم بحمايتها وليس عليها أن تشعر بأنها عبء عليه... إلا أن الشعور ذاته يخالجه دائمًا وبكثرة منذ أن وصل إلى لندن، وشعرت بقلق شديد من أن تسبب لعلاقته بابتته أي مشكلات...

بينما هي غارقة في فكرها... كان الكابتن قد وصل أخيرًا... بمجرد وصوله لم يكن يصدق عينيه أنه يرى "عدنان" من جديد، وأنه لم يمض في العراق... بينما لم يصدق "عدنان" نفسه أنه أخيرًا سيخرج ما في جعبته لصديقه الوحيد...

وانهال كلاهما على الآخر بترحيب الشوق والأحضان... ثم قال "محمود" وهو يطوق صديقه بذراعيه:

- لم أصدق أنك ستنجو...

- صدقني ولا أنا... لكن الله كتب لي عمرًا جديدًا، من أجل أن أرى ابنتي مرة أخرى...

ثم سأل محمود بلهفة القلق:

- أخبرني كل شيء، ما الذي حدث؟!

- تمكنت من الفرار برفقة الفتاة، وتورطنا في الزواج...

- أي فتاة... تزوجت؟!

- أتذكر عندما أخبرتك أن فتاة تستغيث على الطرف الآخر من الهاتف...

- الفتاة ماتت...

- لا، هي لم تمت...

ثم سرد عدنان لصديقه القصة كاملة، وعما حدث معه من تركيا للعراق، إلى أن وصل لندن...
وبعدما انتهى سأله محمود:

- وأين الفتاة؟ كيف هو رد فعل "كاثرين"؟

- إنها في غرفة "زهرة" في الأعلى، لم أخبر أحدًا شيئًا عنها بعد...

- وماذا تنوي أن تفعل عندما تصلان لتركيا؟

- من المفترض أن أسلمها لعمها، ولكنني أشعر بالريب حيال ذلك؟

- ماذا تعني لا أفهم؟

- أنت وأنا نعلم جيدًا أن الفتاة قد انتحرت والدها، ولكنها لا تعلم، وأنا أيضًا لست واثقًا إن كان
عمها يرغب بعودة وريثة ملك أخيه الوحيدة إلى القصر أم لا...

- ألم تخبرها الحقيقة؟!... ألم تخبرها أن والدها قد انتحرت...

- لم أستطع، كانت حالتها في غاية السوء، وخفت أن أخبرها فتزيد الأمور سوءًا حينها... ولم أفعل إلى الآن، أضف إلى ذلك أنني هنا وأعلم جيدًا أن "كاثرين" ستغضب إذا علمت بحقيقة نسبتها إليّ...

- حسنًا إذن، اسمعني جيدًا سأغادر الأ...

قاطع "عدنان" صديقه بغضب؛ لأنه لم يفهم سبب رده، قائلاً:

- لا يمكنك ذلك، يجب أن تكون بجانبني لا أدري ماذا أفعل... أتيت لاصطحاب ابنتي وسأخذها هي وشامية، ونرحل إلى تركيا، ولا يمكنني أن أتخيل رد فعل "كاثرين" وابنتها "كيت" أنا بحاجتك هنا...

أمسك "محمود" بيد صاحبه، وشد عليها، ونظر إليه بحدة ليهدئ من روعه، واندفاعه... ثم قال:

- "عدنان" تمالك نفسك وفكر بحكمة، لا تخبر كاثرين عن حقيقة الفتاة، وأنا سأذهب، لأعد شقتي هنا لتبقى فيها أنت والفتاة، إلى أن ترحل إلى تركيا، ولا تفكر في اصطحاب ابنتك معك الآن هي بخير هنا، دعها مع جدتها إلى أن تهدأ الأمور... والآن اهدأ سأعود بعد قليل لاصطحابك أنت والفتاة...

ثم اندفع محمود منطلقًا من أمام صديقه، قبل أن يتمكن عدنان من أن يسأله ماذا سيخبر زهرة إن سألته كيف يأتي ويذهب في نفس اليوم قبل أن يمضي وقتًا أكثر برفقتها؟

ثم استدار عدنان ليجد كاثرين التي تقف عند باب المنزل تنظر إليه بدهشة... فاقترب من الباب لدخول المنزل، ثم قالت:

هل كل شيء على ما يرام؟

نعم... طبعًا، لما السؤال؟!

إذن.. لماذا غادر محمود قبل أن يلقي التحية.

اعتقد أنه كان على عجلة من أمره.

نعم.

ثم دخل المنزل... فقالت كاترين إنها أعدت الطعام، وطلبت إلى عدنان أن يذهب لاستدعاء ضيفته للمائدة...

في الأعلى كانت "شامية" قد اغتسلت، وجلست تمشط شعرها الذهبي المنسدل على كتفها... بجانب زهرة التي كانت تحرق فيها، فتوقفت شامية عن تمشيط شعرها وابتسمت ابتسامة خفيفة في وجه زهرة، ولكن زهرة رأت في تلك الابتسامة الخوف أكثر من المودة، ولم تغير تعابير وجهها المليئة بالريبة، وأشارت بيدها تسألها، من أنتِ؟...

لكن شامية لم تفهم قصدها، فعادت تشير لها مرة أخرى... فقالت شامية وهي تستعطفها عذراً:

آسفة، لا أستطيع أن أفهمك.

فقامت الفتاة، وأحضرت ورقة وقلماً من على مكتبها، وكتبت عليها...

من أنتِ؟

فخفق قلب شامية بشدة وتلكأت الكلمات على طرف لسانها، وبدأت تتمتم بلسانها:

- شام... شام... شامية.

فعاودت الفتاة الصغيرة الكتابة على الورقة وزادت عليها كلمة واحدة "شامية" فأصبح

السؤال: من أنتِ يا شامية...

انتفض قلب شامية وكأن ما كانت تخشى حدوثه يحدث بالفعل، ورغبتها القوية في ألا تكون سببًا في الإطاحة بقلب الفتاة المسكينة بعيدًا عن أبيها... ولم تدرِ ماذا تفعل... وماذا عساه قد ينقذها... لكن الذي أنقذها، هو من اعتادت أن يفعل دائمًا... إذا بعدنان يطرق باب الغرفة ويستأذن في الدخول، ثم يقول:

- لقد أعدت "كاثرين" الطعام، إنها تنتظر بالأسفل...

نظرت حينها كل من الفتاتين لعدنان ولكن اختلفت النوايا... نظرت زهرة إلى أبيها بقلق، ونزلت إلى الأسفل... بينما نظرت إليه شامية باطمئنان، وتعجبت كيف له أن ينقذها في كل مرة في الوقت المحدد منذ اليوم الذي التقت فيه، وهو دائمًا يأتي عندما تحتاج إليه، وكأن القدر يسوقه إليها... نظرت إليه وكادت الدموع تفارق عينيها... ولكن هذه المرة دموع مختلفة تمامًا عن تلك التي تذرّفها منذ حادث رحيل أمها...، دموع ليست كالدموع، وحزن ليس كالحزن، دموع ممزوجة بالشوق، وحزن ممزوج بالسعادة... كيف تخبره أن قلبها سعيد بقربه منها...

ولكنها تعلم جيدًا أن دموعها إن ظهرت له لن تحمل المعنى الذي ترغب أن توصله له أبدًا... لأنها كانت على يقين أنه سيظن أنها دموع اليأس، فعادت النظر إلى الأرض...

لكن لم تستطع هي الأخرى أن تقراء ما يجوب بخاطر من بدت له ملامح العشق والشوق له على قلبها ...

كانت نظرات عدنان تنطق لها بما يجوب في خاطره، وهو يخبرها أنا آسف حقًا لم أشأ أن أضعك في هذا الموقف هنا...

ثم خرج عدنان من الغرفة ولم يقل كلمة واحدة، ولم يرغمها على النزول فهو يعلم أنها لن تأتيها الشهية للطعام على كل حال...

عندما نزل إلى الأسفل أخبر كاترين أنها لا ترغب في تناول الطعام... وأنها تفضل النوم قليلاً فهي مرهقة من السفر...

بينما يتناولون طعامهم، إذا بجرس الباب يدق، ظن عدنان أن محمود قد أتى أخيراً، فهب يفتح الباب، ولكن الطارق لم يكن محمود، إنها كيت قد وصلت إلى المنزل...

عندما رآها عدنان تغيرت ملامحه، وعلم في داخله أن الأمور قد ازدادت سوءاً، ولكن بالطبع كتم مشاعره، ورحب بها بابتسامة عريضة، في حين رحبت به المحامية بابتسامة بدا عليها أنها ليست من القلب... على كل كلاك الابتسامتين لم تكن من القلب، وبعد الترحيب انضمت كيت إلى مائدة الطعام، وبدأت تغدق على الصغيرة زهرة أشكال العطف المختلفة...

ولكن الحقيقة أن في نفس زهرة، الكثير لكيت التي حاولت أكثر من مرة أن تدفعها إلى اعتناق الكاثوليكية المسيحية، لكن الصغيرة كانت متمسكة بدين أمها الذي ماتت عليه... وكانت تساندها جدتها في ذلك الأمر على الرغم من أنها هي الأخرى مسيحية تنتمي للكنيسة الكاثوليكية، إلا أنها تؤمن بحرية الأديان، وأن كل إنسان حر في اختيار دينه، فحينما كانت تخبرها كيت أن أمها ماتت بسبب دينها، كانت تخبرها جدتها أن أمها ماتت بسبب قدرها ... وكانت تحكي لها عن حكايات الحروب بين الأديان عبر الزمن وعن قصص المسيحية ورحلتها في أوروبا... وتحكي لها أيضاً عن رحلة أمها مع الإسلام... بعدما انتهى

الجميع من الطعام... اقترحت كيت أن يخرجوا للاحتفال بمناسبة عودة عدنان، فانتفضت الطفلة من على مقعد الطاولة وبدأت تصفق تشجيعًا لفكرة الخروج... لكن عدنان تهرب من الأمر قائلاً إنه لا يستطيع؛ لأنه قادم من السفر لتوه، ولا يستطيع الخروج... وعندها تبسمت كيت ابتسامة المكر بينما تضع الطعام في فمها

... فرحت كيت برفض عدنان الخروج، فقد كانت حريصة على إبقاء زهرة بعيدًا عن أبيها، خوفًا من تأثرها به، فقد كان لديها اعتقاد دائم أنه السبب في موت أبيها وأختها، وقد ظنت في فترة مقاطعته لزهرة أنه ذهب ولن يعود وسينساها...

بينما بدا على وجه زهرة الأسى، وأعادت شوكة الطعام بما تحتوي في الطبق تعبيرًا عن الغضب بعد أن قضبت جبينها، حينها استغلت خالتها الموقف، وتدخلت وحلت الأمر، وقالت إنها ستصطحب زهرة إلى عرض فيلم الرسوم المتحركة في السينما المجاورة للحي...

وبهذا تكتمل خططها في إظهار مدى اهتمامها بالفتاة، في حين أن أبيها لا يفعل، بينما الحقيقة هو أن كل ما شغل زهرة هي أنها سترى فيلم الرسوم المتحركة، كطفلة اطمأنت لأن أبيها هنا ولم تخل أنه قد يذهب قبل أن تقضي معه ما يكفي من الوقت، ... بينما قام عدنان من مكانه واقترب من مقعد زهرة، واستند على ركبتيه على الأرض بالقرب منها، والتقط شوكتها التي ألقته في طبقها وبدأ يطعمها بنفسه، وهو يقول:

أنا هنا الآن، ولا أرغب في رؤيتك حزينة مرة أخرى، أعدك أنني لن أبتعد مجددًا، سيكون لدينا الكثير من الوقت لنمضيه معًا.

عادت البهجة إلى وجه زهرة، وتناولت الطعام من يد أبيها، وفرحت كاثرين بحديث عدنان؛ لأنه أخيرًا سيحقق رغبتها في احتواء ابنته وألا يتهرب منها، فمدت يدها تمسح على شعره، بينما انهارت آمال كيت في إبقاء الفتاة معها، وإبعادها عن أبيها فوق رأسها في تلك اللحظة... وقالت وهي تكبح غيظها:

حسنًا جيد جدًا زهرة، يبدو أن والدك أخيرًا أصبح لديه الوقت ليمضيه معك، حسنًا دعينا نذهب يا صغيرتي، لا نريد أن يفوتنا الفيلم!!

وبعدما خرجت زهرة وكيت من المنزل، بقي عدنان وكاثرين وشامية التي كانت نائمة في الأعلى، ووجد عدنان نفسه جالسًا أمام كاثرين التي كانت تنظر إليه في عينيه بريبة... فشعر أنها ستبدأ بالأسئلة، فقام من على مقعده قائلاً إنه سينظف الصحون، لكن كاثرين أمسكت بمعصم يده قبل أن يغادر طاولة الطعام، وقالت:

لقد قلقت كثيرًا بشأنك، أين كنت طوال هذه المدة؟ كيف لك ألا تسأل عن ابنتك طوال هذه المدة؟! أليديك أدنى فكرة كيف كانت حالة زهرة في ذلك الوقت؟!

بدا عدنان مستاءً كثيرًا، فعاد يجلس على الطاولة من جديد ثم رد عليها بصوت متهدج وهو يخفض رأسه:

كيف لك أن تعرفي أنني لم أحاول، لقد حاولت الاتصال مرارًا وتكرارًا، ليس لديك أدنى فكرة عمّا واجهته في تلك الأيام كاثرين؟

عدنان!! تعلم جيدًا أنني أحبك كابني تمامًا، بل أتمنى لو كان لي ابن يوم أن يكون هو أنت، تحدث إليّ بني، سأسمعك للنهاية، قل كل شيء وأزل الهم عن قلبك المسكين.

لا أدري من أين أبدأ، ولا أعرف ماذا أقول..

حسنًا لنبدأ بالفتاة التي في الأعلى، من هي؟ وماذا تفعل برفقتك؟ ولما يبدو على كلاكما الأسى إلى هذا الحد؟!

نظر عدنان إلى كاثرين وبدا عليه الارتباك التام وبدأ يشبك يديه الواحدة بالأخرى، ودار في عقله حينها أنها ستفهمه إذا أخبرها تفاصيل القصة...

إنها فتاة من تركيا.. هي.. هي زوجتي.

ظهرت علامات الصدمة على العجوز عندما أخبرها عدنان أن الفتاة زوجته... وبدأت الأسئلة تجوب بخاطرها... كيف يفعل هذا دون أن يأخذ برأي ابنته، أو حتى يخبرها... كيف ينسى حبه الكبير لابنتها التي تبعتته إلى أرض الدمار، وماتت بين ذراعيه... حتى إن الصدمة أصابت حلقها بجفاف الذعر، فمدت يديها وهي ترتعش لتناول نفسها كأس الماء من أمامها... من ثم التقطته، وشربت منه بعض الماء...

وعندما انتهت من الشرب، مد عدنان يده وأخذه منها... ووضعه على الطاولة، وقبل أن ينطق كلمته التالية، رفعت كاثرين يدها في وجهه تشير إليه أن يصمت، ثم قالت:

- my husband "Jorge" died on his feet .

لقد توفي زوجي جورج وهو واقف على كلتا قدميه بجواري وهو يستمع إلى الموسيقى التي اعتادت ابنتنا سارة أن تسمعها... لقد شعر بالذنب الشديد حيال موتها، لم ينفك يلوم نفسه ويحملها الأسباب لموت ابنته إلى حد أنه لم يعد يطيق حياته، لم ينفك يسأل نفسه كيف سمح لسارة أن تتبعك إلى أرض الهلاك، لقد أحبها كثيرًا لدرجة أنه لم يتمكن من البقاء حيًا بعد رحيلها!!

لكنها أحبتك أنت، أحبتك أنت حتى أكثر من حبها لوالدها، لقد عصت أوامر والدها وتبعتك إلى العراق، لتموت هناك بين يديك، والآن... الآن أنت هنا تتزوج من سيدة صغيرة جميلة، لم تأبه لابنتي، لم تأبه لحبها لك... لقد تركت ابنتها ولم تسأل حتى عنها.

ثم نهضت العجوز من مقامها، في حين بقي عدنان جالسًا إلى الطاولة، ورأسه منخفض، يتمزق من الداخل... واتجهت إلى المطبخ وتابعت الحديث، وهي تكبح آلامها في صدرها وتقاوم اختناق صوتها من شدة الضيق... قالت بسخرية مريرة:

حسنًا لقد كنت مشغولًا بالزواج إذن، لهذا لم تتمكن من الاتصال بابنتك!

نهض عدنان من مقامه، وتبعها قائلاً بغضب وعيناه غارقة في الدموع:

كيف تجرؤين!! كيف لك أن تشككي في ولائي وحبى لسارة، لقد وعدت أن أحبها إلى الأبد، لقد أردت دائماً أن أبقى وحيداً إلى يوم ألقاها... لقد أحببتها أكثر من حياتي، ليس لدي حتى حياة بدونها، لقد ماتت سارة.. ماتت مرة واحدة، وتركتني هنا لأتجرع الموت كل يوم.

من الأعلى كانت شدة الصوت قد أفاقت شامية من ثباتها، وخرجت من الغرفة، فسمعت آخر جملة قالها عدنان ... وباقي الحديث حيث قاطعت كاثرين عدنان وسألته:

أهكذا تظهر ولاءك لابنتي؟! أن تتزوج من فتاة صغيرة بدون حتى أن تطلب الإذن من ابنتكما.

توقفي أرجوك، لا أحتمل كلمة واحدة.. لقد أرغمت على هذا الزواج.

وقبل أن يكمل عدنان حديثه مبرراً لكاثرين سبب زواجه من شامية... قاطع صوته صوت وقوع أقدام شامية التركية، تنزل على الدرج، وكانت آخر جملة قالها تسمعها شامية لأول مرة، أمام أم زوجته السابقة وهو يقول بكل مرارة إنه أجبر على الزواج منها... نزلت إلى الأسفل وكالغريبة التي لا يوجد لها في بقاع الأرض مكان يأويها، كالضيف الغريب الذي يأوي إلى كنف ليس كنفه وقفت لا تعرف الخلاص، ولا حتى منقذها الذي يقف أمامها يزيل عنها خجل اللحظة ... صمت الجميع، ونظر عدنان إليها بعدما صعق من حقيقة ما قال مقارنة بما قاله لها على المركب عندما قال إنها لا يجب أن تشعر أنها عبء عليه، فكيف الآن وهي تسمعه يتوسل سبل البراءة من نسبه بها ... بينما نظرت إليها كاثرين في أسي، وانصرفت من أمامهما لتجلس على أريكة... مقابلة لباب المنزل... بينما وقفت شامية وعدنان، أمام بعضهما البعض، وكل منهما يتمنى لو أن شيئاً ما يحل عليه فيخفيه من الوجود في تلك اللحظة حتى لا يراه الآخر... وانتهى المشهد وكل منهما ينقصه شيء لا يعلمه، كاثرين لا تعلم تفاصيل إجبار عدنان على الزواج، رغم حبه لابنتها الراحلة، وشامية لا تعلم أن عدنان يشعر بالفزع والضيق لما جرح به مشاعرها من قول، وعدنان لا يعلم أن من يظن أنها أكبر مصاعب حياتها حقيقة ارتباطها برجل يكبرها سناً، هي في الواقع قد

بدأت تكن له العشق... كصورة تنقصها الألوان كانت رؤية الجميع في تلك اللحظة، ولو
استمع كل منهم للآخر لارتاح قلبه...

وقطع لحظة الصمت صوت جرس الباب، فذهب عدنان ليفتح، إذا بكيت قد عادت هي
وزهرة، التي لم ترغب في مشاهدة الفيلم؛ لأنه لم يرق لها وقررت العودة للمنزل، وعندما
دخلت كيت لاحظت وجود شامية تقف بجوار أسفل الدرج، ولاحظت الصمت والضيق على
وجوه الجميع...، وقبل أن تنطق بكلمة واحدة، إذا بمحمود يصل هو الآخر... ابتسم محمود
في وجه الجميع وحياهم، ولكن دون أي رد من أي أحد، عندها فطن محمود أن صديقه قد
استباح الحديث وحكى ما حدث ... فإذا بكائرين تجلس على الأريكة، وتتكئ بكلتا يديها
على عصاها ويبدو عليها الأسى الشديد... وعلى نهاية الدرج تقف شابة شقراء عيونها زرقاء
مظلمة، كل ملامح وجهها تعبر عن كم الحيرة في قلبها...

نظر إليها بإعجاب شديد، ثم نظر لعدنان، وكيت وهما يقفان في ثبات ... فوقف هو الآخر
عاجزًا لا يعرف ماذا يقول ولم ينطق بكلمة واحدة... في لحظة ذهول وصمت خيمت على
الجميع حتى على كيت التي لم تكن تعلم أي شيء يحدث حولها، ولا تعرف من الغريبة التي
تقف على الدرج...

ثم صعد عدنان إلى الدور العلوي... ونزل وفي يده الحقيبة الصغيرة التي أتى بها... ووقف
بجانب شامية التي كانت ما تزال تقف في مكانها... ثم قال لها:

- سنرحل الآن...

وانطلق مسرعًا ناحية صديقه، وأعطاه الحقيبة، ففهم محمود أنه يريد إخبار كائرين شيئًا،
فنظر ناحية الفتاة قائلاً:

- تفضلي معي أنستي.

نظرت إليه شامية، وتحركت إلى الخارج، كدمية آلية لا تشعر بشيء من حزنها، مضت
وللمرة الأولى تكون في حزنها ولا تنتظر يديه تمسك بمعصمها فتطمئننها للسير... فقط
حملت نفسها وخرجت من المنزل، وبينما تخرج تمر من أمامه كسيوف مسممة تمزق
وجهه... وقلبه من الداخل ينزف خجلاً وألماً، من كونه عراقي لم يستطع حماية من تنسب
إليه زوجة من شعور الضيف غير المرغوب فيه...

ثم حمل محمود الحقيبة وتبعها إلى الخارج إلى السيارة التي كانت في انتظارهم...

خرج الجميع ولم يبق غير عدنان وكاثرين، وكيت وزهرة اللتان لا تفهمان شيئاً مما يحدث
في المنزل... اقترب عدنان من المقعد الذي كانت تجلس عليه كاثرين، ونزل على ركبتيه
بقربها، وبدا وكأنه لا يعلم ماذا يقول أو من أين يبدأ، ثم أخذ نفس عميقاً، وقال بصوت
متهدج:

لقد أحببت سارة بحق... وما زلت أفعل.

... شيء آخر، سأعود لاصطحاب ابنتي معي.

كمن به جنة، وفاقد لكل معاني الحياة، ويدرك تماماً أنه لا يملك لأحد سوى الألام التي لا
يملك سواها، قال عدنان كلماته للمرأة العجوز دون أن يهدئها بكلمة واحدة بعد أن تأكد أنه
يجهل كيف يفعل، ما لم يفلح فيه منذ موت الروح في قلبه مع موت من سكنت فيه...
واندفع مسرعاً من أمام العجوز كمن يهرب من مطاردة خطيئة... بينما رفعت كاثرين ناظرها
إليه لتراه وهو يغادر من أمامها مسرعاً، وفرت من عين العجوز الشامخة دمعة هاربة تودع
رحيل ريح ابنتها...

خرج "عدنان" مندفعاً من المنزل ناحية السيارة، التي كانت تنتظر، وكان "محمود" ينتظر
خارجها... ركب عدنان في الخلف بجانب "شامية"... وركب "محمود" بجانب السائق ثم
انطلقوا إلى حيث الشقة التي يملكها "محمود" في لندن... عندما وصلوا المبنى نزل الجميع

من السيارة، ثم وقف "محمود" وصديقه يتهامسان بالحديث، أعطى محمود المفتاح لصديقه، وقال إنه جمع معظم أغراضه... وأنه سيذهب إلى المطار؛ لأنه سيقلع الليلة إلى إسطنبول... وقبل أن يصعد إلى السيارة متجهًا نحو المطار أخرج من جيبه عدد من بطاقات الائتمان، وأعطاهما لعدنان... قائلًا:

- حتمًا ستحتاجها...

أخذ "عدنان" البطاقات، وأعطاه رقم القصر الذي كانت شامية أعطته إياه في العراق، وقال:

- هذا رقم هاتف القصر، عليك أن تحاول الوصول لعمها... لا أريد الذهاب لتركيا لأجد المزيد من المشكلات هناك أيضًا...

- حسنًا، لا تقلق سأهتم بالأمر... ولكن أخبرني ماذا تنوي أن تفعل، هل ستخبرها أن والدها قد مات؟

- لا أدري، ولكن حتمًا لا أريد أن يطول بقائي هنا... أريد العودة لحياتي السابقة، سأسلمها لعمها، وأنهى كل هذا...

- ماذا... ولكنها زوجتك الآن...

نظر عدنان إلى شامية التي كانت تقف بزاوية المنزل ويبدو عليها الأسى... ثم قال لصديقه:

- أنت لا تفهم، لا وقت للشرح... سنتحدث فيما بعد... لا تنسى ما أخبرتك به، سأنتظر أن تهاتفني.

- حسنًا، لا تقلق.

ثم ركب محمود السيارة وانطلق، واتجه عدنان إلى شامية وحمل عنها الحقيبة، وأمسك معصمها واتجه نحو المصعد، في مبنى فخم مدخله مليء بعلامات فن المعمار الحديث والأناقة والرقي، ولكن كليهما لم ينتبه إلى المنظر من حوله... عندما دخل المصعد استقبلهما عامل المصعد بابتسامة، ولكن كليهما لم يرد لها للرجل، عندما وصلًا كأنًا في الطابق السابع عشر، فتح عدنان الباب وأشار للفتاة بالدخول، ومن ثم دخل هو الآخر...

بدأت الفتاة في غاية الأسى والارتباك إلى حد أنها جلست على أول مقعد قابلها ولم تلتفت إلى الديكور الفخم من حولها، حتى عدنان بدأ أكثر انشغالاً بها من الديكور من حوله... وقف تفكيره عند أن كلماته كانت ذات وقع سيئ على نفسها، ولكن الحقيقة أن كلماته قتلتها من الداخل... حاول عدنان تخفيف وقع الأمر على كليهما فقال وهو ينظر للشقة من حوله:

- محمود طائر يعيش التحليق، في السماء... حتى منازلها يختارها شاهقة الارتفاع...

لم تعلق شامية على كلامه، ولم تقل شيئًا، فعلم عدنان أنه لا بد من المواجهة، فقال:

- ما قلته أمام كاترين كان... أنا...

فقطعت شامية حديثه، وانتفضت من مكانها، وسألته بغضب:

- لماذا لم نساfer إلى تركيا مباشرة، لماذا أتينا إلى هنا؟

فرد عدنان بهدوء محاولاً امتصاص غضبها:

- لم أستطع الوصول لوالدك عبر الهاتف... ولم أستطع الحصول على إذن السفر لتركيا...

- كيف هذا؟ لا يبدو حديثك منطقيًا...

- اسمعي يا فتاة... أخبرتك أنني سأأخذك إلى تركيا، وس...

- هلا توقفت عن هذا! لماذا أنقذتني، لماذا تريد لعب دور البطل المغوار في حين تجبرني أنا أن أكون أكبر مشكلات حياتك...

شعر عدنان في حديث شامية أنها خرجت عن كل المألوف منذ عرفها، وأن الشجار معها لن تكون عواقبه حسنة لكليهما، فقال:

- أنتِ غاضبة ولا أعتقد أن الوقت مناسب لمثل هذا الكلام...

ثم أدار وجهه لها ليغلق باب النقاش، لكن أوقفه صوتها:

- لم يحدث أي شيء مناسب على أي حال... لكن يكفي إلى هذا الحد... أفضل التسول في شوارع لندن على البقاء في حياتك، لا أرغب بأن أكون عبئاً على أحد...

قالت كلماتها بعنف شديد وهمت بالخروج، متجهة نحو الباب، ولكن كلماتها دفعت عدنان للغضب الشديد لحد أنه أمسك بمعصم يدها بعنف، وجذبها بشدة إليه... وقال وعينيه تستشيط غضباً:

- يكفي تدمراً... نحن في هذا معاً، أخبرتك مراراً أنني لن أسمح لشيء أن يؤذيك ولا حتى نفسك... قلت إنني سأعيدك إلى المنزل، وسأفعل...

من شدة الغضب في عينيه نظرت الفتاة، وقد بدت مندهشة لما تراه في عينيه، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يعاملها فيها بهذه القسوة منذ أن رآها... ثم تابع حديثه قائلاً:

- سأذهب لإحضار ابنتي الآن، فقط لا تحاولي إفساد الأمور أكثر من هذا... وانزعي من رأسك أفكارك السامة تلك، لستِ عبئاً عليّ أبداً... أنتِ زوجتي الآن، وأنا أؤدي واجبي تجاهك، وسأوصلك لبيتك آمنة...

زادت كلمات عدنان الفتاة غضباً وتوتر فقالت، وهي تصرخ في وجهه بصوت اختلط بالدموع الحارقة:

- لم أطلب منك ذلك، لم أطلب منك إنقاذ حياتي، ولم أرغب في الزواج منك ...

ترك عدنان حينها يدها وتمالك نفسه، وغضبه بعد أن شعر أن كلماتها تسلبه كل الحق في مسك معصمها، ثم قال في هدوء:

- سأذهب الآن لأحضر زهرة، وقريبًا نصل لتركيا، وينتهي الأمر... ويريح كل منا الآخر...

ثم تركها تبكي، وتراجع للوراء وهو ينظر إليها غارقة بين عباراتها، ولكن حدث ما لم يكن يومًا يتوقعه، شيء في قلبه أراد أن يخبرها ... أرجوك كوني بخير... ولكنه لم ينطق بها... ولم يفهم ما يحدث له، وكيف أصبح قلبه يحمل الأمانى لأحد غير راحلته سارة...

وخرج من الشقة مسرعًا، ثم استقل سيارة أجرة عائدًا إلى منزل كاثرين... وعندما وصل المنزل فتحت له "كيت" الباب وقد بدا على وجهها الغضب الشديد... ولكن عدنان نظر إليها ولم يعتد لنظراتها التهديدية، كجندي يأس من كل المحاولات، فتجاهل إنذارات الاتهام، دخل عدنان المنزل وبدأ ينادي ابنته:

- زهرة...

فقال كيت ساخرة:

حسنًا حسنًا!! لقد تزوجت إذن!!

فتجاهلها عدنان وتابع النداء على ابنته:

- زهرة...

فقال كيت وقد استعدت لإطلاق كافة كلماتها التي تشبه الرصاص الحي بوجه عدنان:

ما الداعي لمناداة زهرة؟! لا تناديه... أنت لا تريدها أن تسمعني عندما أخبرك أنك لست
مرحب بك في بيت أبي بعد الآن، أتريد ذلك!!

لم آتي لأبقى، أتيت لاصطحاب ابنتي.

اه حقًا!! الآن تذكرت أن لك ابنه... حسنًا هي لم تعد ابنتك بعد الآن، لا يمكنك حتى أن تحلم
باصطحابها بعيدًا!!

انتبهي لحديثك، لقد أتيت لاصطحاب ابنتي، وسأفعل.

حقًا هل تنوي إذن أن تجبرها أن تتبعك إلى بلدك، لكي تلقى حتفها كما حدث مع أمها.

فطنت المحامية الإنجليزية كيف تنقض على فريستها، وتجعلها تخرج كافة ما لديها عندما
توصلها لأقصى غضبها، في حين تحافظ هي على هدوئها التام ونبرة صوتها المنخفضة...
حيث صرخ عدنان غضبًا:

كيت!!

ماذا!! هل ستقتلني الآن.. أليس هذا ما تعلمته في بلادك!!

كانت كيت قد تخطت كل الحدود في حديثها مع عدنان إلى حد أن كاثرين لم تحتمل
سماع كلمة أخرى في الجدل بينهما، فطرقت الأرض بعصاها بشدة ثم قامت المرأة العجوز
ناهضة على قدميها... وقالت كلمة الفصل:

كيت!! لقد لفظتي لتوك ما ليس لك الحق في قوله، يكفي الآن.. أنا لا أسمح لك بكلمة واحدة
أخرى!

ثم نظرت إلى عدنان بغضب، وقالت:

وأنت!! اذهب وأصلح حياتك أولاً ومن ثم تعال لاصطحاب ابنتك، لن أسمح لك باصطحاب الفتاة إلا بعد أن أشعر أنك مستعد لذلك!! وإلى ذلك الحين ستبقى زهرة معي.

نظر عدنان إلى كاترين، وبدأ بالقول:

ولكن.. كاترين.. أنا.

فقاطعت كاترين كلماته وقالت بحدة أقوى:

أنت لست مستعداً لاصطحاب الفتاة، اذهب وأعد نفسك جيداً، ومن ثم تعال لاصطحابها، لا أريد أن أموت قبل أن أرى زهرة برفقتك.

بحكمة بالغة أنهت المرأة الستينية الموقف والجدال، حكمة لم يفطن لها حتى عدنان في وسط موجة المشكلات والغضب التي انساق إليها... ولكن كلمات كاترين جعلته يطمئن إلى بقاء ابنته معها... في الأسفل كان الشجار بين الأب والخالة، وفي الأعلى كانت الابنة تجلس في زعر في زاوية غرفتها... وصعد عدنان ليودعها، فإذا بابنته جالسة في زاوية مظلمة في الغرفة ترتجف من شدة الخوف، فأسرع إليها يمد يده نحوها لعلها تهدأ، ولكنها رفضت حتى النظر إليه بعد أن نكت وعده لها بالبقاء بقربها، فقال لها أبوها:

- سأعود من أجلك... وفي المرة القادمة حين آتي سأخذك معي...

ثم خرج مسرعاً من غرفتها، إلى الخارج وهي تودعه بدموع الخوف... ونزل إلى الأسفل لتودعه كاترين بعيون الحسرة، وكيت بعيون الحقد...

غادر عدنان منزل كاترين منكس الرأس... ثم عاد في سيارة الأجرة نفسها إلى شقة محمود... لكن الإيقاع الصاخب للأحداث لم يكن ليهدأ بعد... عندما وصل عدنان الشقة، لم يستطع أن يجد شامية فيها، نادى عدنان اسمها كثيراً ولكن دون جدوى... في تلك اللحظة شعر عدنان بشيء غريب يحدث له، كأن هناك شيئاً أكبر يربطه بهذه التركيبة... في تلك

لحظة خفق قلبه بشدة، وكأنه كان يخشى أن يفقدها، فدون أن يدري إذا به يخرج باحثًا عنها وعيونه تنطق بالخوف كطفل صغير أضاع أمه بين الزحام... كل هذه المشاعر وكل هذا الخوف، كانت أكبر من أن يشعر بها المرء تجاه شخص لا يعنيه...

خرج عدنان باحثًا عن الفتاة في الطرقات المجاورة للمبنى وفي الأماكن القريبة منه والطرقات، ويسأل نفسه أين يمكن أن تكون قد اختفت في مثل هذا الوقت المتأخر، بحث كثيرًا، ولكن دون فائدة كأن ضالته ابتلعها الظلام في شوارع لندن... لم تبهر عدنان ألوان الأضواء المختلفة في شوارع المدينة من حوله... في الواقع لم يستطع أن يرى أضواءها، فقد أظلمت الحياة في عينيه حينها... وأضاءت أنوار أخرى، وراح يتذكر مواقف لقائه بشامية وكأنها تظهر أمامه كومضات من نور... منذ أن اقتربت منه تعبر عن سعادتها بدرسه، إلى رحلته معها من العراق للندن، إلى شجاره معها قبل أن يغادر شقة صديقه... ووقف في منتصف الطريق إلى المبنى لا يعرف كيف سيعود، وماذا سيفعل إن لم يجدها في الشقة؟... تملك عدنان الحيرة، وشعر في هذه اللحظة أنه خسر كل شيء...

ولأول مرة يلاحظ عدنان هذه اللحظة أنه هو من بحاجة شامية، وليست هي من حاجته... فهو عندما أقدم على إنقاذها من أيدي المختطفين في العراق، لم يكن يفعل ذلك لأجلها بقدر ما كان يفعله لنفسه... كان بحاجة إلى أن ينقذ تلك الفتاة، كان بحاجة إلى أن يجد سببًا يحيا لأجله، وكانت شامية هي هذا السبب، كان بحاجة لأن يشعر أنه أنقذ حياة... ليعوض عدم قدرته على إنقاذ حياة من أحب... كان يشبه المغامر الذي لا يملك شيئًا يخسره، فقط مستعد للإقدام على فعل أي شيء دون روية أو تفكير محاولاً الإجابة على تساؤلات نفسه... هكذا وقف في منتصف الطريق يفكر في حقيقة ما حدث منذ أن سمع صوتها في الهاتف تستغيث، شعر أنه أراد أن يستغل الفرصة، ويصعد إلى مركب نجاة عبر محيط باحثًا عن حياته فيه ليعيدها إليه، تاركًا خلفه الحياة التي كان يعيشها غير عابئ بها...

وبعد قليل عاود الرجوع لشقة صديقه، وعندما وصل الشقة، ونادها، ولم ترد عليه، وبحث عنها، ولم يجدها تأكدت له ظنونه أنه خسر القارب في المحيط ...

عاد عدنان للشقة واجم الوجه، كمن به كرب عظيم، ويشعر بضيق صدره... فدخل الشقة وجلس على مقعد مواجه للشرفة، التي كانت تغطيها ستائر بيضاء طويلة، وبينما يجلس في حزن شديد، وقد اشتد عليه ألم اختفاء شامية، وألم تلك الشهامة العربية التي راحت تؤنبه كيف لم يستطع حماية من تعهد بحمايتها ...

إلى أن جمعت الآلام فوق رأسه كل تلك الصعاب، والمشكلات التي حدثت وبدأت تفتك به وتجعل قلبه ينزف الدمع الذي لم يسمح له بالنزول من عينيه، لكن نسمة رياح هبت فجأة من الشرفة، فلمست وجهه بريحا الطيب، فنظر إلى الشرفة ... باندهاش وشعر في نفسه أن نسمة الهواء تلك تدعوه إلى الشرفة... وكأنها تخبره أن أقبل، لدي ما يطيب جراحك... فذهب عدنان إلى الشرفة منساقاً خلف نسمة هواء، وعندما اقترب منها، وجد ضالته... كانت نائمة على الأرض في الشرفة، كان لصراخ عدنان في وجه شامية، وما مرت به من مصاعب خلال اليوم، أمر كافٍ ليثير الذعر في نفس الأميرة المدللة، مما دفعها للجلوس في زاوية الشرفة، وانطوت على نفسها لتجهش بالبكاء، حتى عندما نادها عدنان لم ترد عليه بسبب شدة غضبها منه... وتابعت البكاء في صمت إلى أن غرقت في النوم في مكانها، مثل الطفلة الصغيرة...

عندما رآها عدنان نزل على ركبتيه بالقرب منها وكأنه أصابه شعور لم يتحمله، ولم يصدق... كان شعور بالفرحة الممزوجة بالأمان، ثم بدأ يحدث عقله... لقد أدرك حينها أن الفتاة لم تعد مجرد طالبة في صفه يسعى لإنقاذ حياتها... بل أصبحت أكبر من ذلك بكثير...

ثم مكث في مكانه تساوره الحيرة، هل يوظفها من نومها... ثم يعود يحدث نفسه... إنها متعبة فقد كان يوماً صعباً، جلس برفقتها في الشرفة، لا يدري ماذا يفعل ولا يقدر على أن يزعجها في نومها ... وفي آخر الأمر قرر أن يحملها إلى الفراش... ثم حملها بين ذراعيه للمرة الأولى التي يضمها فيها بهذا القرب منه، كان يظن أن الأمر لن يؤثر فيه... لكن قلبه

كان يخالفه الرأي، باقترابها منه تأثر شيء في قلبه، وكان طبيعة نبضاته لم تعد ذاتها ... ثم أسرع يضعها على الفراش، ويغطيها...

وخرج من الغرفة مسرعًا، وكأنه يخشى شيئًا ما... شيئًا يخشى حدوثه، ولكنه الشيء ذاته الذي لا يمكن توقعه، ولا يمكن رده... شعر عدنان في قلبه بتجدد النبضات فيه، فهي ليست نبضات الخوف أو القلق التي اعتاد عليها... بل نبضات تشبه نبضات الحب... ولم يدر إن كان عليه أن يفرح أم يقلق، هل يفرح لأنه أحب زوجته، أم يقلق خوفًا من أن يصدق أنها حقًا زوجته، وينسى أن الزواج كان لدافع إنقاذها ولا بد أن ينتهي... قضى عدنان الليلة على أريكة خارج الغرفة التي تنام فيها شامية، غارقًا في تفكيره، لا يعرف تفسيرًا لتلك النبضات التي شعر بها، إن كان قلبه ينوي الثورة على اعتكافه بين أطلال سارة، فهل يجد في شامية كنفًا له، أم أنه سيعيد على نفسه جراحًا أخرى لا خلاص من آلامها ...

وفي اليوم التالي دخلت الشمس من نافذة الشرفة التي لم يغلقها بالأمس، لتضيء عينيه لينهض قبل شامية، في حين بقيت الأميرة نائمة في فراشها... إلى أن استيقظت لتجد نفسها في الفراش بدلًا من الشرفة... دون أن تدري كيف، فمن شدة التعب لم تشعر به عندما حملها بين ذراعيه إلى الغرفة...

عندما نهضت من الفراش وغادرت الغرفة، وجدت عدنان يعد طعام الفطور... فوقفت تنظر إليه من مكانها، كيف إن ملامح الجدية تغطي وجهه حتى حينما يعد الطعام... عندما انتبه عدنان لوجودها، شعر بالارتباك بعض الشيء، فهو يعد الطعام بنفسه كنوع من الاعتذار لها عمًا حدث بالأمس... ولكنها لم تتحدث بكلمة واحدة، ولا حتى هو... فقط دخلت المطبخ لتجلس على طاولة الطعام... رغم أنه لا يجيد الطهي إلا أنه كان حريصًا أن يكون الطعام أفضل ما يمكنه صنعه...

عندما وضع عدنان الطعام على الطاولة بدأت بتناوله فظن أن طهوه جيد، ولكن عندما تذوقه هو، أدرك أنها فقط جائعة... ثم بدأ ينتظرها لتبدأ بالحديث، لكنها لم تفعل... فبدأ هو بالحديث:

- هل أعجبك الطعام؟

توقفت شامية عن الأكل وصمتت برهة ثم قالت:

- إنه... سيئ.

لم ينصدم من رد فعلها، فهو يعرف أنه سيئ، ولكنه شعر أنها لا ترغب بالحديث معه... فقام من على الطاولة يعد الشاي، لكن الفتاة كانت قد أنهت فطورها، وقامت من على الطاولة عائدة إلى غرفتها في صمت... وقبل أن تدخل الغرفة استدارت، وسألت عدنان:

- متى أعود للمنزل؟

لم يملك عدنان ردًا على السؤال، وشعر بالضيق في نفسه فهو لا يدري ماذا يخبرها، أو ماذا يقول؟ ولكنه عاد يستجمع قواه، وأخذ نفسًا عميقًا ثم أطلق تنهيدة، وقال:

- في أقرب وقت نستطيع فيه الذهاب لتركيا...

نظرت إليه الفتاة وقد بدا عليها أنها لم تشعر بالارتياح لكلماته... ثم دخلت الغرفة، وأغلقت الباب... شعر عدنان بالضيق فهو لم يستطع أن يبلغها اعتذاره عما حدث، ولم يمتلك الفرصة حتى للحديث معها...

دخلت شامية إلى غرفتها وبسبب شدة الضيق، وشعورها بقلّة الحيلة، لجأت للفراش هروبًا من التفكير، كعادتها تبحث عن الهروب من التفكير في النوم...

بينما بقي عدنان في الخارج يحتسي كوب الشاي الذي أعده... مرت ساعات الصباح والظهيرة وكلاهما يجلسان في الشقة، ولم تغادر شامية غرفتها... إلا أن عدنان كادت الوحدة أن تذهب بعقله من شدة التفكير في الهموم المتراكمة عليه، ولم يفلح في الهروب من همومه كما فعلت شامية، فإذا به يذهب إلى غرفتها ويطلق الباب، في أول مرتين دون إجابة، وفي المرة الثالثة فتحت الأميرة الباب، ثم نظرت إليه، في انتظار أن يتحدث، ولكنه

أصابه الصمت للحظة، إلى حد أنها اندهشت لماذا طرق الباب إن كان لا يتحدث... ولكنه تدارك الموقف، قائلاً:

- أنا جائع، ولا أجيد الطهو، ما رأيك أن نخرج لتناول الطعام في أحد المطاعم المجاورة؟ إذا لم يكن لديك مانع...

نظرت إليه شامية، وبدا عليها التعجب من حديثه، فأحس عدنان أنها تستغرب الحديث، فقال:

- لا بد أنك مللت من أجواء المنزل... ولا بد أنك أيضًا جائعة، ولا ترغبين بتناول طعام سيئ كالذي أعدته في الصباح...

- سأتهيأ...

ثم أغلقت الباب، ودخلت الغرفة لتستعد للخروج... أخذ عدنان بعدها نفسًا عميقًا، وكأنه قد أنهى تسلق أحد الجبال، فالحديث إليها لم يكن سهلًا كما تخيل... أو لم يعد سهلًا بعد تلك الوخزة في قلبه...

ثم جلس ينتظر إلى أن خرجت من الغرفة، ترتدي الثياب نفسها، فتذكر أن الحقيبة في حوزتها لا تحتوي على ثياب لها... فقرر في نفسه عندما يخرج أن يشتري ثيابًا لها...

اقتربت من الباب ولم تتفوه بكلمة... فقال:

- هل نذهب؟

- حسنًا...

ثم خرجا من المبنى يسيرون على أقدامهم في الطرقات، وفي عقل عدنان صراع هل أعتذر، أم لا أعتذر، وإذا أردت الاعتذار كيف أفعل ذلك؟... بينما كان ما يجول في خاطر

شامية شيء آخر كانت تتذكر جولاتها في شوارع إسطنبول برفقة أصدقائها، وتتساءل هل ما زالوا يجوبون شوارع إسطنبول بدونها؟... ثم تابعا السير في صمت إلى أن عثروا على مطعم قريب، انتبه إليه عدنان ولكن شامية كانت غارقة في الفكر، فلاحظ أنها لم تنتبه لوجود المطعم... فقال:

- ما رأيك أن نتوقف هنا، يبدو هذا المطعم جيدًا...

فالتفتت إليه، وأومات برأسها موافقة... كان مطعمًا صغيرًا للوجبات السريعة، وكانت طاولاته متوافرة في خارج المطعم، فجلس الاثنان إلى أحد الطاولات في الخارج وطلبًا الطعام، لكن شامية كانت ما تزال تائهة في التفكير.

ظن عدنان أنها غارقة في التفكير فيما مرت به، ولأنه يعلم جيدًا كيف تكون الأفكار عندما يمر المرء بكل تلك الصعاب، فحاول أن يسرقها من تلك الأفكار، ولكنه لم يدري ماذا يفعل؟ ولا يستطيع أن يتابع النظر إلى عينيها التائهتين دون أن يحرك ساكنًا... ثم تذكر المطعم الذي قالت له إنه أنقذها من اللص عندها، وتذكرها، هي ورفاقها في إسطنبول عندما كانوا يتحدثون عن تحرير العالم من الفساد... وتذكر أيضًا كيف كان حماس الفتى الذي كان يجلس معهم في الدفاع عن فكره... فقال، محاولًا جذب انتباهها:

- أتعلمين... صديقك هذا الذي كان يدافع عن حقوق المستضعفين عندما كنتم في ذلك المطعم في إسطنبول...

انتبهت شامية لكلامه، ولم تفهم شيئًا... وبدا عليها الاستنكار، كيف يعرف بشأن معان... ففطن عدنان لذلك، فأزال الحيرة عن ملامح وجهها قائلاً:

- في تلك الليلة التي تعرضت فيها للسرقة، لقد قلت إنك كنت خارجة من المطعم، لقد تذكرت حينها أيضًا أنني رأيتك مع رفاقك فيه، كنت جالسًا إلى الطاولة المقابلة للطاولة

التي كنت تجلسين عليها أنت وأصدقائك، وسمعتكم تسخرون من ذلك الفتى... الذي كان يتحدث عن حقوق الإنسان... لكني لا أتذكر بما كنتم تدعونه...

- معاذ... اسمه معاذ...

- نعم!! لم أعتقد أن وجهة نظركم صائبة في السخرية منه حينها...

عندها أبدت ملامح الاهتمام لحديثه مما جعله يتابع:

- أذكر جيدًا أنك لم تظهرني أي تعاطف مع هذه الفئة من الناس، ولم أفهم كيف؟

نظرت إليه شامية في عينيه ثم أجابته بهدوء، يحمل وراءه نظرة الغضب:

- أمي عراقية، كانت تقول دائمًا إن الإنسان إذا مات واقف على قدميه في وجه الطاغية، فإنه عيب في حقه أن تصرخ النساء في عزائه، أما إذا مات منحني الرأس من الخوف، فليطلق حينها النساء عويلهن... هؤلاء الذين ينتحبون بالدفاع عن ضحايا الحروب، وتقف أعمالهم على عرض صور الضحايا والأشلاء عبر وسائل الإعلام، إن كانوا حقًا يدافعون عن الحقوق فليذهبوا ليصرخوا بوجه الطغاة في ميادين القتال، فليذهبوا ويصنعوا من أجسادهم دروعًا بشرية، ليحموا من ينددون بالعنف ضدهم... أنا لا أعرف كيف ماتت أمي، لكنني على يقين أنها لم تخضع لأحد...

نظر عدنان للفتاة، وقد انتابه الذعر منها للحظة، فقد أدرك للمرة الأولى أنها ليست أبدًا الشقراء المدللة، بل إن العراقية رقية تركت فيها الكثير... ظل عدنان يحدق في الفتاة ويعيد على ذهنه كل كلمة نطقت بها... بدا حديثها وكأنه خليط من الشجاعة واليأس والأمل والخوف والقوة والضعف في آن واحد، عندها أدرك أن شامية العشرينيات من أمامه تحمل من ملامح الشام أكثر من مجرد ملامح الشكل، بل إنها تحمل ملامح الطبع أيضًا، فقد كان واضحًا في صوتها شموخ عزة الشام، وأصله...

استغرق عدنان الكثير من الوقت قبل أن يجيب على حديث شامية... حتى إنه أدرك أن رده على كلماتها يجب أن يرتقي لنفس المستوى.. فعاد يرد عليها، قائلاً:

- صديقك معاذ هذا، في الواقع هو ليس صاحب فكر بالنسبة لمن يقوده، بل هو ثلاثة أشياء، صوت، ودرع، وجثة...

- ماذا تعني؟

- في الواقع، إن غالبية الجماعات السياسية، وتلك التي تدعي الدفاع عن الإنسانية، إنهم في الحقيقة ينظرون إلى أولئك الذين ينضمون إليهم على أنهم صوت يرتفع فيزيد من شدة الصوت المطالب برغباتهم، ودرع إذا بدأت المواجهات اختبأوا خلفه، وجثة إذا انتهت المعركة كسبوا بصورتها استعطاف المزيد...

نظرت إليه شامية، ولم تعقب على حديثه... ولكنها بدت مقتنعة تمامًا به...

عندما بدأ عدنان الحديث كان يرغب في التخفيف عن شامية عبء التفكير، لكنه نسي أن حياتهما لا يمكن أن تخلوا منه، فكلاهما الألم في داخله أقوى من أن تمحوه بعض الكلمات...

نظر عدنان إلى شامية في أسى وحزن، وعاد يحدث نفسه، من أي عدم خرجت إليه، وكيف لهذه العشرينية أن تحرك في بحيرة حياته الراكدة النبض من القاع، وعاد يتساءل ماذا عن حياتها هي... هل ستكتفي عند موت أمها، وأبيها أم أنها لن تقف عند هذا الحد، وما تزال تخبئ لها المفاجآت، وهل ستكون قوية في مواجهتها كما يراها الآن أم أنها ستتهاوى مع مفاجآت الأيام...

ثم أتى النادل بالطعام، فطلب القهوة له، والليمون البارد لشامية، ثم بدأ كلاهما بتناول الطعام... وبعد تناول وجبة شهية، أكمل كلاهما اليوم على غير عادة الأيام الماضية، فتركا المطعم، وتابعا السير في المدينة، إلى أن دخلا أحد محال الثياب، واشتريا ما يكفيهم...

ومن ثم خرجًا ليتابعًا السير في المدينة... ويتبادلان الحديث... وبينما يسيران في المدينة سألت شامية:

- أين ابنتك، لماذا لم تحضرها؟

- لم أستطع، ظننت أنه علي أن أوصلك بسلام لتركيا أولاً؟

انتابت شامية لحظة من الصمت، غارقة في التفكير في شهامة الرجل، ثم قالت:

- هل تحب إنقاذ الناس، أم أنك معني بإنقاذي أنا فقط؟!

لم يفهم عدنان سبب سؤالها الغريب... فرد باندهاش:

- اعذريني ولكن لم أفهم...

صمتت شامية لبرهة ثم قالت:

- منذ أن عرفتك، وأنت تكون دائماً موجوداً عندما أقع في مشكلة، إليست مصادفة غريبة؟

- نعم إنها مصادفة غريبة نوعاً ما، لكنني أعلم جيداً أنه لو كان هناك أحد غيرك في مشكلة لسعيت لإنقاذه أيضاً...

- حتى لو اضطررت للزواج من فتاة لا تحبها؟

- لا أحبك... لا أفهم لم أكن حتى أعرفك عندما زوجتنا تلك المرأة الغريبة، كيف أحبك أو لا...

- هل تفعل الآن...

داهم السؤال عدنان إلى حد أنه أوقف سيره... وقال:

- لقد كنت مخلصًا جدًا لزوجتي سارة، وما زلت مخلصًا لها حتى بعدما فارقتني، لا أنكر أنه عندما وضعت أمام شرط الزواج لأتمكن من إنقاذك، رفضت أشياء كثيرة بداخلي ذلك، لكن كان علي أن أفعل شيئًا كي أضمن سلامتك... وقد أخبرتك أنه عندما نصل إلى ديارك سأنتهي الأمر برمته كي لا تقلقي... كان علي أن أفعل كل هذا لأنك إحدى الطالبات لدي لم يكن ليهدأ ضميري، لو كان قد أصابك مكروه في العراق... خاصة أنني سمعت صوتك، وأنت تستغيثين... خُيِّل إليّ أن ابنتي من الممكن أن تكون في مكانك...

كل هذا الرد الطويل ليهرب من السؤال الذي لا يجرؤ أمام نفسه النطق به... ولكن هم شامية كان هو أنه ما يزال ينطق بالحقيقة ذاتها التي تفتك بقلبها دون أن يشعر، فهو لا يصدق أن فتاة في العشرينيات ستفضله على شباب سنها، لكن الحقيقة أن الفتاة أرادت كثيرًا أن تخبره أنها تشعر بالأمان بقربه وتتمنى ألا يذهب، ولكنها كانت لا تستطيع أن تقول هذا الكلام حتى أمام نفسها، ولا تستطيع أن تسمع ما لم ينطق به عدنان، الذي كان متأكدًا من حديثه هذا في بادئ الأمر، أما الآن وبعد ما حدث بالليلة الماضية، عندما ذهب يبحث عنها كمن به جنة، عندما اعتقد أنه قد لا يراها مجددًا، فقد تغيرت الأمور كثيرًا، ولم يعد الأمر مجرد محاولة إنقاذ طالبة في صف اللغة العربية لديه، بل أصبحت حمايتها سببًا يعيش لأجله، وأصبح القرب منها رغبة في نفسه... لكن ينتهي الأمر عند مشهد الصمت ذاته الذي تسوء في خاتمته الأمور للآتين...

إلى أن وجدًا نفسها أمام المبنى بعد أن قادتهما أقدامهما إليه...

عندما دخل عدنان المنزل كان الهاتف يدق، فدخلت شامية الغرفة لتغتسل وتبدل ثيابها، بينما تفقد عدنان الهاتف، فإذا المتصل محمود، فأخذ عدنان الهاتف ودخل الشرفة، خوفًا من أن تسمع شامية شيئًا من المحادثة إن كانت فيها أخبار سيئة، قال محمود إنه فور وصوله لإسطنبول ذهب إلى العنوان الذي أعطاه إياه عدنان... وأن الذي يدير الأعمال الآن ويسكن في القصر هو السيد خالد شقيق السيد عمر، وأنه عندما علم بأن ابنة أخيه سالمة

آمنة في لندن برفقة عدنان، وعلم بتفاصيل القصة كاملة كما سردها له محمود أظهر امتنانًا شديدًا لذلك، ويقول إنه يرغب في رؤية ابنة أخيه في أسرع وقت ممكن...

واتفق الاثنان على أن يحجز عدنان تذاكر السفر للأراضي التركية كسائحين كما وفر له عمه التذاكر كنوع من الدواعي الأمنية، كما أخبره السيد خالد حيث برر ذلك بأن حياة ابنة أخيه معرضة للخطر، وأنه لا يريد الكشف عن هويتها إلى بعدما تأتيه سالمة...، فوافق عدنان، رغم شعوره بالريب تجاه الأمر...

أغلق محمود الهاتف مع صديقه وتركه حائرًا... لم يعرف ماذا يفعل، أو كيف يشعر؟ هل يشعر بالفرح لأنه سيوصلها إلى منزلها بسلام؟ أم يشعر بالضيق لأنها ستفارقه؟... وبينما يقف حائرًا إذا بالفتاة تظهر من خلفه... قائلة:

- ماذا هناك؟

التفت عدنان إليها، وقال بابتسامة زائفة...

- أخبار جيدة، سنحلق في أقرب وقت إلى تركيا، قد نسافر غدًا، إذا تمكن محمود من إنهاء إجراءات الحجز...

- حقًا... جيد، هل تحدثت إلى والدي؟

- في الحقيقة لا، إنه عمك الذي أجابني؟ ستكونين بخير قريبًا، لا تقلقي. والآن دعينا نستريح قليلاً فأمامنا يوم طويل غدًا...

ثم انصرف مسرعًا من أمامها كي لا يضطر للإجابة على أسئلتها...

وانصرفت الفتاة هي الأخرى إلى غرفتها... كان كل منهما في حال لا تشبه الآخر، عندما أوت شامية للفراش، لم تدر هل تفرح لأنها عائدة إلى تركيا، أم تقلق لأنها إلى الآن لم تسمع صوت أبيها... لا تطبيق الانتظار ليأت الغد مجيبًا على أسئلتها... بينما عدنان كان في غرفته

يتوسل النوم كي يأتي، لا يفهم ما أصابه من الأرق، يرتخي على الفراش ثم ينهض من مكانه، لا يفهم ما أصابه من مشاعر المراهقة التي يخجل منها في سنه هذا، ويفتك التفكير برأسه، هل ستكون بخير، هل عمها هذا قلق بشأنها حقًا...

وإن كان كذلك، لماذا لم يرسل خلفها أحدًا لنجدها من العراق؟ ... ويقول لنفسه، ربما لم يستطع أن يحسن التدبير حينما داهمه انتحار أخيه... ربما لم يتصل به المختطفون بدلًا من أخيه؟... ثم يعود يسأل نفسه، هل حقًا سأدعها تذهب؟ ماذا سيكون رد فعلها عندما تعلم أنها فقدت أبيها أيضًا؟ ... ويرد على نفسه محاولاً إقناعها... ستكون بخير، ستكون بخير، لن أكون أبدًا أفضل حماية لها بعد أبيها، بل إن عمها هو الأفضل...

هكذا انقضت الليلة دون أن يغمض لعدنان جفن، ويتمنى ألا يأتي الصباح بسرعة حتى يمنحه الوقت فرصة للتفكير أكثر ربما استطاع أن يهدئ نفسه... ولكن أتى الصباح باكراً... واستيقظت الفتاة في الثامنة، استعدادًا للرحيل... بينما خرج عدنان وقد بدا على مظهره أنه لم يذق النوم... ثم استقل على أريكة في صالة المنزل... قالت الفتاة:

- ما الأمر، هل أنت بخير؟

نظر إليها عدنان ليجيبها، لكنه لم يكذب، حتى دق هاتفه، ففزع من مكانه بقوة، والتقط الهاتف بسرعة:

- ألو...

- ألو عدنان، اسمعني جيدًا، ستقلع طائرتك لإسطنبول غدًا في العاشرة صباحًا، لقد أتممت عملية الحجز لكما في رحلة سياحية كما اتفقنا... وعندما تصلان للمطار في إسطنبول سيكون في انتظاركما سيارة مرسلة من قبل السيد "خالد"...

- نعم، نعم...

- كيف تسير الأمور عندك؟

- بخير... بخير تمامًا...

- حسنًا، وماذا عن زهرة؟

- سأخبرك حينما نلتقي...

- حسنًا، أراك قريبًا، سأكون في انتظارك ...

- حسنًا، وداعًا...

أنهى عدنان المكالمة، وقد أدرك أنه أمامه يوم آخر ليقضيه برفقة شامية، فانتابه الارتباك مجددًا، إلى حد أنه أصبح عاجزًا عن إدراك ما يريد، لم يستطع النوم في الليل؛ لأنه كان يدرك أنها ستفارقه وتعود لحياتها، والآن وقد منحه القدر الفرصة أن يقضي معها يومًا آخر لا يدري ماذا يفعل، ويشعر بالارتباك بقربها...

لم يعجب عدنان شعور الطفل الحائر في داخله، الذي لا يدري ماذا يفعل، بينما شامية التي لاحظت عليه التوتر، انتقل التوتر أيضًا لقلبها... فسألته:

- هل هناك خطب ما؟

- لا أبدًا...

- من كان على الهاتف...

- إنه محمود يخبرني أنه حجز لنا الطيران غدًا إلى تركيا...

- ألا يعلم والدي أنني هنا؟

رد عدنان بسرعة محاولاً تغيير الحديث...

- في الواقع لا أدري لم يطلعني محمود على كافة التفاصيل... فقد كان في عجلة من أمره، يبدو أننا سنقضي يوماً آخر هنا، ما رأيك أن نخرج لنتمشى كما فعلنا بالأمس، سأستعد للخروج دعينا نتمشى قليلاً...

جعلت كلمات عدنان الشك يزيد في قلب شامية، فقالت بينما يدير وجهه باتجاه غرفته:

- هل تخفي عني أمراً ما؟

ازداد قلق عدنان، وشعر بقلبه يخفق بشدة، هل يخبرها الحقيقة أم لا، فعزم أمره أن يفعل، ويخبرها أن والدها قد مات هو الآخر...

لكن عندما استدار ليخبرها، ونظر في عينيها الحائرة، لم يستطع أن يفعل، لم يستطع أن يزيد الحمل على عينيها المملأ بالأسى، فقط نظر إليها، وقال:

- لا أفعل... أريدك فقط أن تعلمي أنني أبذل قصارى جهدي لأوصلك إلى منزلك آمنة.

حاول عدنان أن يطمئن الفتاة لكن حديثه قد زاد من حيرتها فعادت تسأل:

- إن كان والدي يعلم أنني هنا، فلما لم يرسل طائرته لتقلني؟

- صدقيني، أنا لا أملك أجوبة لأسئلتك. ولكن أريدك أن تطمئني ستكونين بخير، عليك أن تثقي بي.

قال كلماته ثم ذهب من أمامها إلى الغرفة، هروباً من حديثها، وخوفاً من أن تزداد الأمور سوءاً...

ظنت شامية أنه دخل الغرفة ليهيئ نفسه للخروج كما قال، لكنه بعدما أنهكه الفكر كان قد نسي أنه طلب منها الخروج، وسلم رأسه للنوم بمجرد دخول غرفته... بينما تهيأت شامية للخروج، وظلت تنتظره خارج الغرفة، وراح الوقت يمر والغامض لا يغادر غرفته، فقامت تطرق بابه الذي انفتح أمامها بمجرد وضع يدها عليه، فهو لم يغلقه خلفه، لتجده نائمًا في سبات عميق، فوقفت تنظر إليه، وهو غارق في سباته... تريد أن توقظه ولا تستطيع، فقد كان غارقًا في نومه وكأنه لم ينم منذ فترة طويلة.... وقفت حائرة لا تعرف كيف تخبره أنها جائعة، وأرادت أن توقظه، لكنها تراجعت عن الفكرة، وقررت الدخول إلى المطبخ لتعد شيئًا، إن كان طهو عدنان سيئًا بعض الشيء، فالفتاة لا تدري أي من شؤون الطهو، فقد اعتادت أن تجلس إلى مائدة الطعام كالأمراء ثم يجوب الخدم حولها بمختلف أصنافه، أما أن تعد الطعام فلم تجرب هذا حتى في حياتها... حتى إن المطبخ أصبح بالنسبة لها أصعب من صف الفيزياء الذي كانت تتهرب منه... وبينما تقف فيه تحاول التعرف على أي شيء فيه بخلاف الخضر والفواكه التي اعتادت أن تتناولها من باعة الشوراع مع أصدقائها في أحياء إسطنبول الفقيرة لا تفقه أي شيء، وبينما هي على حالها تحاول إشعال الموقد، إذا بعدنان قد استفاق من غفوته بعد أن أيقظه صوت الضوضاء في المطبخ، عندما رآها في المطبخ، وهي لم تلحظه، قال بصوته الذي كان أشبه بزئير الأسود:

- مرحبًا...

ولشدة انشغالها بكيفية إشعال الموقد، فوجئت عندما أطلق الرجل صوته، فصرخت صرخة مدوية، وألقت ما في يدها من أشياء على الأرض من شدة الفزع... لم يفهم عدنان سبب فزعها في بادئ الأمر، لكنه عاد يتذكر أنها ربما تفاجأت بوجوده، فقال:

- آسف، لم أقصد إخافتك...

نظرت إليه الفتاة وهي تحاول التقاط أنفاسها وثم أطلقت تنهيدة الاطمئنان، وقالت:

- لا عليك...

- ماذا تفعلين؟

أجابت وهي تتذمر كالأطفال:

- أشعر بالجوع، ألم تقل إننا سنخرج...

- نعم أعتذر، فقد غلب علي النوم؟ حسنا دعينا نخرج، سأنتهياً حالاً...

- حسناً، ولكن أرجوك حاول ألا تغفو هذه المرة، فأنا جائعة جداً...

ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال:

-لا تقلقي لن أفعل...

ثم ذهب يتهياً واستعداً للخروج معاً، وبعد قليل غادراً المبنى متجهين إلى المطعم الذي تناولاً فيه الطعام بالأمس، كانت الحال في لندن غير كل تلك الأحداث التي سبقتها، كلاهما شيء من ألوان البهجة عاد لحياته، كانت تلك ألوان أضواء الحب التي أعادت للحياة معنى، فأضاءت تلك الأماكن المظلمة في قلب كل منهما، ليس هذا وحسب، بل علمتهما كيف يضيئاً تلك الألوان، حتى في أكثر الأوقات ظلاماً...

بعد أن أنهيا الطعام كما فعلاً بالأمس قرراً أن يكملأ طريقهما سيراً بلا وجهة... تماماً، كما كان كلاهما يفعل بإسطنبول... ولكن الفرق هذه المرة بالنسبة لعدنان هو أنه لا يسير وحده، ولا يسير ورأسه منكس، ووجهه مكتئب... وبالنسبة لشامية، لا تسير برفقة أصدقائها، إلا أنها تشعر بسعادة تفوق تلك التي كانت تشعر بها عندما كانت تسير برفقة أصدقائها...

أثناء سيرهما وصلأ إلى بوبات إحدى الحدائق فقررأ الدخول، وبدأ السير بين طرقاتها، وتبادل الأحاديث، قالت شامية:

- هذه الأشجار رائعة...

- نعم ولكنها ليست بجمال أشجار أتاتورك...

- هل كنت تكثر من زيارة أتاتورك؟

- نعم لقد كان المكان المفضل لي في إسطنبول.

- هل أعجبك أكثر من حدائق بابل التي كانت في العراق، كانت أُمي تقول إن الطبيعة في العراق لها طابع خاص ومميز...

- لا شيء في العالم يضاهي جمال بابل، ليس هناك حتى إمكانية لمقارنة بابل بأي مكان، إنها الجنة على الأرض بالنسبة إليّ...

- هل تقصد قبل تعرضها للدمار...

- لا، بل والآن أيضًا...

- الآن، أنت تتحدث عن منطقة مدمرة ليس فيها أي شيء يدعو للجمال.

عندما قالت شامية كلماتها كأنًا قد اقتربًا من إحدى المقاعد في الحديقة، فدعاها عدنان للجلوس، ثم أجابها قائلاً:

- إن الأوطان تشبه الأمهات الوفيات، تعطينا كل ما تملك ما دامت قادرة على ذلك، هل إذا أصابها مرض ما تخلينا عنها، وقلنا إنها لم تعد قادرة على العطاء، بالطبع لا، أنا عراقي عربي، وليست الخيانة من طباعي... ألم تخبرك أمك العراقية عن طباع العرب...

- ظننت أن هذه الطباع لم تعد بعد موجودة في العرب...

- لا يمكن أن ينتهي شيء إلى العدم، صدقيني... في نفس كل عربي، شيء عربي...

- اعذرني ولكن لم أفهم...

- أنتِ ما تزالين صغيرة، اعتاد صديقي محمود أن يفهمني على الفور، فهو يفهم قصدي قبل أن أتحدث...

بدأت علامات الاستياء على وجه شامية، فقد اعتقدت أنه يسخر من عقلها، وهذا لا يتناسب مع فتاة العزة الشامية... فأحس عدنان فيها الضيق من حديثه، فضحك ضحكة خفيفة، وقال:

- لا عليك أنا أمازحك، ما قصدته بكلامي، هو أنه رغم كل ما يظهر على أبناء الوطن العربي الآن من علامات السوء، إلا أن الحقيقة التي لا يمكن أن تمحوها الأيام، أو الأحداث هي أنهم عرب، والعربي سيد يرفض الذل، مهما أجبرته الظروف على إخفاء طباعه فهي حتمًا غالبية عليه...

نظرت شامية إلى الرجل اللغز من أمامها، هي لا تفهم، إن كان مجرد رجل عادي مستسلم لمصاعب الحياة، أم مقاتل يحارب مشاعر اليأس في داخله ليحافظ على هيئته، هل هو رجل مهردل كما يبدو مظهره، أم سيد أنيق الفكر والروح، هل هو فوضوي، أم إن كل شيء في حياته يسري بنظام... كيف يمكن أن يكون شيخًا وطفلاً في الآن ذاته، كيف يجمع في رجل واحد حكمة الهرم، وفوضوية الطفل...

كل تلك الأمور وأكثر كانت تجعل قلب الفتاة، يتمسك به أكثر فأكثر... حتى إنها لم تفكر قبل أن تطرح عليه سؤالها التالي:

- حدثني عنك؟

بمجرد أن سمع السؤال، مرت أمام عينيه كل ذكريات ماضيه المؤلم، وحاضره الأصب... فاستغرق برهة من الوقت قبل أن يرد عليها، ثم فعل:

- ما الذي تريدني أن تعرفيه، أكثر من الذي تعرفينه الآن؟

- أريد أن أعرف أكثر عنك، تبدو لي لغزًا محيرًا، والأکید بالنسبة إليّ أنك أكثر الرجال شهامة على وجه الأرض...

نظر عدنان إليها، ثم وجه نظره صوب الأرض في حزن، وقال:

- حسنًا، أنا رجل عادي جدًّا، ولم أرغب يومًا في أن أكون أكثر من رجل عادي... فقط أردت أن أحيأ أنا وزوجتي في أمن وسلام، لم أرغب في أن أكون أكثر الرجال شهامة على وجه

الأرض بالنسبة لأحدهم... أردت أن أحيا بكرامة، وسلام لا أكثر...

شعرت شامية بالأسف لأنها طرحت السؤال، فقالت:

- لم أقصد أن أزعجك...

فأخذ عدنان نفسًا عميقًا محاولًا تلطيف الأجواء ثم قال:

- لا عليك، لم انزعج كثيرًا... والآن دورك أنتِ، تحدثي عنك قليلًا؟

- هل أنت مهتم؟

أجاب عدنان بصوت متوتر:

- ماذا!! لقد طرحت عليّ السؤال، ففكرت أن أعيده، لا أكثر؟

- إذا، أنت لست مهتمًا؟

- لا أفهم قصدك، هل تشعرين أنه ليس عليك أن تخبريني عن حياتك، إن كان كذلك فلا بأس...

- لا أبدًا... الأمر ليس كذلك، ولكن عندما سألتك كنت أرغب في معرفة المزيد عنك، أقصد عن زوجي...

صعقت الكلمة عدنان الذي لم يفهم شيئًا مما يحدث، هل صدقت الفتاة أنها زوجته حقًا، كان الأمر برمته محاولة لإنقاذ حياتها لا أكثر... فسألها:

- هل تفضلين زوجًا يكبرك بما يقارب العشرة أعوام، عن زوج أفضل قريب من سنك العمري؟

عاد إلى القصة نفسها وشعرت أنه، سيعيد سرد ما سيحدث أنهما سينفصلان فور وصولها للمنزل آمنة... فأجابت سؤاله الأول كي لا تبعده عن الحديث بشكل يزعجها:

- دعني أحدثك عني... بالنسبة إلى فتاة مثلي اعتدت أن أكون أميرة في قصر أبي، صديقة طائشة برفقة أصدقائي، وفتاة هائمة في صف الفنون، وقطة مدللة بين يدي أمي، فإني ومن هذه الصفات أفضل أن أكون زوجة لشخص أشعر برفقته بأنني بخير...

كانت كلمات الفتاة تحمل تصريحًا بالغًا عن ارتياحها لفكرة الزواج من عدنان، لكن عدنان نفسه لم يصدق أبدًا ذلك، إلى أن طلبت طلبها التالي:

- أريد أن أطلب منك شيئًا؟

- ما هو؟

- أريدك أن تصطحبني إلى عشاء روماني، بصفتي السيدة شامية عدنان الأحمد... ولو لليلة واحدة، كما تعلم غدًا نصل إسطنبول وينتهي الأمر برمته هناك، وتذهب في طريقك، وأكمل أنا حياتي... ولكنني أريد أن أجرب هذا الشعور، أن أكون زوجة لرجل نبيل على عشاء روماني...

كالعادة صعق من حديثها الذي لا تنفك تداهمه به، ولكن هذه المرة كان كلامها طائش ومجنون، وفي كل الأحوال هو لن يرفض آخر طلب لها منه، هكذا برر لنفسه سر رغبته في الموافقة على طلبها...

- طلبك هذا، غريب جدًا...

- نعم أعرف...

سكت عدنان لبرهة يفكر في كلامها ثم قال في نفسه، غدًا تذهب لموطنها، وينتهي هذا الزواج، وتكمل حياتها، لن يضر الأمر في شيء، مجرد عشاء على طاولة فخمة في إحدى

الفنادق... فقال:

- حسنًا، لك ما طلبت...

- جيد، والآن دعنا نذهب لشراء ثياب للسهرة...

- حسنًا كما تريدان...

ثم غادرًا المتنزه متوجهين إلى إحدى المحال لشراء الملابس، وقرر كلاهما أن ينفذا الفكرة بكل ما فيها من جنون، بعيدًا عن كل تلك المشكلات التي تطوق عنق كل منهما، اختار عدنان بزة أنيقة، بعد أن كان قد نسي كيف يرتدي زيًا رسميًا أنيقًا... في حين اختارت شامية فستان سهرة قصير وهو الأمر الذي لم يعجب العراقي الفيور... فقال:

- إن كنت تنوين تناول العشاء برفقتي بصفتك زوجة لي، فأنا لست متأكدًا أنني قد أسمح لزوجتي بارتداء فستان يظهر مفاتها كهذا...

- ماذا، ألا يعجب الرجال أن تكون زوجاتهم أجمل النساء في الأماكن التي يذهبون إليها...
رد عليها عدنان وهو يأخذ الفستان من يدها ليعيده لمكانه، قائلاً:

- الذي يعجب الرجال، أن تكون زوجاتهم مصانة من عيون الذكور الآخرين، دعينا نبحث عن فستان آخر سيكون أفضل من هذا...

ثم بدأ يبحث معها إلى أن وجدًا فستانًا لا يبدو أنيقًا جدًا لكنه مرضٍ بالنسبة لعدنان، فهو لا يظهر مفاتها، كالأخر... واقتنعت شامية أيضًا به لأنه أعجب عدنان...

بعد أن دفع ثمن الملابس... اكتشف عدنان أن المال المتبقي بحوزته لن يكفي لحجز طاولة في مطعم فخم، ولكنه لم يخبر شامية، بذلك... بل اكتفى بحجز طاولة وعشاء في مطعم بسيط في المدينة...

ثم عادا معًا للمنزل يستعدان للخروج، ودخل كل منهما غرفته يتهياً، كان الأمر صعبًا بالنسبة لعدنان فهو لم يدر ماذا يفعل؛ إذ لم يتهياً لمناسبة مثل هذه منذ أن رحلت زوجته، فقام بتقصير ذقنه قليلاً، وارتدى ثيابه، وعندما جاء دور رابطة العنق، تذكر كيف كان ربطها يستغرق وقتًا طويلاً كل ما خرج برفقة سارة، فكانت تسرع إليه تعدها له ... فشعر بالاستياء وقرر الخروج بدونها، وغادر غرفته لينتظر خروج الأميرة منها... وكاد الليل ينقضي، وهي لم تغادر غرفتها بعد، اتصل عدنان ليؤكد حجز الطاولة في المطعم، وبينما يتحدث في الهاتف، خرجت الأميرة الجميلة من غرفتها، ولكنها هذه المرة ليست أميرة جميلة بل ملكة فاتنة... إلى حد أن عدنان لم يسعه أن ينطق بكلمة سوى التحديق بجمالها... فأى كلمة في وصف الجمال الذي يراه، لم تكن لتجدي نفعًا...

قالت الحسنة الشامية:

- هل نذهب؟

فأجاب المأخوذ بالمنظر من أمامه...

- نعم طبعًا... هيا تفضلي....

- هل ستذهب هكذا؟

- ماذا تعني؟

- ألم نشترى رابطة عنق؟

- بلى فعلنا، ولكني لم أرغب في ارتدائها، في الواقع يصعب عليّ ربطها، فقد مر وقت طويل منذ آخر مرة لبست فيها زيًا رسميًا...

- حسناً دعني أربطها لك، ستبدو أنيقًا بها...

لم يستطع أن يخبرها أنه لا يرغب بأن يضع له رابطة العنق أحدٌ غير زوجته الراحلة، فقد أرادها فقط أن تستمتع بوقتها، فقال:

- كما تريدان، سأحضرها...

ثم أحضرها، وأعطاهما لها... وبدأت تربطها له، فراح ينظر إليها من الأعلى، ويتذكر كيف كانت سارة تربط له رابطة العنق، ولكنه لم يستطع أن يرى سارة في شامية، فقد كانت الفتاة كيانًا قائمًا بذاته، من الصعب الخلط بينها وبين سارة، وإن كان عدنان قد أحبها، فهو أحبها لأجل كونها شامية، وليس لأنها تشبه سارة في شيء...

وبعدما انتهت، فإذا بها ترى الوسيم عدنان الأحمد رجلًا أنيقًا في برّة سوداء من الطراز الرفيع، ورابطة عنق أنيقة، لكنها لم تكن مأخوذة بمظهره فقط، بل كانت مأخوذة بكونه رجلًا يحمل معالم الأناقة من الداخل والخارج...

فقال عدنان:

- هل نذهب؟!...

فنظرت إليه شامية بشيء من الاندهاش وبدأت الحيرة في عينيها، وقد بدا عليها أنها استفاقت فجأة من وهلة الغفلة... فسألت:

- لماذا توافقني على أن نفعل هذا؟

- ماذا تقصدين؟

- تبدو رجلًا عاقلًا، ما الذي يجعلك توافق على طلبي في اصطحابي للعشاء؟

- أنتِ ذكية جدًا، معكي حق لقد اندهشت جدًا لطلبك عندما أردتني أن اصطحبك للعشاء، ولكنني وافقت... يمكنك القول إنني أريد الاعتذار عما حدث عندما أتينا إلى هنا، أعني ما

حدث في منزل كاثرين، والشجار عندما حاولت الخروج إلى الشارع، أريد أن أقدم الاعتذار، ولكنني لست بارعًا في قول كلماته؛ لذلك فكرت أن أوافق على طلبك، كنوع من الاعتذار عمًا حدث...

- ولكن...

كانت شامية على وشك طرح المزيد من الأسئلة، والتي يخشاها عدنان في كل مرة... فقطع كلامها قائلاً:

- ظننتك تحبين الاستمتاع بوقتك أكثر من طرح الأسئلة... هل نذهب؟

ابتسمت شامية، وقد أعجبها الحديث... ثم أمسكت بذراعه لأول مرة ليس بغرض الاحتماء بل للشعور بالدلال، كان كل شيء مرتب ومعد، فالسيارة التي طلبها عدنان، تنتظر أمام المبنى، والسائق يعرف وجهته، والطاولة مهيئة وعليها الشموع المضاءة... وبمجرد دخول المطعم، كان كل شيء مجهز كما طلبه عدنان... الموسيقى الهادئة انطلقت عند قدوم الأميرة التركية، وبكل ذوق سحب عدنان مقعدها برفق لتجلس عليه، ثم وقف يفتح أزرار بزّته الأنيقة وجلس على المقعد المقابل لها...

كان كل شيء مهياً، ومعد جيداً، سوى شيء واحد، شامية وعدنان... حتى لو كان كلاهما قد بدا مهتمًا بالآخر، فقد كانت أهم حلقة ما تزال مفقودة، وهي أن يعلم كلاهما بذلك... فمن طرف الانثى تخشى أن تصدق أنها في عشاء رومانسي برفقة زوج يحبها، ومن ناحية الرجل، يخاف حتى أن ينظر إليها فيفتن بجمالها، وهو يعتقد أنها بعيدة كل البعد عنه، فيبقي نظره بعيداً هنا وهناك، وقليل ما تتجه نظراته إليها، فانشغل بإبعاد نظره إلى حد أنه نسي أنه في أمسية شاعرية برفقة الأميرة الجميلة...

ثم يأتي النادل بالطعام، ويضعه على الطاولة بذوق، ثم يقول إن مشروبات الليلة مقدمة هدية من المطعم... ويحاول فتح زجاجة مشروب الفودكا، فيوقفه عدنان قائلاً:

oh, hold on please ... actually, we don't need this -

... thank you-

... as you wish my lord -

ثم انصرف النادل متعجبًا من طلب الرجل الغريب، كيف تكون أمسية شاعرية بدون المشروبات الروحية... هذا بالنسبة إلى نادل إنجليزي، بينما على الطاولة كان الأمر طبيعيًا... ثم بدأ عدنان الحديث قائلاً:

- المكان هنا ليس أفخم الأماكن في لندن، لكنه جيد... والموسيقى أيضًا جيدة...

- بل إنه جيد جدًا بالنسبة إليّ، يكفي أنك اهتمت بطلبي، وقد يبدو أنك بذلت قصارى جهدك لفعل ذلك، فلا أظنهم يقدمون المشروبات مجانًا لكل الطاولات...

أمسك عدنان الشوكة والسكين، واستعد لتناول طبقه وبينما يقطع اللحم من أمامه وينظر إليها، رد قائلاً:

- نعم لقد أخبرتهم أنني أريد الاحتفال بزواجي... لكي يزيد اهتمامهم بالأمسية.

عندما سمعت شامية الرد بدأت هي الأخرى تتناول الطعام، وقالت:

- ولكن لماذا رفضت المشروب، ألا تحتسي الكحول؟

- لا، هل تفعلني؟

- لا، ولكن لا أخاف من تجربة الأشياء الجديدة...

مناورة جيدة من الأميرة في التباهي بطاقتها العالية، لكن كان رده عليها أكثر روعة... إذ لم يغضب أو يثور، بل ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم قال:

- جيد...

- ما هو الأمر الجيد؟

- أنك لا تخافين تجربة الأشياء الجديدة...

- ماذا تقصد؟

- لا شيء، جيد أنك لا تخافين تجربة الأشياء الجديدة...

أحست شامية في نبرة صوته السخرية، فقالت بصوت هادئ:

- أتسخر مني؟

فضحك عدنان، لأول مرة منذ أن عاهدته الفتاة، الوسيم الجاد يضحك، ربما كانت تلك المرة الأولى منذ زمن طويل... ثم قال:

- أنتم، معشر الشباب، تظنون أن البطولة تكمن في عدم الخوف من أي شيء، فتنسبون كل أفعالكم إلى جملة "أنا لا أخاف"... ما المخيف في احتساء كأس أو اثنين من الخمر، لن يضر الأمر في شيء، لكن الفكرة في إيمانك بذاتك، إن إيمان المرء بذاته ينبع من إيمانه بمعتقداته وعقائده، إنها تشبه قواعد محددة لحياته، وكلما زاد تمسك المرء بتلك المعتقدات زاد تمسكه بهويته ورضاؤه عنها...

- ما الأمر الممتع في كون الرجال معقدين؟

- ماذا تعنين؟

- أعني لماذا عليكم أن تكونوا دائماً صارمين، مقطبين الوجه، تظهرون بصورة المنشغل الذي لا يملك الوقت، الذي لديه قواعد وقوانين لكل شيء؟

نظر إليها عدنان وبدا له أنه إذا فتح الجدل في هذا الأمر فقد ينتهي الأمر بالأمسية التي أنفق عليها كل ما معه من مال، ستفسد لا محال، ففكر في حيلة ينهي بها الجدل دون أن يجعل الأنتى التي أمامه تشعر بأنها انهزمت، فعندها لن ينال سوى المشكلات، وأن أحست أنه يسخر منها عندها لن يفسد الأمسية فقط بل سيفسد كل شيء، فهو يدرك جيدًا أن للنساء طابعًا خاصًا... فقال وقد رسم على وجهه ملامح الجدية:

- أتعلمين، أنتِ محقة تمامًا معظم الرجال يميلون لأن يكونوا معقدين، خاصة عندما يتجاوزن الأربعين... لكن دعينا نقول إنه فيما يتعلق بموضوع الخمر، حسنًا يمكننا القول إنني رجل مسلم ملتزم لا أحتسي الخمر...

اكتفت شامية بنظرتها التي تعبر عن فرحتها بالنصر... وتناولت بيدها شوكة من أمامها وغرستها في قطعة اللحم التي كانت تقطعها بيدها الأخرى، من ثم توقفت فجأة عن قطع اللحم، ونظرت لعدنان بينما يتناول طعامه، وكأنها تفكر في شيء مهم، ولاحظ ذلك عدنان فنظر إليها وعرف أنها على وشك أن تسأل سؤالًا يداهمه كالعادة، وقد فعلت:

- ما المميز في علاقة الزواج بين رجل وامرأة، الذي قد يدفع أحد الطرفين ليقضي عمره وحيدًا إن فارقه الآخر؟

بضع كلمات كانت كفيلاً لتنقل عدنان بسرعة الضوء، إلى كل تلك اللحظات السعيدة التي قضاها برفقة سارة، منذ أن تعرف عليها...

لم يعرف من أين يأتي بالكلمات ليرد على سؤال شامية، وأي كلمات ستتنصف حبه لراحلته... فأطلق تنهيدة، ثم أجابها قائلاً:

- إن قصص الحب التي تشاهدونها في التلفاز، أو حتى قصص العلاقات الاجتماعية، لا تشبه الواقع في أي شيء، وعلاقة الزواج لا تكون مميزة إلا إذا آمن بها كلا الطرفين، عندها فقط يستطيعان أن يحققا السعادة، وتكون العلاقة بينهما أعمق بكثير من أن تصفها

الكلمات، إنها تشبه تحول روحين إلى روح واحدة، إلى حد أن كليهما يصل لدرجة، أنه لو أخبره الآخر في وجهه أنه يكرهه، سيعرف أنه يكذب... هي لا تشبه تلك العلاقات في التلفاز التي تخلو من الخلافات والمشاحنات، بل إن الخلافات تحدث، لكنها خلافات حلوة المذاق... لا تؤثر في دفة الحياة التي يعيشانها... يتحول الأمر إلى هواء يتنفسه المرء، فهو يتنفس حينها وجود شريكة في حياته...

قال عدنان كلماته ثم بدأ ينظر للفتاة الجميلة من أمامه التي بدت مأخوذة بتعابيرها، ثم انطلقت موسيقى هادئة، فحاول الهروب من نظراتها الحانية بالتعليق عليها قائلاً:

- أعشق الموسيقى، كم هي رائعة...

ولكن قطع كلماته صوت شامية، وقد تبدلت نظراتها الحانية، إلى نظرة القسوة قائلة:

- لماذا لم تنتقم؟

أنزل سؤالها المفاجئ بمسامح عدنان العجب، وبنظراته الاستنكار... وظل برهة من الصمت يحاول استيعاب ما قالتها الفتاة... ثم قال:

- أنتقم؟!

ولكن أدهشه أكثر ردة فعلها الهادئة؛ إذ بدأت بالتقاط السكين والشوكة وعادت تقطع اللحم في طبقها بهدوء شديد، بينما تقول وهي تنظر إلى طبقها:

- ألا يستحق الذين يجعلون حياتنا آمنة ودافئة، أن ننتقم لهم ممن تسبب في بعدهم عنا...

انزعج عدنان كثيراً من طريقة حديثها، ودون أن يتفوه بكلمة غادر الطاولة، مسرعاً إلى خارج بهو المطعم، ليقف في شرفة صغيرة مليئة بالزهور، وتعجبت شامية كثيراً من تصرفه، فهي لم تستوعب كيف يتركها وحيدة على الطاولة ويذهب بهذا الشكل... لكنها فسرت ذلك أن حديثها ربما ذكره بواقعة اغتيال زوجته، فالتهمت في نفسها له الأعذار...

من ثم استدار عدنان ينظر للطاولة التي تجلس عليها، وقبض يده بشدة، محاولاً السيطرة على أعصابه، في حين لم تفهم شامية ما الذي حدث... ثم عاد مسرعاً إلى الطاولة... وجلس قائلاً:

- أعتذر...

لم تعقب شامية على اعتذاره بل بقيت صامته لبعض الوقت، ومن ثم طلبت إليه العودة إلى المنزل... وهو لم يرفض ذلك، فقط قال إنه سيخرج ليستدع سيارة أجرة... وتوجه إلى النادل بالشكر على الأمسية ثم طلب إليه أن يوقف سيارة أجرة، وبينما يستدير عائداً إلى الطاولة، إذا بشامية تلحق به وتضع يدها على كتف النادل من الخلف برفق، وعندما انتبه إليها، أخبرته أنه ليس مضطراً لإيقاف سيارة أجرة لهما، وأنهما سيتدبران أمرهما... ومن ثم تابعت السير إلى خارج المطعم...

فلحق بها عدنان متعجباً من تصرفها هذا، وبمجرد خروجها من المطعم إذا بها تخلع حذاءها ذا الكعب العالي وتوجهت لعدنان وقالت:

- أديك مانع أن نعود سيراً على الأقدام...

نظر عدنان إلى قدميها العارية وقال:

- أتنبين العودة هكذا؟!

- في الواقع لم أعتد التجوال في شوارع المدن بحذاء أنيق بكعب عالٍ...

ثم بدأت بالسير أمامه، وهي تحمل في يدها الحذاء، فتبعها عدنان... وعندما أحست به اقترب قالت:

- أخبرني يا سيد عدنان، هل حدث أن سرت وحدك يوماً في شوارع إحدى المدن؟

- نعم كنت معتادًا على إمضاء الوقت في السير في طرقات إسطنبول... حتى عندما كنت ببابل كنت أحب كثيرًا السير في الطرقات، كنت حينها أشعر أنني قطرة ماء في محيط عميق... نعم كان هذا هو شعوري حينما أسير في الطرقات بلا وجهة...

- نعم أنت محق، ولكن كان شعوري مختلفًا، ربما لأنني اعتدت التجوال برفقة أصدقائي، كنت أشعر أنني أحلق في السماء الخالية بحرية، حينما تعلو ضحكاتنا، أو نفعل ما يخطر ببالنا دون تفكير...

- نعم مثلما فعلت الآن عندما خلعت الحذاء، وسرتِ وحسب دون تفكير....

- هل جربت أن تفعل شيئًا يوميًا دون تفكير...

- نعم.

- حقًا، لا أصدق أنك فعلت...

- بلى فعلت، استيقظت يومًا في الصباح وكنت قد عقدت العزم على طلب يد سارة للزواج، ولم أفكر كثيرًا، في الحقيقة لم أشعر بنفسي إلا وأنا واقف على عتبة بابها، وهي تنظر إليّ في دهشة لم أعهد لها عليها من قبل، بعد أن سمعتني أطلب يدها للزواج، كانت الدهشة نفسها على وجهي، فأنا أيضًا لم أصدق حينها أنني نطقت تلك الكلمات ...

أبدت شامية أعجابها بذلك كثيرًا:

- هذا لطيف جدًّا، يا سيد عدنان... اليوم لا أستطيع أن أصدق ما أسمع...

- لم تعرفيني في صغري على كل حال، كنت متهورًا حتى أكثر منك أنت ورفاقتك.

- لا أصدق، أنا وأصدقائي لا يضاھينا أحد...

- هيا كفاكي تفاخرًا بأصدقائك.

ضحكت شامية ضحكة جميلة، ثم قالت بصوت متهدج:

- اشتقت إليهم...

فشعر عدنان بالضيق قد نال من قلب رفيقته، وشعر أن الطريق قد طال وهي تسير بدون حذاء، فقال:

- حسناً، يكفي هذا الآن، انتعلي الحذاء أو نوقف سيارة توصلنا إلى المنزل...

- لا بأس، في الواقع السير هكذا مريح أكثر من السير في هذا الحذاء...

- إذن دعينا نأخذ سيارة الآن؟

- لا أرغب ولكن إن كنت قد تعبت من السير بإمكانك استدعاء سيارة، لكني أريد أن أكمل الطريق سيرًا.

لم يفهم عدنان سر إصرارها، ولم يفسره بشيء سوى العناد المفرط، فرد قائلاً:

- أنتِ عنيدة...

- وأنتِ أيضًا!

توقف عدنان عن السير، وتعجب من ردها، حتى إنه لم يرد من شدة صدمته من جديتها في القول، وبدا عليه صمت الاندهاش، فقبل أن ينطق بكلمة واحدة، استدارت شامية لتنظر إلى ملامح وجهه المليئة بالحيرة، ثم عاودت النظر أمامها قائلة:

- لا تستغرب هكذا، قلت إنك وافقت على الخروج برفقتي الليلة، لتقدم الاعتذار عما بدر منك، عندما حاولت مغادرة الشقة، لكن عنادك لم يسمح لك أن تفعل، أنت حتى لم تقل

آسف...

ابتسم عدنان ابتسامة صغيرة لما شعر في نفسه من سذاجة ما تقوله الفتاة، ثم بدأ بمتابعة السير إلى أن وقف بمحاذاتها، من ثم قال في هدوء تام:

- أنتِ محقة تحليك ممتاز، لكنه ليس صعباً أبداً، ومن السهل جدا اكتشافه، وأعتقد أنني قد أدبت اعتذاري عندما وافقت وصحبتك إلى هناك.

ثم تابع السير إلى أن أصبح أمامها، جعلها هذا تستشيط غضباً، فقالت:

- لكنك أفسدت الأمر، لقد تركتني هناك على تلك الطاولة جالسة بمفردي، هذا غير لائق أبداً...

لم يلتفت عدنان لها ولم يرد على كلماتها، مما زاد من غضبها عليه، فاندفعت باتجاهه مسرعة ثم وقفت أمامه فجأة، تنظر إليه بغضب شديد، في حين لم يصدر عنه أي رد فعل سوى النظر في عينيها الزرقاء التي تشع غضباً، وصمت قليلاً ثم أطلق كلمة واحدة:

- آسف.

ثم تابع السير من أمامها، وهو مدرك تماماً أنه جعلها تصل إلى مبتغاها، فهو كرجل يفهم أنه ما لا تدركه بعض النساء أن الكلمات لا تعني شيئاً أمام الأفعال، ولكنه لا يعلم أن كلمة قد تشعل نيران حرب النساء، وكلمة قد تخمدها...

شعر بها ما تزال تقف في مكانها لم تتحرك، فظن أنها ما تزال غاضبة، فاستدار قائلاً:

- ماذا الآن؟

- دعنا نقف قليلاً، لم أعد أقوى على السير.

- حقًا من يتحدث، هل هذه الفتاة التي تجوب شوارع إسطنبول سيرًا على الأقدام برفقة أصدقائها.

نظرت شامية إلى الأرض، وبدى عليها الأسى من كلماته. في هذه اللحظة وقع عدنان أسير أخطر أسلحة النساء على الإطلاق، وهو ضعفهن... فاقترب منها قائلاً بصوت منخفض:

- حسناً إذن، انتعلى الحذاء الآن، سأحاول العثور على سيارة.

- أي سيارة في هذا الليل، لقد اقتربنا من الفجر، ويبدو أنك لم تلاحظ أننا على بعد قدمين من المنزل، انظر أمامك، إنه هناك سأكون بخير.

نظر عدنان إلى المبنى، فإذا هو أمامه، وقف يسأل نفسه كيف لم ألاحظ، وبينما يقف يحدث نفسه، إذا بذات القدمين العاريتين تتقدم السير من أمامه، في إرهاق شديد.

بينما تنظر شامية إلى الطريق الذي ستعبه، إذا بها تشعر بذراعيه تحملانها عن الأرض...

- حسناً، لن أحتمل أن تسيري خطوة واحدة هكذا...

نظرت إليه في صمت، ولم تعقب ولم تشعر بشيء سوى أن منقذها يتابع عمله الذي بدأه منذ يوم التقته أول مرة، فالرجل الذي لا طالما كان معني بحمايتها وراحتها ليس جديداً عليه أن يصدر منه هذا الآن، إلا أن ذلك الشعور بقربها منه، أكد على مشاعر العشق في قلبها، وجعلها واثقة منها...

ظل عدنان يحملها إلى أن وصلا المصعد في صمت، ثم تحدث أخيراً:

- لا أفهم ما سر عنادك هذا، انظري ماذا فعلت بقدمك.

وبعد قليل كان المصعد قد توقف، ووصلا إلى باب الشقة، عندما دلفا قال عدنان:

- غداً سيكون يوماً شاقاً، أقترح أن تغسلي قدميك وتخلدي للنوم الآن.

لم تستجب شامية لاقتراحه فرغبتها في الحديث كانت أقوى:

- تشاجرت مرة مع أمي بشأن عملها، فقد كنت أكره سفرها المتكرر وتركها لي، أخبرتها أنها تعتنني بالفقراء والمشردين أكثر مني، فردت عليّ بغضب، كيف لفتاة مثلك أن تشعر بما يشعر به أولئك الناس، كيف لك أن تشعرني بطفل يسير بقدمين عاريتين في طريق صخري تحت حرارة الشمس، هذا أهون ما يمكن أن يتحملة أولئك الذين نعتهم بالمشردين... أردت أن أجرب ذلك، ربما أردت التجرد من الرقي لأشعر بما تحدثت عنه، على الرغم أنني لم أسر تحت الشمس الحارقة وشوارع لندن ليست بالطرق الصخرية إلا أن ذلك كان مؤلماً، قالت أمي إنه إذا لم يكن لديها ما تقاتل لأجله في الحياة فلا معنى لحياتها، هذا ما كانت تقاتل لأجله أمي، كانت تقاتل من أجل آدميتها، حتى إنها تركتني أنا وأبي من أجل ما آمنت به، الكل يدفع ثمن آدميته هذه الأيام، أليس كذلك؟!

عادت كلمات الفتاة ترمي بعدنان في بحر الحيرة من جديد، هل هي مجرد عشرينية طائشة، أم أنها عشرينية عاقلة، نالت من عقلها المصاعب فجعلته عقلاً ستينياً، فوق حيرته فهو لم يستطع أن يرد على كلماتها، فبأي كلمات يواسيها، وهو الذي بحاجة إلى من يواسيه... ولكنها قطعت عليه تفكيره:

- لما انزعجت عندما تحدثت عن الانتقام؟

- عن أي انتقام تتحدثين؟!

- أن تنتقم لزوجتك...

- أعقلي الحديث قبل النطق به، ممن أنتقم، وكيف أنتقم، وإذا حدث وانتقمت عندها كيف أكون أمام نفسي، هل سأختلف عن مجرد قاتل غير آدمي...

- حقًا، أتعني أن انتقامك من قتلة زوجتك يسلبك آدميتك... أهذا كل ما تهتم له، هل نسيت كل ما عنيته بسببهم؟!

نظر عدنان إلى عين الفتاة، وهي مليئة بالحماس... وأحس أنها تبحث عن الانتقام هي الأخرى، فقال بصوت منخفض...

- أنت لا تفكرين في حمل السلاح وقتل أحدهم!!

- بلى أنوي...

ثم بدأت الفتاة تتحدث، واشتعلت عيناها بالحماس...

- عندما أعود لتركيا، سأطلب من والدي أن يوظف كل أمواله من أجل الانتقام لموت أمي... سأطلب أمهر المحققين، وأعود للعراق للوقوف على حادث اغتيالها، ومعرفة الجناة، وعندها سأقتلهم بيدي هاتين... سأطفي تلك النيران في قلبي، حتمًا سأفعل، وبيدي هاتين...

ومن ثم رفعت يديها الصغيرتين في الهواء تشير بهما إليه، فنظر عدنان إليهما، وتعجب كيف لها أن تظن أن هاتين اليدين الصغيرتين، والناعمتين، قد يكون لهما القدرة على حمل السلاح... وكيف سيكون حال كل هذا الحماس عندما تعود لتركيا، وتدرك أن والدها لم يعد حيًا ليمول جيش المحققين خاصتها...

فشعر في داخله بالأسى، والشفقة لأجلها... فمد يديه الاثنتين وطوق يدها المرفوعة في الهواء، ونظر لها في عينيها بنظرة تحمل العطف الممزوج بالشفقة، عندها شعر الاثنان كم أن قدرهما قريب من بعضه، كم أن الألم في نفس كليهما عميق، فكلاهما فقد أعلى ما يملك، وفجأة تحولت كل القوة في عين شامية إلى ضعف، وانكسار، وراحت الدموع تفارق عينيها، عبرة تلو الأخرى...

فمد عدنان يده يمسح عن وجهها الأبيض تلك العبرات، لا يعرف هل يواسيها أم يواسي نفسه، وكأن كل تلك الآلام في قلبه أبت عليه إلا أن تمنى ما تمنته الفتاة، وأن ينتقم هو الآخر ممن أطفأ نور حياته...

فإذا به يقول:

- أنتِ محقة تمامًا، علينا أن ننتقم، عندما تعودين لتركيا، سيحرص والدك على تلبية كل رغباتك... وسيوفر لك جيشًا من المحققين، وستعرفين من هم قتلة أمك، وستقتلينهم بيديك هاتين...

قال كلماته، وهو يمسك يديها الواهنتين بين يديه، وينظر لعينيها التي تقاوم العبرات بقوة هشة، تنهار أمامها من أبسط هجوم...

ثم قال عدنان:

- غدًا سيكون يومًا شاقًا، عليك أن تستريحي الآن، سننطلق في الصباح الباكر...

- نعم، أنت محق، تصبح على خير...

- تصبحين على خير...

واتجه كل منهما لغرفته، وانقضت الليلة كسابقتها، تحلم الفتاة بالردود على الأسئلة التي تجوب خاطرها، ويخشى العراقي لحظة معرفتها الحقيقة، ولحظة عدم استقبالها من أبيها... وكيف تكون حياته بعدما ينتهي الأمر، ويسلمها لعمها، ولا يصبح له الحق في البقاء بقربها، حتى وإن كانت أفكاره، وإخلاصه لزوجته الراحلة تأبى عليها أن يأخذها زوجة له، إلا أن ذلك الضوء الذي شع نوره في قلبه من جديد يتمنى لو تبقى بقربه....

في الصباح الباكر استيقظ عدنان على صوت طرق الباب برفق، وعندما نهض من مكانه، كانت شامية تقف أمامه، مرتدية ثيابها، ومستعدة للذهاب، ويبدو عليها الحماس التام

للرحيل... وقالت:

- ألم تشناق للعودة لحياتك؟

-... بلى.

- هيا إذن...

ثم ذهبت من أمامه لتعطيه الفرصة ليستعد للرحيل... للحظة، وهي أمامه فكر أن يخبرها أنه لا يريد أن تذهب لكن حديثها، جعله يصدق أنه قد أحسن عندما لم يفعل، وأنها الآن على الدرب الصحيح...

وبعد قليل من الوقت كان كلاهما على متن الطائرة المتوجهة لمطار إسطنبول... كان كل شيء معدًا ومجهزًا تمامًا كما دبر له عمه، فقد ركب على متن الطائرة آمنًا على الرغم من جواز سفره المزيف... وبعدها أقلعت الطائرة زاد اطمئنانه... إلى حد أنه حدث نفسه قائلاً، إنه لم يتخيل للحظة أنه سينجو، ويتمكن من العبور بجواز سفر مزيف أبدًا... فقطعت عليه شامية تفكيره بصوتها:

- نجونا... لم أخل أننا قد نجح في العبور بزواج سفر مزيف...

- حسنًا، ربما أحسن عمي التدبير...

فردت شامية، وهي تنظر لإحدى المجالات التي كانت موجودة في الطائرة:

- نعم ذلك الرجل، كان يبدو عليه إنه يحبك كثيرًا...

فنظر عدنان إليها، وأحس أنها الفرصة المناسبة ليطمئن قلبه من ناحية عمها، فسألها:

- وعمك... ماذا عنه هل يحبك كما يحبني عمي؟!

جعل سؤال عدنان عين شامية ترى أحداثًا كثيرة... من الشجار بين أبيها وعمها، وموقفه من سفرها إلى العراق، وما فعله بسامر حارسها الشخصي، لكي يمكنها من السفر رغم المخاطر... وعدم قدرتها على تفسير وصول سامر لسيارتها جثة هادمة قبل أن تختطف منها، في حين أنها ظنت أنه فاقد الوعي في القصر في تركيا... كل ذلك جعلها غير متأكدة من ردها إن كان عمها يحبها أم لا... لكنها كانت تدرك أن الوقت يتآكل وقريبًا تجد الأجوبة على كل أسئلتها، وقريبًا تعرف الحقيقة، فلم تجد ضرورة من إظهار عمها بصورة بشعة أمام عدنان خاصة أنها ليست متأكدة من ظنونها... فردت بصوت متهدج:

- نعم... كثيرًا.

زاد صوتها من الشك في نفس عدنان، وشعر على متن الطائرة أنه يسير في الطريق الخطأ، ولكن هيهات له الرجوع، لا بد أن يكمل الدرب حتى النهاية...

كانت الرحلة مريحة في طائرة مجهزة للسفر، لكنها لم تكن مريحة لكل منهما، كلاهما كان ينتظر المجهول على أرض تركيا... لكنه المجهول الذي يتوق كل منهما لمعرفته؛ فشامية تنتظر إجابة أسئلتها، وعدنان ينتظر عودته لحياته، وكلاهما يسأل في نفسه هل هذه نهاية المطاف مع الآخر...

وقطعت شامية لحظات الصمت المرير بالحديث قائلة:

- قريبًا نصل لتركيا، وقريبًا يعود كل منا لحياته...

- نعم، أخبريني، ماذا تنوين أن تفعلي غير الانتقام؟

- لا شيء، فقط سأتهيء دروسي، وأعود للتسكع في الطرقات برفقة أصدقائي...

وسأكون طالبة نابغة في صف اللغة العربية، لدي أستاذي الذي هو زوجي السابق.

ضحك عدنان من كلماتها ضحكة مريرة، فلا مفر أن يصبح الزوج السابق، ولكنه عجز أن يخبرها أنه لن يستطيع أن يكمل حياته بقربها إن لم يكن له الحق فيها، وهي أمام عينيه بعد أن شعر بوخذه الحب لها... فقال:

- عليك أن تكوني نابغة في كل حياتك، وتستمتعي بكل لحظة فيها، ولا تستسلمي للألم مهما كانت الظروف... حتى لو لم يكن معلمك، زوجك السابق...

- لست السابق بعد ...

نظر عدنان لها بدهشة، وكأن قلبه يحدثه، إنها لا ترغب في أن يكون السابق، وأحست شامية أنها قد بالغت في تصريحها، فعاودت الحديث لتغير الموضوع.

- ولكن أخبرني لما لا تكون معلمي؟

- لا أنوي البقاء في تركيا... سأعود للعراق...

ثم أرخى رأسه للوراء، واستند على مقعد الطائرة، وراح يكمل الحديث...

- سأعود إلى ذلك المنزل الذي تركته عندما قُتلت زوجتي، وسأعيد البهجة إليه والألوان، وسأقتل ذلك الخوف في داخلي ... سأحيا في بيتي بسعادة، عندها ستأتيني سارة في الأحلام، ستكون سعيدة... سأعيش فيه بسعادة مع ابنتي... لن أسمح لذلك الظلام بتغطية قلبي من جديد...

-... وستزرع في حديقة منزلك زهورَ بستان أتاتورك، حتى لا تشتاق إليه...

- نعم، سأبني سورًا كبيرًا، وفي داخله سأزرع أنواع النباتات والزهور المختلفة، التي توجد في بستان أتاتورك، خاصة تلك التي تتدلى أغصانها على الأسوار... فلا أنسى روعة ذلك المكان، وكل لحظات السكون التي قضيتها فيه...

- نعم، ستعيش بسعادة برفقة ابنتك...

قالت شامية كلماتها، وكأنها تطمئن نفسها إلى ما سيحدث، وأن الأمور ستكون على ما يرام معه... وعادت ترخي رأسها للمقعد، وهي تتمنى في نفسها لو كانت زهرة من زهور أتاتورك فيزرعها العراقي في بستان منزله...

وبعد قليل كانت الطائرة قد وصلت الأراضي التركية، وأصبح عدنان وشامية، على الأرض الأخيرة في الرحلة، فهنا تنتهي المغامرة، وهنا ينتهي ما بدأ... وظن كلاهما أن هنا تنطفئ تلك الشعلة الصغيرة التي أضاءت بالحب في قلبهما...

عندما وصلا أرض المطار كانت سيارة حرس السيد خالد في انتظار ابنة أخيه... ولكن هذه المرة لا يوجد فيها كرم، الذي نال جزاءه من سيده عندما علم بخيانتته، وأن الفتاة لم تمت في العراق، وكان جزاء سيده له من جنس عمله... فقد عثرت السلطات التركية عليه غارقاً في مركب صيده الذي اعتاد الخروج به للصيد، وشهد باقي الحرس أن كرم غرق؛ لأنه لا يعرف السباحة...

استقلت شامية، وعدنان السيارة المرسلة لهما إلى القصر في تركيا، ولكن كان كل شيء غريب على شامية، أيعقل أن والدها لا يأتي لاستقبالها بنفسه، ويرسل لها الحرس... ويستمر تقبلها لكل ما يحدث، وتكرر لنفسها، الآن أقف على حقيقة الأحداث، الآن أفهم ما يحدث... بينما كان قلب عدنان يزيد فيه الريب والشك كلما اقترب من الطريق... كلما اقتربت السيارة من المنزل زادت ضربات قلبه... كيف يكون حالها إذا علمت بأن والدها لن يكون في استقبالها...

وعندما حانت لحظة الوصول، كانت السيارة تدخل من بوابة القصر إذا بالفتاة تمد يدها الباردتين كالثلج، وتمسك بيد عدنان... وكأنها تخبره أنه لم يحن وقت الأمان بعد... فأمسك عدنان بيدها وشد عليها، في وعد منه أنه لن يتركها للأذى... ومن ثم توقفت السيارة على

باب القصر، كان يقف رجل بلحية قصيرة يشوبها الشعر الأبيض هو نفسه الذي شاهده
عدنان ينعي أخاه على شاشات التلفاز...

- شامية... ابنة أخي... لا أصدق ما أرى، لا أصدق أنك هنا..

اندفع خالد نحو شامية فور نزولها من السيارة... وبدأ يعانقها ويضمها بين ذراعيه في غير
اهتمام منها لما يفعله... ولكنه كان يعانقها، وعينيّه منشغلة بالنظر إلى الغريب الذي معها،
كما كانت عين الغريب أيضًا متوجهة إليه... وبينما يعانقها إذا بها تسأل:

- أين أبي؟

عندها أوقف خالد نظره ناحية عدنان، وأدرك من سؤالها أنها لا تدرك ما حدث لأبيها، وظن
أن عدنان هو الآخر لا يدرك... فرد عليها قائلاً:

- إنه في سفر، لكنني أعلمته بخبر مجيئك... سيكون هنا في أي لحظة...

لم يفهم عدنان سر كذبه في بادئ الأمر، ولكنه ظن أنه لا يريد أن يفاجئها بالخبر السيئ
لحظة وصولها...

فأشار العم إلى إحدى الخادمت الواقفات خلفه... قائلاً:

- خذي الأميرة لغرفتها...

ثم عاود النظر لشامية، وقال:

- اصعدي إلى غرفتك فهي بانتظارك، وقصرك يهفو إليك... وقريبًا يصل والدك...

فاقتربت خادمة تبتسم ابتسامة عريضة، ولكن لم تعهد لها شامية في القصر من قبل...
وأمسكت يدها لتأخذها للأعلى... وقبل أن تصعد، استدارت لعدنان، ونظرت إليه كأنها

تخبره أنها لا تشعر بالراحة...

وقد أدرك عدنان مغزى نظرتها... ووقف ينظر إليها، وهي تدخل القصر مع الخادمة، وتختفي من أمام نظره، والآن بحيلته فهو من أتى بها إلى هنا...

وبعدما دخلت القصر عاود النظر أمامه، فإذا برجل لا يبدو عليه أبدًا أنه استقبل خبرًا مفرحًا ينظر إليه نظرة غريبة، ويقول:

- إذن، آدم طومسون...

نادى خالد عدنان باسمه في جواز السفر بطريقة لا توحى بأنه ودود... في تلك اللحظة تراءت لعدنان صورة عمه سلطان وهو يقول: "لو كان للفتاة مشتر لما بيعت"، وتمنى في نفسه أن يكون عمه قد أخطأ فقط هذه المرة... فرد على حديث خالد الذي يبدو من أسلوبه أنه يستنكر وجوده، ووجود ابنة أخيه؛ لذلك ناداه بالاسم المزيف الذي استخدمه في السفر... فقال:

- عدنان الأحمد...

- آسف لقد أخبروني أن جواز سفرك يحمل هذا الاسم... سيغدق السيد عمر عليك بالأموال لإنقاذك حياة ابنته، لا تقلق ستكون مكافأتك كبيرة...

- كيف يغدق الأموات على الأحياء بالمال...

...

كانت تلك آخر جملة قالها عدنان، قبل أن ينقض عليه أحد الحرس من الخلف بضربة قوية، أفقدته وعيه...

كان خالد الأغا قد أعجبتة لعبة الدماء، وبعدها تلوّث يده بدم أخيه أصبح القتل بالنسبة إليه عادة مستحبة...

بينما كانت الخادمة قد أوصلت الفتاة لغرفتها، وأغلقتها عليها من الخارج...

كان عدنان قد استفاق على صدمة الماء بقوة على وجهه، فإذا به مقيد في إحدى إسطبلات الأحصنة، وأمامه خالد الأغا... وعندما تأكد أن عدنان عاد لوعيه بدأ يتحدث:

- أخبرني يا صديقي، من غيري يعرف بوصول شامية إلى القصر...

عندها كان عدنان قد تأكد من صحة شكوك عمه، وأنه وقع في الشَّرَك الذي أدرك أنه لا خلاص منه... فلم يرد على خالد قط، بقي صامتًا ينظر إليه ولا يتكلم، ويشعر في داخله بالشفقة لأجله... فهو لا يرى فيه سوى معتوه يسعى خلف الأموال، ولا يعرف القيمة الحقيقية للحياة...

فوجه خالد حديثه إلى الحارس الذي يقف بجانبه بصوت رجل كبير، ينبض بالجدية الفخمة:

- اليوم بعد انتهاء الحفل، لا أريد مشكلات... أد عمك في صمت وهدوء.

- ماذا عن صديقه، الذي أتى يخبرنا عنهما، لا بد أنه سيبلغ الشرطة عن اختفائه، وقد يتهمنا بخطفه؟!

- إنه مخبول يحب صديقه، ولا يصدق أنه قتل في العراق... إلى حد أنه يخبر الشرطة أنه موجود لدى شرفاء إسطنبول... وما دام أنه لم يعبر إلى تركيا بهويته الحقيقية فلا دليل لدى صديقه...

- حسنًا سيدي...

وبعدها خرج خالد من إسطنبول الأحصنة، بعدما اتفق مع حارسه على قتل عدنان، متجهًا إلى القصر ليتأكد أن شامية قد حجزت في غرفتها إلى حين انتهاء الحفل، ثم يلحقها بعدنان... وعاد الحارس ليقيد عدنان إلى حين تأتي اللحظة المناسبة ليقتلوه.

عندما خرج خالد وترك أحد حراسه أمام باب الإسطبل، بقي عدنان وحده مقيدًا في الداخل...

عندها فطن أنه لم يقدر شامية إلى نهاية رحلة الخطر، بل إنه قادها بيده إلى نهاية حياتها... وأحس بذلك الضوء الذي بزخت في قلبه بوادره ينطفئ ويختفي، وعاد للاستسلام، وشعر

أنها الفرصه، فرصته ليصل لسارة، وفرصة شامية لتصل لأبيها، وأمها... فظل في مكانه في سكون تام ينتظر الحارس ليدخل، وينفذ الأمر الذي منحه إياه سيده...

بينما كانت شامية قد أدركت أنها محتجزة في غرفتها من الداخل، محتجزة داخل قصر أبيها... ولكن موقفها كان مختلفًا تمامًا عما آل إليه حال عدنان، فهي لم تستسلم، إيمانًا بما قاله لها في الطائرة أن عليها ألا تستسلم مهما كانت الظروف، فظلت تصرخ من داخل الغرفة، وتخبط على الباب بشدة، ولكن دون فائدة، واستمر ذلك لساعات... ولكن دون جدوى... لا أحد يرد، ولا أحد يطلب منها أن تهدأ، ولا أحد يفتح الباب... كانت تلك المرة الأولى التي تشعر فيها بالفرع من داخل غرفتها، ليس هذا وحسب بل إنها أدركت أيضًا أن والدها لن يأتي...

كل ذلك أنك قواها، وجعلها في حالة من الاضطراب، فلا أحد تستغيث به، ولا هاتف تتصل منه، ولا أحد يرد عليها... لكن رغم هذا فهي تعلم أن هناك من سيظهر من العدم كما كان يفعل في كل مرة، ويخلصها مما هي فيه...

فتراجعت عن الباب في خوف، وجلست أمامه تحديق فيه، وتتنظر إليه بلهفة، وهي على يقين أن عدنان سيفتحه في أي لحظة... ولكن لا ينفك ذلك الشعور يخالجها أنه سلمها كالطرد، وانصرف لحياته، دون أن ينظر خلفه... ولكنها تقاوم ذلك الشك بقوة، وتشعر باليقين أنه حتمًا سيأتي...

بينما بقي عدنان مستسلمًا في مكانه... لا يحرك ساكنًا، وإذا بالحارس يدخل وفي يده سكين، عندها فطن أن اللحظة الأخيرة قد حانت، ولكنه لم يحرك ساكنًا... فقط بقي مستسلمًا على الأرض ينظر إلى الرجل الغليظ، وهو يقترب منه حاملاً سكينًا في يده، وكذلك أحس الحارس أيضًا في نفس عدنان الاستسلام التام... وأدرك أن فريسته مستسلمة لحكمه، فوضع السكين على رقبته، في تلك اللحظة التي وضع فيها الرجل السكين على رقبة عدنان، تخايل له منظر من طفولته، في ذلك المنظر تذكر نفسه، وهو طفل صغير يركض بين الأعشاب ساعيًا خلف طائرته الورقية التي أفلت حبلها من يده...

وظل يركض خلفها والحبل يتدلى أمامه، ولكنه لا يستطيع الإمساك به... رغم جهده العالي كي لا يضيع الطائرة في الفضاء غير عابئ بأي شيء من حوله، ثم تذكر تلك اللحظة التي قرر فيها أنه سيمسك بالحبل، وقفز للأعلى دفعة واحدة من على الأرض فأمسك الحبل بيده رغم بعده عنه، وأعاد الطائرة إلى زمام يده... في تلك اللحظة بالتحديد وبشعور لا إرادي، كأنه يقفز تلك القفزة من جديد، أمسك عدنان يد الرجل بالسكين، والتفت إليه بصورة مفاجئة وغرس السكين في وسط صدره...

ولم يشعر بنفسه إلا عندما نظر في عين الحارس، وهو يحدق فيه بتعجب شديد، في لحظة تحول فيها الصياد إلى الفريسة في أقل من ثانية ...

لم تعد الفريسة ترغب في كونها فريسة بعد الآن، كانت هذه المرة قفزة قوية أقوى من تلك التي أمسك فيها عدنان عنان طائرته الورقية، بل إنه أمسك عنان حياته...

كانت قفزة فوق كل شيء، فوق الآلام والأحزان، والضعف، والخوف، وفوق كل شيء...

وقف عدنان ينظر للحارس، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعندما فعل، ألقى بالسكين من يده، وغادر الإسطبل متوجهاً نحو القصر من الباب الخلفي، الذي قاده إلى غرفة مليئة بتياب الحفل التنكري الذي كان خالد يقيمه في تلك الليلة على شرف عقد اتفاقية عمل جديدة بينه وبين أحد الشركات الكبيرة في تركيا... وفي تلك الغرفة بدل عدنان ثيابه، ووضع أحد الأقنعة كي يختفي عن الأنظار، وأخذ معه قناعاً وثوبَ تنكر نسائي، كان ثوباً أنيقاً يشبه ثوب الأميرات... قال في نفسه إنه أفضل ثوب يليق بشامية...

ثم خرج من الغرفة، إلى بهو القصر مباشرة، فوجد الحفلة كانت ما تزال في بدايتها، وخالد يقف وسط ضيوفه، في زهو وتباه... لم يعر عدنان النظر إليه حينها اهتماماً خوف من أن يدرك الحرس ما حدث، وأنه قد فر من أيديهم... فتوجه مباشرة عبر السلم إلى الطابق العلوي...

وبدأ يبحث بين الغرف كلها كانت مفتوحة، وتفتح معه بسهولة، إلا غرفة واحدة كانت مغلقة بالقفل، والمفتاح فيها من الخارج... كانت غرفة شامية التي كانت تجلس في مكانها تنظر للباب، وتنتظر أن يطل منه منقذها الذي تأخر هذه المرة، وبينما تنظر للباب، في قلق إذا بأحدهم يحاول فتحه... اشتد الخوف في نفسها، ماذا لو لم يكن عدنان... ولكن بينما تنظر ناحية الباب إذا برجل يضع على وجهه قناعاً يدخل الغرفة، ويقف ينظر إليها... ولكنها انتفضت من مكانها، ورمت نفسها بين ذراعيه للمرة الأولى منذ أن عرفته... فقد عرفته رغم القناع الذي كان يضعه كزوجة تستغيث، ويظهر أمامها زوجها الذي كانت تنتظر قدومه، كانت لهفتها إليه في تلك اللحظة قوية جداً، ولم يجد عدنان سوى أن يسلم نفسه لشعور الحب في داخله، وألاً يكبحه هذه المرة... فمد ذراعيه وطوقها بهما، عندها أدركت شامية أنها بين يدي زوجها لا منقذها فقط، وأنه بعد أن طوقها بيديه، اعترف بأنه زوج لها...

ولكن كل هذا لم يمنعها من سؤالها:

- أين أبي؟

صمت عدنان للحظة، وأدرك أنه لا وقت لديه لاحتواء غضبها، وحرزها في هذا المكان فأجابها:

- دعينا نمضي من هنا، وأخبرك حقيقة كل شيء، المكان ليس آمناً لنا...

ثم منحها الثياب التنكري لترتديها، فدخلت حمام الغرفة لتردي الملابس، وعندما خرجت وضع عدنان القناع على وجهها...

وأمسك بيدها للخارج... وأخذ يمشيان إلى الطابق السفلي من القصر، وكانت المفاجأة هي أجواء الاحتفال الموجودة في القصر، لم تفهم شامية أي شيء وأي حفلة تلك، وتابعا السير وسط ضيوف الحفل في هدوء حتى لا يثيران الأعين إليهما، بينما كانت شامية تبحث عن وجه أبيها بين الحضور فما من وجه له، لا وجوه مألوفة لها سوى وجه عمها السيد خالد...

يقف بجانب إحدى النساء، يتبدلان الضحكات، ومن خلفه مباشرة صورة كبيرة لعمر ورقية وشامية الأغا، ولكنها مشوهة بشريط الحداد الأسود... وقفت شامية تنظر للصورة ويكاد قلبها يُشقُّ نصفين لما ترى أمامها، كان قناع العين يخفي عينيها الثابتة لا تتحرك من الصدمة، ولكنه لم يخفِ أسنانها التي كانت تضغط على شفثيها بقسوة إلى أن جرحتهما حتى نزيف الدماء...

كانت في قصر أبيها، لا تدري ما يحدث حولها، وتنظر في زهول، لولا أن أفاقها عدنان بصوته بعد أن أمسك يدها، وشد عليها:

- يجب أن نمضي الآن، وإلا أدرك الحرس أمرنا...

فانتبهت شامية إلى مصدر الصوت، وإلى يده وهي تمسك يدها، ونظرت إليه، وكأنها تخبره في تلك اللحظة، أنه لم يعد لها في الحياة أحدٌ غيره... في تلك اللحظة التي ظنت فيها أنها تركت وحيدة في غابة الذئاب، ناداها الصديق الوفي... ومصدر أمانها الوحيد... فمشيت معه في هدوء.

وبعدها أكمل السير في خطوات تائهة من شامية بعد أن استنتجت موت أبيها من الصورة التي وضع عليها شريط الحداد، وكان عدنان يتحرك في خطوات حذرة، وبينما يغادران الحفل إذا بأحد الحراس يتقدم إلى الداخل، ووجهه مليء بعلامات القلق، عندها أدرك عدنان أنهم علموا بما حدث، فأسرع إلى خارج القصر... وبمجرد الخروج، أوقف أول سيارة أجرة وانطلقا نحو شقته في إسطنبول...

ومن خلفهما انطلقت سيارة سوداء في هدوء المراقبة كي لا يلحظا وجود سيارة تراقبهما...

عندما وصلا إلى شقة عدنان كان الباب موصداً، وهو لا يحمل المفاتيح... فاضطر لكسر الباب بكتفه، ليدخل الشقة التي غادرها منذ أكثر من شهرين، وعندما كسره لم يستطع إغلاقه مرة أخرى...

كانت شامية لا تعي أي شيء ولا تعرف أين هي، عندما دخلت وجدت المكان غير مرتب، ويبدو كالمهجور، وضعت القناع من يدها على طاولة ووقفت تنظر في صمت... بينما رمى عدنان نفسه على الأريكة ليسترخ، ويهدئ إيقاع التفكير المتلاحق في عقله... حتى إنه من شدة وقع الأحداث بداية من الحجز مرورًا بقتل الحارس والهروب برفقة الفتاة، نسي أن يهدئ من روعها، أو يخبرها كلمة يطمئن بها قلبها... وهي لم تحرك ساكنًا، ولم تنطق بكلمة واحدة، وكأنها تخشى السؤال من هول الإجابة... تخشى أن تسأل عن أبيها فيتأكد لها صحة ما رآته في الصورة.

وكان عدنان من أمامها يرتخي إلى الأريكة، ولكن عقله لا يستطيع التوقف عن التفكير، ماذا الآن ماذا يفعل، وكيف يحميها، وإلى أين يفر بها هذه المرة، وكأن بقاع الأرض قد ضاقت به، ولكنه يعلم جيد أنه لن يصعب أبدًا على حرس عمها الوصول إليهما في شقته...

ولكن شامية لم تكن لتحتمل حبس سؤالها أكثر من ذلك، فأطلقت لسانها:

- كنت تعلم أن أبي لن يكون في استقبالي، أليس كذلك؟

زاد السؤال الهمم همًا، فقام العراقي من مكانه، ونظر إليها وأدرك أن سؤالها يحتم عليه أن يحترم عقلها، ويحتم عليه ألا يكذب عليها هذه المرة، وأن استنتاجها لمعرفته بالأمر من السابق منطقي، فلا تفسير لتهربه من الإجابة عن السؤال في كل مرة كانت تسأله فيها سوى معرفته بالحقيقة... فرد:

- نعم، ولكني لم أستطع أن أخبرك في السابق، كنت أكثر حرصًا على أن تعودني لمنزلك سالمة، وطبعًا لم أكن على علم بنية عمك...

قال عدنان كلمته، وهو مرغم عليها فلا يستطيع الكذب بعد الآن، ويوقن تمامًا في داخله أنها ستقودها إلى الانهيار التام، ولكن فوجئ برد فعلها الهادئ تمامًا، حين قالت بكل هدوء:

- هنا تنتهي الرحلة، لقد أوصلتني إلى بيتي آمنة، أديت واجبك، أشكرك لن أنسى أبدًا معروفك...

وأدارت وجهها إلى الباب استعدادًا للخروج... بينما شعر عدنان ببساطة الحياة ينسحب من تحت قدميه وهي تغادر، وأصابه الذعر الذي دفعه ليمسك يدها قبل أن تمسك هي بالباب... وخرج الغريب عن صمت الجبال ليعترف لها في المرة الأولى بالحقيقة التي كانت الفصل في حياته البائسة...

- قد تكون الرحلة قد انتهت، ولكنني لن أتحمّل الشكر الذي لا أستحقه...

لم تفهم شامية إلى ما يرمي الغامض في حديثه، فأعارته نظرة الاهتمام، كي يكمل حديثه... وأكمل عدنان:

- الحقيقة هي أنني لم أكن أنقذك، بل إنني لم أفعل، لم تكوني في حاجتي أكثر مما كنت أنا في حاجتك... لم أكن أنقذك بل كنت أنقذ نفسي... أنا لا أعلم من أنت وكيف ظهرت في طريقي، لكنني أعلم جيدًا أنني وجدت الطريق بك، فقط بوجودك، وبدافع إنقاذ حياتك، أنقذت نفسي... أنا هو المدين بالشكر... وإن كان لا يربطني بك سوى زواج مزيف باطل، فدعيني أخبرك أنني أتمنى لو كان حقيقة...

حينها بردت يد شامية كالثلج في يديه، وأمسكت بيدها الأخرى نفس اليد التي امتدت لها في بادئ الأمر واقتربت منه ووجهت ناظرها صوب الأرض، وقالت:

- أتقبل بقلب شريد لا وطن، ولا رفيق له، رفيقًا لقلبك يا سيد عدنان... هل إذا أخبرتك الآن أنني أقدم تلك العلاقة الباطلة في نظرك يجعلك هذا تصدق بها، وألا تعتبرها باطلة...

فرفع عدنان يده الأخرى وضمها إلى يديها ليصدق على ما قالت، ولكن قبل أن ينطق بكلمة واحدة، إذا بأحدهم يطرق الباب المكسور ولا قفل له، لكن عدنان لم يفسر أن أحد قد يطرق بابه الآن سوى حرس عمها القادمين بالهلاك خاصة أن الطارق بدأ يفتح الباب في هدوء...

فدفع الفتاة إلى الخلف، ووقف بجانب الباب، وبمجرد دخول الغريب انهال عليه بعدوانية، بينما، تراجعت شامية في زعر تخشى نتيجة ما يحدث... بدأ الشجار بينهما يشتد، ودفع الرجل عدنان بقوة فسقط بجبين وجهه على حافة طاولة خشبية صغيرة، فأصابه جرح في الوجه، ولكنه نهض حاملاً الطاولة نفسها، وانقض بها على الرجل دفعة واحدة فأسقطه أرضاً، وبينما يتهاوى سقط مسدسه فالتقطه عدنان ووجهه إليه، وكاد يطلق النار لولا أن الرجل صرخ قائلاً:

- شرطة!!

...-

- هدى من روعك أنت لا تريد قتل ضابط شرطة حقاً...

- أظهر هويتك...

فمد الرجل يده إلى جيب بنطاله الخلفي، وأخرج هويته، التي أثبتت لعدنان بالفعل أنه ضابط شرطة، فتراجع إلى الخلف، وأنزل المسدس من يده... بينما نهض الرجل من الأرض ومد يده إلى عدنان ليسلم عليه، وهو يقول:

- أعتذر، على الجرح...

فمد عدنان يده ليسلم عليه، ومن ثم أعاد إليه سلاحه... وانتظره ليكمل ما لديه، فقال الرجل:

- "رفيق"، اسمي رفيق، وكنت الضابط المسؤل عن التحقيق في قضية انتحار السيد عمر الأغا..

فاقتربت شامية من الخلف بفرع، وهي تصرخ..

- انتحارا!! هل انتحر والدي؟

فأمسك عدنان بيدها ليهدئ من روعها، وأكمل رفيق حديثه..

- بكل أسف آنستي، لا...

فرد عدنان عليه في تعجب:

- ما الذي تقصده بلا...

- لقد أثبت مجرى التحقيقات فيما بعد أن سيارة السيد عمر تم دفعها من على التلة من قبل سيارة أخرى، وأنه لم يقدها للأسفل بنفسه مما يعني أنه تم قتله، ولم ينتحر كما قالت التحقيقات الأولية ...

فعدت شامية تصرخ:

- من فعل هذا؟!

- سأجيبك على كل أسئلتك آنستي، ولكن اسمحي لي، أنتما لستم في أمان هنا، قريباً جداً سيصل رجال عمك، ويسوء الوضع؛ لذلك علينا مغادرة المكان الآن...

فقال عدنان:

- إلى أين؟

- سأخبرك كل شيء في الطريق.

وانطلق الجميع إلى سيارة رفيق التي كانت في الأسفل، وبدأ رفيق يوضح إلى أين الوجهة:

- سنذهب الآن إلى يخت خاص يقف عند الشاطئ، ستكونان آمنين فيه إلى حين انتهاء الأمر...

فرد عدنان:

- أي أمر تقصد؟

- سأخبرك كل شيء عندما نصل...

وبعد قليل كانا قد وصلا لوجهتهم في وقت متأخر من الليل... وهناك تقابلًا مع "لانا" ضابطة أخرى مسئولة عن القضية مع رفيق...

كان يبدو من مظهرها أنها تترقب وصولهما، وفور وصول السيارة فتحت الباب من جهة شامية، وابتسمت لها، وقالت:

- أهلا بعودتك سالمة.

ثم أخذتها إلى الداخل، في حين بقي عدنان في السيارة مع رفيق... وبدأ الحديث:

- من هذه؟

- لانا، إنها شريكتي في العمل، ومسئولة عن القضية معي...

- يبدو أنها كانت في انتظارنا.

- نحن كنا تترقب وصولكما بالهوية المزيفة إلى الأراضي التركية... كنا نعلم أنكما قادمين...

- كيف؟

- نحن نعرف كل شيء عنكما منذ وصولكما لمنزل الشيخ العراقي، بعدما فررتما من متمردي الحدود.

- وأين كنتم في رحلة المعاناة التي عشناها...

- كان كل شيء مؤمن، أنت لا تظن حقًا أنك عبرت عبر مطار لندن بجواز سفر مزيف... نحن كنا نؤمن كل شيء... لكن ظهور شامية الأغا كان سيغلق قضية قتل عمر الأغا ومحاولة اغتيال زوجته، لم تكن لدينا أي أدلة ضد السيد خالد لم يكن ذلك ممكنًا كان من المفروض أن نقبض على خالد اليوم بتهمة محاولة اغتيال ابنة أخيه، وعندها كان من الممكن أن نوجه إليه تهمة قتل أخيه...

- محاولة اغتيال أتعني أن...

- السيدة رقية عمر الأغا حية ترزق، وهي الآن على الأراضي التركية...

- وأين هي؟ لماذا لم تظهر ألم تسأل عن ابنتها؟!

- هدى من روعك يا سيد عدنان، سيحدث كل شيء في الوقت المناسب.

- كنت على وشك الموت في إسطنبول الأحصنة.

- لو لم تتحرك فجأة، وتخطف السكين وتنقض بها على الحارس، كان رجالي سيطلقون النيران عليه من الخلف... لقد كنت مُراقبًا حتى داخل قصر عمر الأغا.

- والآن ماذا؟

- ستعرف كل شيء في وقته.

فأشار عدنان برأسه موافقًا، ثم نزل من السيارة متجهًا إلى داخل القارب..

وعندما دخل، وجد شامية برفقة لانا، وبمجرد وقوع أنظارها عليه... هرعت إليه، وقالت:

- أمي حية ترزق، وهي هنا في تركيا أيضًا، ليس هذا وحسب بل إنهم الليلة سيلقون القبض على قاتل والدي أيضًا... لم تخبرني لانا من هو لكني سأذهب معهم للقاء أمي، وحضور التحقيقات حتمًا سأعرف.

ثم خفضت صوتها كي لا تسمعها لانا، واقتربت من عدنان وقالت:

- وسأنفذ ما وعدت به... سأنتقم لمقتل والدي...

فابتسم عدنان من حديثها، فقد بدت حينها كالطفلة المأخوذة بالغيظ، ولأنه على يقين تام أنها لن تنتقم من أحد...

- لا بأس، إذن الليلة تحققين رغبتك وتنتقمين، كما أن والدتك هنا لم يعد قلبك شريدًا الآن...

فنظرت شامية إليه، والتمست في حديثه أنه ظن أنها طلبت البقاء بقربه فقط؛ لأنها كانت بمفردها، الآن وقد عادت أمها، فلا حاجة لها به... كانت تنوي الصمت، وألا ترد عليه لكنها قررت أن تقضي على كل حاجز قد يحول بينها، وبينه، فقالت:

- ذلك القلب شريد بلا وطن إن لم تكن أنت وطنه...

...

- أرغب بشدة أن أتوه بقربك في جمال تلك البحيرة في أتاتورك، التي سحرك جمالها إلى حد أنه أنساك هاتفك ليقودك القدر إلي...

أكثر من أن كلماتها قد لمست قلبه من الداخل ليعيد فيه نبضات الحب تلك... لم يقدر على نطق كلمة واحدة لكن ابتسامة وجهه كانت كافية بالنسبة لها...

وجلس الاثنان يتحدثان، بينما كان رفيق ولانا يعدان للانقضاض على قصر عمر الأغا والقبض على خالد بتهمة قتل أخيه... من خلال التحقيقات في القضية استنتجت لانا أن سبب كره السيد خالد لأخيه عمر، هو عائد لأسباب نفسية، فقد كان خالد دائم الاعتقاد بأن أخيه أفضل منه، وأنه الشخص الجيد الذي لا يفعل الخطأ، كما أنه على الرغم من أن كل الدلالات تشير إلى أن والدهما كان يفضل خالد على أخيه عمر، ولهذا كتب له الجزء الأعظم من ثروته، إلا أن خالدًا كان دائم الحرص على أن تسوء الأمور بين عمر وأبيه... ولم تجد لانا تفسيرًا للقصة سوى أن أمهما كانت تميل إلى جانب عمر أكثر من خالد، وهذا لأن خالد كان ولدًا فاسدًا منذ صغره، كما أن إدمانه على الكحول، وحياته كأعزب يميل إلى الحرية وألا تربطه علاقة جدية بالنساء، وكرجل ينفق الأموال في الملاهي، وصالات القمار، تجعله أكثر قابلية لكل الأعمال السيئة، حتى لو وصل الأمر لقتل أخيه...

وبينما يقف رفيق ولانا يتشاوران في الأمر، قال رفيق:

- هل سنصطحب الفتاة معنا حقًا؟

- نعم إنه طلب أمها.

- لماذا قد تطلب السيدة رقية هذا الأمر...

- لا أدري، كما أنها قالت إنها تريد أن تلتقي عدنان قبل شامية.

- إنه حقًا طلب غريب، أترغب في رؤية الرجل قبل ابنتها...

- قالت إن علينا أن نؤمن الفتاة جيدًا، فهي ليست آمنة من عمها حتى لو كان في الأسر...

- والآن ماذا؟ لقد شارف الفجر على البزوغ.

- سننطلق فور وصول الأوامر بالتحرك، لقد قدمنا الأدلة الكافية...

وبقي الاثنان خارج اليخت في انتظار أوامر القبض على خالد الأغا، بينما كان عدنان وشامية يجلسان في الداخل، ويتبادلان الحديث:

- ظننت أنك ستنهارين عند معرفتك خبر موت أبيك.

- الآن بعد كل ما مررت به أصبح الانهيار عادة لي، الحقيقة هي أنني منهاره طوال الوقت، فلم يظهر عليّ أي تغيير...

- كنت أظن أنك تعرفين كيف تستمتعين بوقتك أنتِ ورفاقك، ألسنت مشتاقة إليهم وإلى التسكع برفقتهم...

- كنت مشتاقة لأشياء كثيرة، وكانت هناك الكثير من الأسئلة، لكن خبرًا واحدًا قضى على كل الشوق، ومنح كل الأجوبة... رفضت لانا أخباري من هو قاتل والدي، لكنني أظن أنني أعرفه، أخشى أنه قريبي الذي لم أكن آمنة في حضرته... والذي يبدو عليه أنه فجأة امتلك كل ما كان لوالدي.

- وإن كان هو هل ستظل لديك الرغبة ذاتها في الانتقام.

- نعم، بل إنها قد تزيد، سيخف العبء حينها عنه، فهو لن يتحمل العيش كقبايل.

- هل تنوين الانتقام لتخففي عبء الذنب عنه...

- لا أدري... لكنني أشعر أن الليلة سأولد من جديد، سأكون أحدًا أحبه لا أعباء، ولا مشاكل له، لن أكون الفتاة المدللة التي لا تعبأ بأي مسؤولية كما كنت، ولن أكون الفتاة التي صفعتها الحياة دفعة واحدة، وحرمتها أبيها... عندما كنت مدللة لم أعرف يومًا للحياة قيمة، ولكن بعدما اقتربت من الموت مرات عدة عرفت قيمتها...

- أنتِ محقة تمامًا، لم أعرف معنى الحياة إلا عندما اقترب الموت، كل ذلك الوقت الذي كنت أقضيه في غيابات الأحران، وكل تلك اللحظات التي عشتها في خوف بعيدًا عن

ابنتي... أنا نادم عليها الآن، نادم على أيام حياتي التي مضت في الحزن سدى...

عندها أمسكت شامية يده، وقالت:

- الآن، وقد عرفت قيمة الحياة، أريد أن أقضيها برفقة من كاد أن يؤدي بحياته لأجل حمايتي.

- بل إنه وجد حياته، في محاولة حمايتك...

وبينما يتحدثان، دخلت لانا، وكانت الأوامر قد صدرت بالانقضاء على القصر والقبض على خالد الأغا... وطلبت إلى شامية مرافقتها، الحقيقة هي أنها كانت تريد الامتثال لطلب رقية الأغا في اصطحاب شامية إلى عمها وقت القبض عليه، كانت الأرملة المقهورة تدرك تمامًا ما تفعل... أرادت لشامية أن تظهر لعمها لحظة القبض عليه ليرى بعينه كيف انقلب كل شيء عليه، وتنهار قصور أحلامه فوق رأسه، ويذوق ذل الانكسار، عندما يرى الفتاة التي حاول قتلها، تنظر إليه وهو قاتل أبيها، بعدما كانت تنظر إليه وهو أخيه...

ليس هذا وحسب بل كان في نفس رقية شيء آخر، شيء جعلها لا تظهر لابنتها قبل ظهورها لعدنان...

حانت لحظة الرحيل برفقة الضباط، قالت شامية لعدنان:

- الآن، أحقق انتقامي...

- كوني قوية.

- أتعلم، قلبي الآن ينبض بخوف، لا أريد أن يكون عمي قاتل أبي، أنا أعرف تمامًا أنك تعرف القاتل، ولكن لن أسألك من هو، لا أرغب أن تصح ظنوني هذه المرة أيضًا.

- أيًا من يكون قد فعل، فهو قاتل، ولا يستحق الشفقة، حتى لو صدقت ظنونك... فإنك لن تأخذك الرأفة به...

- أنت محق، دقائق قليلة وينتهي الأمر، وعندما أعود سأعود لك أنت، مولودة من جديد... ستكون في الانتظار؟!!

- لا أدري ولكن القدر يأبى عليّ الابتعاد، فكلما حانت اللحظة جُدد اللقاء.

- وأنا أطمئن لقدري...

انطلقت شامية، برفقة لانا ورفيق، وقوة من الشرطة، لم تكن متأكدة من الوجهة لكنها كانت مليئة بالظنون أن عمها الذي احتجزها في غرفتها داخل قصر أبيها، هو نفسه المسئول عن قتله... كانت تجلس في السيارة تنظر للطريق، وكلما اقترب السير كلما تأكدت الظنون، فالطريق الذي يسيرون فيه هي تعرفه جيدًا إنه الطريق لقصر أبيها الذي يجلس فيه عمها... إلى أن تأكد كل شيء لها بعدما توقف السير أمام بوابات القصر، وبدأت القوات باقتحامه، ومحاصرة حراس عمها بالسلاح.

عندها تأكد كل شيء بينما دخل الجميع إلى القصر بسرعة، بقيت شامية في مكانها في السيارة... كانت لديها ظنون أن عمها هو الفاعل، الآن وقد تأكدت تلك الظنون، وكأن شعورًا من خارج هذا العالم قد أصاب قلبها، هو ليس شعور فلم يعد القلب قادرًا على أن يشعر بشيء... وهو لا يشبه الألم، فالألم إن اشتد بالقلب قتله... بل هو شيء جعلها كالميت الحي... لا الصدمة... ولا الشعور يصفه...

وبعدما انتهى الضباط من اقتحام القصر وأصبح عمها في الداخل محاصرًا بسلاح الشرطة، نزلت شامية من السيارة، ودخلت القصر، عندما نظر إليها خالد شعر أن بساط الملك قد سحب من تحت قدميه... وأن سيدة القصر دخلت عريتها، فخرَّ على ركبتيه كالضبع الذي ظن أنه حاز على ملك الأسد وفوجئ به يدخل عرينه... كل خطوة كانت تخطوها كانت

تخسف بنفس الأخ الذي استباح روح أخيه... كل نظرة تلقيها إليه تقتله بألف سهم ولا يملك أن يغمض عينيه... لا يملك الأمر في حضرة أمرته... الآن أخوه الذي اعتاد أن ينقذه في المواقف العصيبة قد قتله بيده، ولن يأت لإنقاذه، الآن لا شيء سوى أحبال الذنب تطوق رقبتة... إلى أن نالت منه وشلت حركته... فانهار تمامًا، وخرَّ على الأرض متهاويًا تحت تأثير الشلل الذي أصاب لسانه وجسده، ورأت شامية في وقوفها اماماً، وعدم مد يد العون، انتقامًا كافيًا...

بينما أحاط به الجنود، وحملوه إلى الخارج من أمام ناظرها... وبقيت هي في القصر ذاته التي شهد هيمنة أخ بنيث على دماء أخيه، والذي شهد على انهيار المهيمن بالطغيان... وفي تلك اللحظة، أصبحت شامية هي ملكة القصر، والمتحكمة في كل أملاك عائلة الأغا... بينما كان الغريب ينتظر، في مكانه أن تعود له حاكمة قلبه الجديدة، والتي لم يكن يعلم أن القدر هذه المرة لن يجدد اللقاء؛ إذ بينما هو جالس داخل اليخت العائم، فتح الباب، ودخلت.. امرأة في عقود الشباب الأخيرة، مقعدة على مقعد متحرك... لم يملك أي تفسير من هي، وكيف وصلت إلى هنا، بينما نظرت إليه، ولم يكن أبدًا من الصعب عليها قراءة الحيرة في عينيه... وبدأت تتحدث:

- السيد عدنان الأحمد.

...-

- دعني أعرفك بنفسي، أنا رقية، أنا أم شامية، وأرملة عمر الأغا...

- مرحبًا.

مرحبًا بقلق، كلمة نطق بها عدنان فور مثوله أمام رقية، فقلبه الذي استعاد شيئًا من الحلم، بدأ يلح عليه أن الحلم لن يدوم...

- مرحبًا بك عدنان، أنا هنا الآن أمامك، امرأة مقعدة، لكنني أقدم لك كل ما يمكن أن تقدمه أم لأجل إنقاذ حياة فلذة كبدها من الموت المحتم... ولكن دعني أسألك إن كان يجب عليّ أن أشكرك لإنقاذ حياة ابنتي، أم لا أفعل... فأنت حتمًا لا تنتظر الشكر لإنقاذ حياة زوجتك...

عندها عاد وجلس على المقعد أمامها، بعد أن أدرك ما ترمي إليه، ورد قائلاً:

- ألم يخبرك من كانوا يراقبون أنفاسنا أنها زوجتي بشكل غير رسمي، وأنني لا أعترف بشرعية هذا الزواج...

- إذن اسمح لي يا سيدي، أن أشكرك، وأثني عليك...

ثم حنت رأسها له تعبيرًا عن امتنانها، ولكن عدنان الذي تأكد أن رغبتها ستقضي على الحلم الذي بزغ ضوؤه في قلبه، كان متمسكًا بشعاع الضوء الذي أنار حياته، فقال:

- وإن كنت أرغب بشدة في جعله حقيقة، وألا أسمع كلمات الشكر على أداء واجبي تجاه زوجتي، وأحافظ على حياتها.

- الآن أب لابنة، وأرمل لحسنة إنجليزية يطلب يد ابنتي للزواج، لكن أتظنني أرفض الطلب؟! بل أقبل بشدة.

...

قد بدأت بأسباب الرفض، وختمت بالموافقة... ولكن لأنها ترمي لأبعد من ذلك، وأدرك ذلك عدنان فلم يرد، فقط تركها تأتي بكل ما عندها:

- كيف أرفض زوجًا لابنتي عرض حياته للهلاك لأجلها، وهو حتى لا يعرفها، هل أرفضه الآن بعدما أصبح يعرفها، ويريدها... أي أم بلهاء قد تفعل.

...

- لكن أتخال نفسك تعرف شامية جيدًا، أظن أنك الآن تعي طريقة تفكيرها...

إنها أميرة قصر مدلة، تنبهر بالأشياء في بدايتها، لكنها لا تنفك تمل منها مهما ارتفعت قيمتها... لقد قضيت برفقتها شهرين بينما أنا أفنيت في قريها الدهر... هي ابنتي، وأعرفها جيدًا.

-... أتق بها.

- وهي أيضًا تفعل لكن اعذرنى، أنا مدينة لك بكل الشكر، ولكن الآن أنا أم أريد أن أحمي ابنتي من التعاسة المحتممة... إن شابة على أبواب العشرينيات لن تستطيع التمسك بالحياة مع رجل أرمل، وله ابنة، ويكبرها سنًا...

- توقفي...

كان الحديث لازعًا وكلاهما مرغم عليه... فما رقية إلا أم تريد لابنتها الوحيدة السعادة المطلقة، وحتى عدنان الذي ظن أن شامية بارقة نور أضاءت له، عاد ينظر إلى أنه بقاءه معها يدمر سعادتها... ففتاة مثلها ما يزال أمامها الكثير لتراه في الحياة، بدلًا من إفنائها في مواساة رجل تنزف منه الجروح من كل اتجاه...

عاودت رقية الحديث بعد أن أحست أن كلماتها كانت لازعة:

- اعذرنى يا سيد عدنان، اعذر أمًا ظنت يومًا أنها خسرت ابنتها الوحيدة، ويعيدها لها القدر من جديد، حتمًا أريد أن أحميها من نسمة الهواء...

أنا لا أطلب منك الرحيل عنها، بل أتيت أتمس منك ذلك فقط لأجل سعادتها والقرار عائد لك... وشيء آخر لو لم تكن عراقياً عربياً، وأعلم أن المال إن كوفئت به أهنت، لكافأتك بكل ما أملك...

ثم أدارت رقية مقعدها لتغادر غرفة اليخت، وجلس عدنان مرة أخرى بين دوامات الفكر... يفكر فيها هي... في الفتاة التي أراد أن يحبها، بالنسبة لرجل يقترب من الأربعين فإن فتاة في بدايات العشرينيات، لن تجد السعادة المطلقة في قربه كما أن الأحداث التي مرت بها، في الفترة التي قضاها برفقتها يجعل تعلقها بها أمرًا بديهيًا، كما أنها الآن، وقد استعادت ملك أبيها، وحياتها فلم تعد بحاجة لمن يحميها، وأن أمها قد قالت إنها ستنسى كل شيء بمرور الوقت، وأميرة مدللة مثلها تستحق أميرًا مثلها، لتبدأ حياتها معه، وإنما ليس من العدل أن تبدأ حياتها مع رجل قد بدأها وانتهت بالنسبة إليه، حتى وإن كان يرغب في بداية جديدة، فإنها حتمًا لن تكون كالبدء الأولى...

وبعد قليل غادر عدنان غرفة اليخت إلى الخارج ليجد رقية تجلس أمامه، وتتنظر للبحر، وتتنظر قراره، فذهب إليها، وقال:

- أتمانعين لو طلبت هذا اليخت مكافأة لي...

...-

اندهشت رقية من طلبه إلى حد أنها لم تسطع الرد مباشرة... وبعد أن استجمعت قوة تفكيرها أباحت له طلبه:

- بالطبع لا... هو لك...

فعاود الدخول إلى اليخت، وذهب إلى غرفة المحرك، وأحضر البنزين وبدأ يرشه في كل أنحاء المركب بينما كانت رقية تراقب في صمت، وعندما حاول حراسها التدخل لمنعه مما يقوم به أوقفتهم رقية وأصدرت أوامرها لهم بالألماع... وبعد قليل غادر اليخت بعد أن تأكد أنه غطى كل جوانبه بالبنزين، وطلب من أحد الحراس قداحة... فنظر الحارس إلى رقية، فأشارت له أن يعطيه ما يطلب... فأعطاه الحارس القداحة... بعدها أشعلها، وألقاها على اليخت فبدأت النيران بالاشتعال... ونظر إلى رقية، وقال:

- لا تخبريها أنني نكست بوعدتي لها ورحلت... قولي إن حادثاً وقع فاشتعل المركب بمن فيه...

...-

لم ترد رقية بكلمة واحدة، ولم تملك الرد فإن العراقي قد ختم كل الحديث... وما من كلمة في الكون قد ترد عليه فعله وتصرفه... وبدأ الحراس بإبعادهما عن مكان اليخت كي لا تؤذيها النيران... وبمجرد الابتعاد بما يكفي طلب عدنان إلى رقية أن تؤمن له السفر للعراق في ذلك الفجر، فاتصلت برفيق ليصطحبه إلى المطار، ويستقل طائرة عمر الأغا الخاصة متجهاً لأراضي العراق... وبعدها حضر رفيق بسيارته ليؤمن له الذهاب عبر المطار... وركب عدنان السيارة، وكانت الأربعة وعشرون ساعة التي قضاها في إسطنبول قد انقضت... كلما ابتعد السير اقترب من أرض المطار... شعر بشيء منه ينقص، وأنه يترك خلفه قطعة منه، وروحاً جديدة قد منحه القدر إياها لكنه الآن على الأقل، يعلم أن روحه تلك ستكون بخير بدونه... وبعدها انطلق في السيارة برفقة رفيق، دخلت سيارة لانا، التي كانت تقلها هي وشامية إلى موقع اليخت، فإذا برجال الشرطة تطوق المكان، وكان المركب قد شارف على الغرق بعد أن التهمت النيران في أقل من ثلاثين دقيقة... فنظرت شامية إليه، وبدأت تقترب ببطء وكأنها تخشى ما ترى وما تسمع، لا تصدق شيئاً مما تسمع أذنها، أو ما ترى عيناها... سوى أنها تثق بأن القدر سيعاود تجديد اللقاء كما أخبرها عدنان...

لكن القدر هذه المرة لم يفعل، لم يكن هناك عدنان هذه المرة كما كانت تظن أنها ستجده عندها انطفاً ذلك الضوء في عينيها، ووقفت دون حراك تنظر إلى المركب وهو يغوص إلى الأعماق... لم يكن حينها المركب وحده هو ما يغرق بل إن الروح التي ظن عدنان أنها ستكون بخير بدونه كانت هي الأخرى تغرق برفقته...

في خلال أربعة وعشرين ساعة انقضت، انقضى معها كل شيء... فالآن لا أمها التي تقف أمامها، ولا أصدقائها الذين يهرولون إليها، ولا شيء يعيد إليها الشعور.

وخيمت صفحة سوداء على كل الأحداث... بعدما انقضت تلك الأربعة وعشرون ساعه
الأخيرة على أرض تركيا...

...

ومر الوقت، وبعد خمس سنوات تجدد المشهد من قصر الراحل عمر الأغا... من على أبواب
القصر تخرج امرأة أنيقة في زي امرأة ارسقراطية عاملة، يختفي جمال عينيها تحت
النظارات الزجاجية، وشعرها محكوم بقوة فوق رأسها، وتتحرك بسرعة وسط الحرس
والخدم إلى سيارة سوداء فخمة... تنطلق بها إلى العمل، بينما كان القصر نفسه من الداخل
يُطبع عليه طابع الترتيب والنظام والهدوء المزوج بالفخامة، كل شيء فيه يبدو فخماً،
وجدياً... لا ضحكات، لا هرولة، لا سوء نظام.

حتى غرفة الفتاة التي كانت تشع بحيوية وجنون الشباب، تحولت إلى جناح يشبه تلك
الأجنحة الموجودة في القصور الإغريقية، مليئة بالنظام، والفخامة في كل قطعة داخل
الغرفة.

حتى الزهور في الحديقة تبدو مرتبة بشكل منظم، فحاكمة القصر الجديدة، سيدة سلبت
منها الروح، وإن النساء عاملات بالنظام إذا فقدن روحهن للحياة...

وعلى أبواب بناء زجاجي فخم توقف الموكب الذي يقل الحاكمة لتدخل إلى عرين إدارة
ممتلكاتها... من حولها يقف العاملون تحية لها... لم تكن حاملة الغضب ولكن الجدية الخالية
من الترف، فيهابها الجميع ولكن لا يخافون منها...

ودخلت لتجلس في غرفة المكتب من خلفها صورة فخمة للسيد عمر الأغا، ومن أمامها
لافتة اسمها، شامية عمر الأغا...

لم تتغير كنيته عن أبيها؛ لأنها لا تستطيع أن تنسب نفسها إلى كنية من لا تستطيع أن تثبت
صحة زواجها منه، ولطالما أرادت أن تكون تلك الكنية هي شامية عدنان الأحمد...

كانت تنقضي الأيام تلو الأخرى وهي على حالها، لم تكن هذه المرة الأميرة المدللة التي لا تنفك تنسى أهمية الأشياء... بل كانت من الداخل امرأة محطمة فقدت السبب للحياة بعد أن فقدت من توسمت فيه جمال الحياة... الآن فإن قريبا من عدنان الكأس المكسور... أصابها بالجرح ذاته... فأخذت تسير على النهج ذاته... تعيش على الكلمات التي قالها لها، وصورته المحفورة في ذهنها، وتفر من الأماكن التي تتذكر رؤيته فيها، فلا تقصد بستان أتاتورك ولا تذهب إلى المنطقة التي غرق فيها القارب... كانت تسير على نفس نهج حياته التعيسة قبل أن يلقاها في كل شيء، غير أنها لم تكن مهملة في حياتها كما كان هو يفعل، إعمالاً بطلبه منها أن تحقق النجاح، وألا تسمح لشيء بأن يعيقها مهما كانت الظروف... فقط تقضي الأيام بين العمل والقراءة... ولا شيء آخر حتى أصدقاءها توقفوا عن انتظار عودتها إليهم كما كانت، ويئست أمها من إعادة البسمة إليها، فلامح الجدية كانت تملو كل شيء، وقتلت حتى تلك البسمة على شفاهها... أما الزواج فكان أمراً النقاش غير مباح فيه، فهي ترى أنها أرملة لا ترغب في الرجال... وكلما بدأ النقاش في موضوع الزواج، ثار غضبها، وانقلب الأمر إلى كارثة في القصر. حتى بعد انقضاء خمس سنوات، فهي ما تزال على حالها لا جديد، غير أنها كانت لا تثق بأن اللقاء لن يتجدد ذلك الشعور الذي ما دام في داخلها بأن اللقاء حتماً سيكون...

وفي أحد الأيام كانت تحلق بطايرتها الخاصة إلى لندن، لعقد اجتماع عمل هناك، لندن المدينة التي زارتها في حياتها مرات عدة، ولكن لا تذكر منها سوى تلك المرة التي قضتها برفقة عدنان، عندما تناولا العشاء في المطعم، ومشت في شوارعها بقدمين عاريتين، وتلك اللحظة عندما حملها بين ذراعيه عندما أصاب قدمها التعب... لا تذكر شيئاً من اللحظات البشعة التي قضتها في منزل كاثارين، ولكنها تتذكر كيف كان عدنان دائماً في قريبا...

وبعد قليل حطت طائرة الاقتصادية البارعة في مطار لندن، فنزلت منها تخفي عينيها الشامية خلف النظارات السوداء، وتخفي عفويتها العربية خلف الرداء الفاخر، واستقبلت استقبال كبار الزوار، من ثم إلى سيارة سوداء مريحة في السفر، إلى فندق خمس نجوم، وسط حفنة من الحرس لحمايتها...

ولكنها رغم كل هذا تؤمن أن تلك المرة التي أتت إلى لندن هروبًا بالباخرة عبر الشواطئ إلى سيارة عادية غير مريحة على الإطلاق في السفر، في ثوب امرأة عراقية بسيطة، كانت أكثر راحة من تلك الرحلة الفاخرة.

ونزلت في فندق فخم سبع نجوم، كان بهو الفندق يشبه بهو قصور الملوك القدماء في فخامتها، لكنها رغم هذا لا تعبأ بشيء مما حولها...

ومشت وسط حراستها إلى الجناح الذي ستقيم فيه إلى أن يحين موعد الاجتماع... عندما دخلت الغرفة نزعت نظارتها، وجاكيًا أسود كانت ترديه، وألقت بهما على أريكة كانت في الغرفة...

ثم أدارت التلفاز حتى تهرب فيه من التفكير في ذكرى عدنان... ولكن دون فائدة، هي لا تشم الروائح الطيبة في الغرفة، بل تشم ريح تلك الليلة، لا تسمع صوت الموسيقى الهادئة في جناح إقامتها، بل تسمع صوته، وكلماته لها، لا ترى فخامة الغرفة من حولها، ولكن ترى أضواء المدينة في تلك الليلة... عندما خلعت حذاءها، ووضعت قدمها على الأرض لم تلامس السجادة الناعمة الموضوعة عليها، بل لامست ذلك الطريق الذي كانت تسير عليه عارية القدمين....

لا فائدة، ولا مهرب لها من ذكرى تلك الليلة إلى حد أنها فكرت في ارتداء سترتها، ونظارتها، والحذاء، وتعود أدراجها دون برم اتفاق العمل، لولا أن دقائق قليلة كانت تفصلها عن موعد الاجتماع...

وعندما حان موعد اللقاء كان موكب حراستها المكون من رجلين، ينتظران أمام باب الجناح، ومشت في حراستها إلى قاعة الاجتماع... طاولة مستديرة كبيرة ويتوسطها أنواع الزهور المختلفة، ويجلس عليها كبار رجال الاقتصاد بمستشاريهم القانونيين، وعندما دخلت شامية، وبدأ الاجتماع بدأ كل الحضور بتقديم أنفسهم، من بين الرجال في بزاتهم السوداء الأنيقة، والنساء اللاتي يجلسن على الطاولة في ثيابهم الفخمة كان هناك وجه

واحد مألوف لشامية، وجه رأته من قبل، وكذلك أيضًا كانت شامية مألوفة لصاحبة هذا الوجه، كانت إحدى المستشارين القانونيين المسئولة عن واحدة من كبرى مؤسسات الاقتصاد في لندن... وعندما حان دور تقديمها لنفسها قالت:

- كيت جورج ...

كانت كيت المحامية الماهرة كما قابلتها شامية في منزل كاثرين، منذ خمس سنوات، كانت قد أصبحت الآن من كبار المستشارين القانونيين...

بدأ الاجتماع ولكن كانت شامية على غير عاداتها منذ أن بدأت في إدارة عمل أبيها لم تستطع أن تكون مع الموجودين في الاجتماع بقدر ما كانت أكثر تركيزًا مع كيت، وانتهى الاجتماع دون أن تنطق بكلمة واحدة، فقط مستشاروها كانوا يتحدثون... وعندما انتهى المجلس دعى أحد رجال الأعمال الموجودين في المجلس كل الحضور إلى احتفالية صغيرة في نفس الليلة في بهو الفندق بمناسبة بدء الشراكة الاقتصادية في أحد المشروعات...

ثم انصرف الجميع من على الطاولة، بينما بقيت شامية تحديق بكيت، إلى حد أن كيت لاحظت ذلك... فابتسمت ابتسامة خفيفة باتجاه شامية، ثم أومأت رأسها لها معبرة عن الترحيب بها، وغادرت طاولة الاجتماعات...

غادر الجميع بينما بقيت شامية وحدها على طاولة الاجتماعات، تفكر في كيت، وكاثرين، وزهرة...

ثم بدأت تفكر في زهرة، وكيف يمكن أن تكون حالها... إلى حد أنها فكرت أن تذهب لزيارتها في بيت كاثرين.

عندما بدأت الحفلة في المساء، انطلقت الموسيقى الهادئة، وبدأ الرجال في دعوة النساء إلى الرقص على الأنغام الهادئة، بينما دخلت شامية الحفلة، واستقرت على إحدى

الطاولات، وبقي الحرس في انتظارها خارج الحفلة، وبينما تجلس على الطاولة إذا بكيت تأتي من بين الحضور في ثوب أسود أنيق... وجلست إلى طاولتها، وقالت:

كيف حالك؟!

بخير.. كيف هي حالك كيت، وكيف هي كاثرين؟!

ماتت، لقد ماتت كاثرين، مضى على الأمر عامان إلى الآن.

اه!! اعذريني لم أكن أعلم من قبل، ولكن كيف هي الفتاة، زهرة كيف حالها بعد موت كاثرين.

حسنًا، هي بخير حتمًا إنها كذلك برفقة أهلها في العراق، علي.. لقد أتى واصطحبها.

علي.

نعم. ع....

قبل أن تكمل كيت كلمتها الأخرى، أتى رب عملها، وقطع عليها الحديث... ألم تعجبكم الموسيقى سيداتي، ألا ترغبون في الرقص، والاستمتاع بالحفل؟

شكرًا لك، في الحقيقة لست مهتمة.

حسنًا.. أنا مهتمة.

جيد، إذن اسمحي لي كيت.

طبعًا، اعذريني شامية.

اه، طبعًا تفضلي.

وانطلقت كيت للرقص برفقة رب عملها، دون أن تكمل جملتها لشامية... بينما شامية لم تطق الجلوس في الحفل، وليس الحفل وحده بل إنها لم تطق بقاءها في لندن، أكثر من ذلك... فأمرت حراسها بإعداد الطائرة إلى تركيا، ولم تنقض الليلة إلا وهي في المطار عائدة إلى تركيا... حتى دون الانتهاء من العمل، فقط تركت مستشاريها ليكملوه...

وكانت قد وصلت الأراضي التركية مع بدايات الشروق الأولى... ومن المطار إلى قصر الأغا... في خطواتها السريعة الثابتة، ويسرع الخدم حولها من كل اتجاه، من يحمل عن يديها معطفها، ومن يسألها إن كانت ترغب في شيء... ظنت أنها بعودتها لتركيا ستنسى حديث كيت، وتنسى كل شيء، ولكن انقضى أسبوع كامل منذ عودتها، ولا جديد، لا تنفك تفكر في الفتاة، ولا تنفك تفكر في زيارة بيت عم عدنان، ولكنها تخشى من استقبالهم لها، تمامًا كما كان عدنان يشعر بأنه شريد بالنسبة إلى أهل سارة، كانت شامية تشعر أنها شريدة بالنسبة لأهل عدنان... فلا صلة تربطها بهم خاصة بعد أن أوصلها عدنان آمنة لبيتها، ولم يعد آمنًا لبيته كما كانت تعتقد...

وبعد انقضاء أكثر من أسبوع على سفرها إلى لندن، كانت تجلس إلى طاولة الطعام هي وأمها وتضيف السكر إلى قهوتها الداكنة، أضافت ملعقة، ملعقتين، وفي الثالثة، أمسكت أمها يديها، وقالت:

- أنتِ لا تحبين قوتك حلوة إلى هذا الحد...

فانتبهت شامية، وكأنها عادت من الغيابات، وقالت:

- لا بأس إنها مجرد قهوة، لا بأس أن تكون حلوة أكثر مما ينبغي...

- لم يعد هناك بأس بأي شيء بالنسبة إليك...

- دعينا من هذا أمي، أنتِ لا تريدين إزعاجي حقًا.

- حسناً عزيزتي، كما تشاءين.

سكنت شامية لبرهة، ثم تذكرت أن أمها لم تذهب إلى العراق منذ أن عادت من الحادث...
فقلت:

- أمي لما لم تعودي للعراق كما كنتِ ترغبين دائماً، أنتِ حتى لم تفكري في زيارة البلاد منذ
المرّة الأخيرة؟

فردت رقية بضيق:

- لا أريد العودة إلى الأرض التي كدت أن أفقد حياتي، وابنتي الوحيدة فيها.

- كنت أعرف أحدهم، فقد روحه فيها، ورغم ذلك كان لا يقول عنها سوى الوطن.

فظنت حينها رقية أن ابنتها أدارت الكلام إلى الحديث في سيرة عدنان، والتي لا تتحدث
عنها كثيراً، لكن أمها لا تمنعها من ذلك، بل إنها أصبحت تتمنى أن يعود عدنان، لأنها أدركت
أن حكمها في تلك الليلة كان خاطئاً... وأن عدنان كان الشيء الذي لم تكن لتنساه ابنتها، أو
تتخلى عنه... وبينما ما يزالان على طاولة الطعام، قالت شامية مفاجأة أخرى:

- أنوي السفر لهنالك، هل ترافقيني..

عندها جن جنون رقية التي كانت كثيرة القلق على حياة ابنتها، فردت بغضب:

- هل جننت، أتريدين العودة للأرض التي كدتِ أخسرك عليها...

- لا تقلقي أمي سأذهب في طاقم حراسة متكامل، لا داعي للقلق.

- لا أريدك أن تذهبي.

- آسفة أمي، لكن لا بد أن أذهب.

- شامية أنت...

- أمي سأكون بخير، أعدك.

ثم نهضت شامية من على طاولة الطعام قبل أن تمنح لأمها المزيد من المجال للتفاوض معها في نقطة السفر، وذهبت في طريق العمل كما هو الحال كل صباح، ولكنها أبلغت سكرتيرة مكتبها أن تعد لها زيارة إلى العراق بالتحديد إلى بابل، في خلال أيام معدودة... لم تكن تعرف ماذا ستقول، وكيف ستقدم نفسها لهم، لكنها لم تكن تفكر في شيء سوى رغبتها في رؤية الصغيرة، على الرغم من أنها واثقة أن الزيارة لن تترك طابعًا جيدًا لدى الفتاة، إلا أنها كانت تشعر بشيء في داخلها يدفعها للسفر إلى العراق...

عندما حانت لحظة الرحلة كانت ضربات قلبها تتزايد، وكان يزيد إيمانها أن الرحلة هذه المرة ستكون أغرب من كل تلك التي سبقتها، وعندما وصلت الأراضي العراقية، كان في انتظارها سيارة سوداء فخمة، محاطة بسيارتين للحرس، لتأمينها تأمينًا تامًا... وأعطت أوامر السير نحو بيت عم عدنان الذي نزلت فيه عندما كانت معه... من حولها كان يبدو كل شيء يعث خرابًا من الداخل والخارج، وتذكرت كلمة عدنان، عندما أخبرها أن الأوطان كالأمهات تعطينا كل شيء فهل إن أصابها داء، انقلبنا عليها... وبدأت تفكر أو لو كان هذا الداء يحصد أرواح أبنائها... أو لو كان يشوه جمالها، أو لو كان يقضي على الحياة فيها...

بعد ساعات من السير كان الجمع قد وصل مشارف المدينة التي بها منزل عمها، وبدأت ملامح الأماكن تلوح لشامية، فاقتربت من نافذة السيارة لتأخذ نظرة من كثب، للأماكن من حولها...

وعندما اقترب السير من منزل عم عدنان لاح شيء غريب أمام عينيها، سور كبير تتدلى من عليه أزهار، لكنها ليست أزهارًا عادية، بل إنها تشبه تلك التي تتدلى على أشجار متنزه أتاتورك... أمرت شامية السائق أن يوقف السير من فوره...

ونزلت من السيارة باتجاه بوابة ذلك السور، كانت البوابة مفتوحة أمام الجميع، وقفت شامية على بوابة البيت، ثم خطت خطوتين للداخل فوجدت أمامها منزلًا صغيرًا له باب زجاجي، وحديقة واسعة، ومن أمامها تلهو أطفال عدة ويمرحون، ومن أمام عينيها، مرت فتاة شابة بشعر بني طويل يتدلى على ثوبها العراقي، كانت تركض وراء الأطفال وتلهو معهم، إلى حد أنها لم تنتبه لوجود شامية، بدأت تنظر حولها فشعرت أنها في نسخة مصغرة من بستان أتاتورك، وعندها تذكرت كلام عدنان، عندما كان يخبرها أنه ينوي العودة للعراق، ويعمل أستاذًا للصغار، ويزرع في حديقة منزله أشجارًا، وأزهارًا كالتي تشبه بستان أتاتورك، ويجعل أزهارها تتدلى من على أسوار منزله، فيأتي بأتاتورك على أسوار بابل...

وبينما تقف في مكانها إذا برجل أنيق بلحية سوداء يتخللها بعض الشعر الأبيض، ونظارة زجاجية من أمام عينيها البراقتين، وجبين متبسم، يخرج من خلف الأزهار، وينظر باتجاه الباب كأنه كان في انتظار أحدهم... رجل في كل مرة كان يسقي فيها أزهار حديقته، كان يخيل إليه أن عزيزًا عليه سيزوره عبر بوابة منزله إلى حد أنه كان يتركها مفتوحة كلما حان وقت ري الزهور...

وضع عدنان ساقية الزهور من يده، ووقف ينظر باتجاه المرأة الأنيقة من أمامه، التي كان ينتظر قدومها منذ يوم غادر بلادها، بينما كانت شامية لا تصدق ما تراه عيناها، لا تصدق أن ما آمنت به طوال هذه السنوات يتحقق الآن، وأن القدر عاد ليجدد اللقاء...

في تلك اللحظة اكتملت الصورة لدى الاثنين، بل إن بوادر المستقبل ترآت لكليهما، إلى حد أنهما لم يهتماً ماذا كان السبب في أحداث الماضي، بل إنهما لم يريا من الحياة سوى بوادر المستقبل المشرق الدافئ...

1. الغلاف
2. أتاتورك
3. أتاتورك رواية تأليف :مي صالح سلام تصوي
4. في نفس كل عربي، شيء عربي
5. بل إن الحقيقة هي أنك ذلك المغامر
6. أتاتورك... أجمل حقائق ومنتزهات إسطنبول
7. - انتظري سأتي معك... فريدت عليها شامية بض
8. أجاب سامر بكل ثقة: - لا سيدي عندها أكمل
9. - تفضلين الصمت لا بأس، ولكن سيكون ع
10. ***
11. لكن لم تستطع هي الأخرى أن تقراء ما يجوب
12. - لا عليك أنا أمازحك، ما قصدته بكلامي، ه
13. ***